مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات



من المُثل الإسلامية

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

٥١



إسلاميات

مكتبة المسلم العصرية



من المُثُل الإسلامية

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

سلسلة

مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

●

سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه

○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر

بأسلوب ميسر يفهمه العامة .
ويسعد به الخاصة

مراجعة هيئة كبار علماء

الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكرى روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ اختلط الشرق بالغرب ، حيث داهمه بحضارته المادية ، وتفوقه السياسي ، إذ استعمر أكثر شعوبه استعماراً سياسياً يخفي وراءه غزواً دينياً ، منذ وقع ذلك وألسنة المفترين تتناول حقائق الإسلام بالتحريف ، ومبادئ الشريعة الإسلامية بالتشويه . وكنت تقرأ ما يقوله أهل الغرض فى ذلك ، فتجد من ينكر كل حق فى الإسلام مع وضوحه الصريح ، فإذا صدمته الآية الساطعة من القرآن حاول تأويلها ، وإذا جابهه الحديث النبوى الصحيح تجرأ على إنكاره ، وعزاه إلى الوضع والانتحال ، وإذا وجد من واقع الإسلام التطبيقى فى عهدى الرسول الكريم والخلافة الراشدة ما يدل على مثالية الأهداف الإنسانية فى الإسلام لجأ إلى الافتراء الكاذب ، فرمى الرواية التاريخية بالمبالغة والتزيد ، وأخذ يصطاد الروايات المدخولة ليضربها بالروايات الصحيحة ، ولينتهى إلى ما يريد من محق الفضائل الراسخة شفاء لنار تتأجج فى صدر يستوى بالضغينة والعدوان .

وقد حاولت فى هذه المقالات أن أتحدث عن القيم الإنسانية فى الإسلام بما لا يقبل اللجاج ، فعرضت بعض المثل الإنسانية عرضاً محايداً ، أرجو أن يجد صداه لدى من يميزون بين اللجاج المعاند ، والمنطق المحايد ، وأولئك هم الذى يستمعون القول فيتبعون أحسنه مغتبطين ، وعلى الله قصد السبيل .

د . محمد رجب البيومى

أين المبشرون بالاسلام ؟

حين انعقد المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية كان من أبرز متحدثيه فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ على عبد الرحمن الوزير السودانى السابق والداعية الإسلامى الموفق ، فأفاض فى ضرورة نشر الدعوة الإسلامية بين الوثنيين من سكان أفريقيا وآسيا واستراليا ، وتحدث عن تجربة شخصية قام بها فى هذا المضمار حيث قال :

« وقد قضيت نحواً من ست سنوات وأنا أتنقل فى أرجاء المديريات الجنوبية الثلاث (أعالى النيل ، والاستوائية ، وبحر الغزال) ، وأتصل بالمواطنين البدائيين الضاربين بين منابت الأحراش والغابات ، ومواطن الحشائش والمستنقعات ، وزرت مراكز المبشرين من كاثوليك وبروتستانت محاولا فى أوقات فراغى أن أعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين أولئك البدائيين متعاوناً مع بعض الغيورين من التجار والموظفين ، مع دراسة لأحوال المبشرين المسيحيين ومتتبع لأساليبهم ، وأنشأنا جمعية (المؤلفة قلوبهم) فاستطعنا أن نبث الدعوة الإسلامية حسبما نملك من إمكانيات ومن جهد ووقت ومال ، واقتنعنا بأن العمل فى هذا الميدان سهل ميسور ، وأن ما يبذله المبشرون المسيحيون من مجهود لو بذل المسلمون عشر معشاره لأثمرت جهودهم أضعاف ما تثمره جهود المبشرين » . ثم أسهب الداعية الكبير فيما يعرض وجهة نظره ، فكان لحديثه المقام الأول بين أحاديث أعضاء المؤتمر ، وحسبه أن أيقظ النائمين .

ومع أهمية ما ذكره الأستاذ الداعية فإننا فى مدى ما يقرب من عام كامل لم نر من الكتاب من تناولوا قضية التبشير الإسلامى بالتحليل والدراسة ، وهى القضية الأولى للمسلمين إذا آمنوا عن يقين أن الإسلام دين البشرية بعامة وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى الناس كافة ! على حين نرى كتب التبشير المسيحى تنثال عن يمين وشمال ، لا يقتصر تأليفها على رجال الدين وحدهم ، بل على رجال السياسة والأدب والاجتماع والتاريخ ، ومن أطرف ما قرأت فى هذا المجال (الديانات فى أفريقية السوداء) للكاتب الفرنسى الأستاذ هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية

وأستاذ الدراسات السياسية بجامعة باريس ، وقد نقل الكتاب إلى العربية فى سلسلة الألف كتاب نقلا دقيقاً قام به الأستاذ أحمد صادق حمدى ! ودراسة هذا الكتاب الموجز تفتح مغاليق كثيرة أمام الفاحص البصير .

لقد اعترف الأستاذ هوبير ديشان — وهو داعية مسيحى متحمس — أن انتشار الدعوة الإسلامية فى غالب الظروف لم يقم على القهر والتسلط ، بل قام على الإقناع لأن الذين قاموا به مشايخ متفرقين لا تحوطهم قوة أو تحميهم دولة ! إنما كان الإخلاص دافعهم إلى إظهار محاسن الإسلام وسماحته ، وقد يسر انتشار الإسلام فى رأى المؤلف أنه دين فطرة سهل التناول خال من التعقيد ، وأنه لا يفرض على المسلم طقوساً مبهمة ، بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين لذلك كان التجار المسلمون من (الديولا) أو (الهوزا) يحملون بذور الدعوة الإسلامية فى هدوء ويسر !

وما قاله الأستاذ هوبير عن الدعاة من التجار فى أفريقيا هو عين ما يقوله كتاب التاريخ عن انتشار الإسلام فى بقاع العالم بعد انحسار موجة الفتح الإسلامى ، فقد وصل الإسلام إلى الصين بجهود التجار الرحل الذين يجوبون البلاد بحراً عن طريق الهند ، وبراً عن طريق ما وراء النهر ، وإذا قرأت تاريخ انتشار الإسلام فى جزائر سومطره وجاوه وسرنديب والفيلبين وسيام واستراليا والبرازيل تجد من قاموا بانتشاره هم زملاء الذين قاموا من التجار الرحل ببعثة السودان وبلاد السنغال وغينيا وساحل العاج وتوجو ونيجيريا وساحل الذهب ومدغشقر وزنجبار وأثيوبيا !! دعاة عزّل فهموا بساطة الإسلام وسهولته ، واعتقدوا صلاحيته وهدايته ، فبسطوه كما فهموه ، فلم يحتج إلى جيوش استعمارية تتقدم الأوربيين بالحديد والنار لتأخذ الوثنيين إلى المسيحية عن يد وهم صاغرون ! بل أن التتار والمغول وكانوا فى مبدأ جبروتهم كارثة على الإسلام ومحنته لم يلبثوا وهم الغالبون أن اعتنقوا دين المغلوبين !

وتلك عجيبة لا نرى لها نظيراً فى التاريخ البشرى كافة حتى قال السير توماس أرنولد ما ترجمته :

(لا يعرف الإسلام بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولا من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة على

أن الإسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ، ويحملهم على اعتناقه ؛ ويرجع الفضل فى ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما المسيحية والبوذية) ا هـ . نقلا عن تاريخ الإسلام السياسى .

وسنقوم هنا بدراسة مقارنة لأساليب انتشار الإسلام والمسيحية معاً فى أفريقيا كما دونها كتاب المسيحية أنفسهم لنرى مصداق ما ذكره الأستاذ على عبد الرحمن من أن ما يبذله المبشرون المسيحيون من جهود لو بذل المسلمون عشر معاشره لأثمرت جهودهم أضعاف ما تثمره جهود المسيحيين ! وأظننا نستطيع فى ضوء ذلك أن نغير خططنا الفردية فى نشر الإسلام بما نشاهد من أساليب أوربا فى تنمية المسيحية وازدهارها لا على حساب الوثنية وحدها ، بل على حساب الإسلام دون اعتبار لمبادئه الرائعة وصراطه المستقيم .

لم تكن المسيحية شيئاً متوقع الازدهار قبل مبدأ القرن التاسع عشر ، حتى نهضت حركة الكشف الأفريقى مواكبة بعثات التبشير المسيحى ، فتدفقت البعثات الأوربية من إنجليزية وهولندية وفرنسية وأمريكية وبرتغالية ، وقد استوطن الرجل الأبيض مناطق كثيرة فانتهز فرصة الانحلال القبلى وضعف المقاومة أمام أسلحة الدمار من حديد ونار وقذائف ، وجعل يفرض المسيحية على الأفريقيين فرضاً ، والغريب أن هذا الدين الذى جاء به عيسى لينشر المحبة والتسامح كان مبعث شقاق بين أتباعه ، حيث عمل البيض من الهولنديين على تخصيص كنائس مهملة للملونين ، ومعابد شاهقة للبيض ، وطبيعى أن يحدث هذا الامتياز العنصرى أثره فى النفوس إلا أن وسائل الإغراء الأخرى قد خففت بعض نتائجه .

وحين صدر تحريم بيع الرقيق واختطافه كانت عصابات الاستعمار الأوربى هى التى تزاول هذه التجارة الفاضحة ، وقد تركت أسوأ الأثر فى نفوس الأفريقيين الذين راعهم أن تكون قبائلهم نهباً ضائعاً يتخطفه أعداء الإنسانية فى شراهة تلحق العار بكل متحضر ، وبدلا من أن يسدل مبشرو المسيحية الستار على أحداث هذه الفجائع المروعة ، فقد جعلوا منها سلاحاً يحاربون به الإسلام ، فأذاعوا أن تجار الرقيق من

مسلمى العرب لأن دينهم الإسلامى يبيح الرق ويدعو إليه ، فكانت هذه الدعاية المسمومة ، يتجه بها قسس يظهرون الرحمة ، ويبالغون فى التودد تفعل فعلها الأليم فى بذر الكراهية لكل ما يتصل بالإسلام والمسلمين حتى تنصرت قبائل ساذجة كانت قد اعتنقت الإسلام دون أن تجد من يهديها إلى تعاليمه ، فصدق رجالها أكاذيب المرجفين . وارتدوا عن الإسلام لأنه فى منطقهم الغافل جعل أتباعه يتخطفون الرقيق !

أما السلاح البارد الحار الذى صوب إلى معتنقى الإسلام فهو إنشاء مدارس فى المناطق الإسلامية تتظاهر بأنها لا تتعرض للمسائل الدينية ولكنها تنشر الثقافة والتعليم لا أكثر ولا أقل ، وقد خدع بها المسلمون فقذفوا بأبنائهم إليها ، ثم مضى بهم الزمن فكانوا قادة الأمر فى البلاد ، وقد اعتقدوا من خلال الدراسات المغرضة أن المسيحية دين الحضارة والمدنية ، وأن الإسلام صحراوى بدوى أدى دوره فى الزمن السحيق ثم تمسك به أتباعه فى عصر الحضارة فجمدوا على الجهل ، وران عليهم التأخر ، وكان الإسلام علة العلل فى احتلال العالم الإسلامى وتخبطه فى الظلمات ، وإذا كان هذا اعتقاد أبناء المسلمين أنفسهم ممن تعلموا فى مدارس التبشير ، فماذا يكون اعتقاد الوثنيين ممن لجأوا إلى المدارس المسيحية الخالصة فعلموا بها أن أوربا لم تبلغ منزلتها الحضارية بغير تعاليم السيد المسيح !

هذا وقد أنشئت بمختلف العواصم الأوربية معاهد عالية لدراسة أصول الأديان ، وهدفها الأعظم دراسة المناخ الجغرافى والاجتماعى والنفسى لسكان القبائل من الزنوج لرسم الخطط التى تتفق وميولهم النفسية فتسهل مهمة اجتذابهم إلى المسيحية ، وقد كان أوائل المبشرين فى مفتتح القرن التاسع عشر يعتقدون أن الحضارة الأوربية والديانة المسيحية جزء لا يتجزأ ، وأن الديانات الوثنية خرافات محتقرة فاتجه همهم الأكيدإلى استئصالها من النفوس ليرسوا على أنقاضها تعاليم المسيحية ومبادئها ، ولكن تباطؤ التقدم المسيحى على نحو لا يرضى المتعجلين قد دفع أساتذة التبشير إلى تغيير هذا الاتجاه العدائى ، وأتوا بنظرية معارضة تدعمها دراسة الأجناس بعامة ، وتتلخص فى إظهار التقدير للعقائد الوثنية ، على أن تستغل بذورها للتطوير السريع نحو المسيحية ، وقدأفاض الأستاذ هوبير ديشان فى شرح أساليب التطبيق العملى لهذه النظرية الجديدة ، وكان مما قاله نقلا عن الترجمة العربية ص ١٧٢ :

(ولذلك فرض على أعضاء البعوث التبشيرية قبل أن يقصدوا تلك الجهات اتباع خطة مرسومة تقضى بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة وتفهم نظمها الاجتماعية وعاداتها ولغتها كما يجب على المبشر أن يختلط بالسكان للزيارة وأداء الخدمات ، والإخلاص فى التعاون معهم فى كل فرصة تتطلب ذلك فالمدرسة والمستشفى والمستوصف والمثابرة على الدعوة المسيحية وترجمة الكتاب المقدس والتعليمات الدينية إلى لهجة السكان ، ومعرفة الأعياد المقدسة وغرس شعور الأخوة المسيحية بين الجميع) .

على أن أنجح خطة مهدت لانتشار المسيحية هى اتجاه الكنيسة إلى تعيين قساوسة من الزنوج الأفريقيين ليفاجأ الوثنيون بإخوانهم فى لباس كهنوتى فيحدثون تأثيراً ينعدم معه ما وقر فى بعض الأذهان — عن حقيقة أليمة — من عداء صارخ للرجل الأبيض المستغل ولذلك انتشرت المدارس الكهنوتية التى تخرج القساوسة الملونين ، نقرن هذه الإمكانيات الضخمة لدى أمم أوربية حاذقة متسلطة بما قام به مبشرو الإسلام تجاه الزحف المسيحى ، وإذا كان المعروف أن دول الإسلام فى القرن التاسع عشر إلى منتصف هذا القرن تقريباً كانت من الهوان والجدب والاحتلال بحيث لم تستطع أن تدرأ عن نفسها ، والمستعمر فى كل دولة يغزو الإسلام بشبهاته بين أتباعه ومعتنقيه ويستطيع فى هوادة أن يمنع بطلقة مدفع واحدة كل تسلل للتبشير الإسلامى يقوم به أفراد عزل متحمسون ! ومع هذه الحالة اليائسة المويئسة فقد استطاع التبشير الإسلامى الفردى الأعزل أن يسير تجاه التبشير المسيحى الجماعى المسلح ؟ أى قوة للإسلام تلك التى أمدته بعناصر قوية قاومت الحضارة المزدهرة والتسلط المتمكن والجبروت النافذ والافتراء الكاذب المموه إن لم تكن قوة الحق فى دين أرسله الله لإنقاذ الناس !

ليت هؤلاء العزل المتحمسين من مبشرى المسلمين يكونون تحت قيادة جماعية مثقفة تهديهم الطريق ، كما كان الأمر فى مبدأ انتشار الدعوة من زوايا المتصوفين من السنوسيين والعلويين وأتباع الحاج عمر بن قدرة ورواد الجلابة من السودان ، وأعضاء جمعية التبشير السودانية ، فيظل للدعاة منهجهم المستنير ، ولكن الكارثة كل الكارثة أن ينتمى للتبشير الإسلامى جهلة أقرب إلى المشعوذين لم يفهموا شيئاً من تعاليم القرآن ، وأطلقوا لحاهم ليشبهوا السحرة فقط فيقوموا بأدوارهم الشائنة فى استحضار الجن

وإطلاق البخور والتبرك ببعض الحيات والحشرات ، والتكهن عن طريق ضرب الرمل وتلاوة آيات من القرآن تفهم لديهم على غير وجهها الصحيح ، ومداواة المرضى بالأحجبة والتمائم وتدليك المريض ليصح ، ووضع الريق على مكمن الداء ! وكل ذلك يستغل لدى قساوسة التبشير استغلالا متعصباً فيكون أداة للتنفير من دين يقوم رؤساؤه بهذه الأوهام وهى بذلك فى رأيهم من صميم الإسلام إن لم تكن لبه اللباب .

هذا ، وقد انجلت مناقشات المؤتمر الأول لمجمع البحوث عن حقائق أليمة ، إذ تحدث بعض الأعضاء عن خلافات القاديانية والأحمدية والبهائية وأتباع أغا خان ، وإلباس أكثر ما يدور من جدل ثوب الإسلام فيستدعى الرد من أصحاب العقيدة الخالصة وتدور رحى طاغية لا تقل عنفاً وخطراً عن صراع التبشير المسيحى الموجه مباشرة إلى معتنقى الإسلام !

من الواجب — أتم الواجب وآكده — أن نبدأ العمل الجاد فى نشر الدين الإسلامى بعد أن استيقظت دول الإسلام فى هذا العصر بأمر حاسم هو دراسة أساليب التبشير المسيحى فى تخريج الدعاة ، وإنشاء المنظمات ، ورصد الأموال الضخمة ، وتنشيط وسائل الإعلام والنشر ، ودراسة المناخ النفسى والاجتماعى والاقتصادى للوثنيين ! ولن يعوز ممالك الإسلام أن تنفق على ذلك فى إخلاص برىء من الغرض لتتم كلمة الله .

على أننا بعد لا نتعصب على المسيحية فى شىء ، فنحن نهدى الوثنيين من الزنوج ، فإذا سمى هذا العمل تعصباً إسلامياً ، فماذا نسمى عملهم فى تنصير المسلمين ...

وسيرى القارئ فيما يلى من الصفحات ، أمثلة إنسانية يفرضها الإسلام على معتنقيه وهى بسموها الخلقى ، وارتقائها المترفع ، لسان يدعو إلى تقدير هذا الدين ، لما أوحى من قيم وأكد من أهداف .

مثل الاسلام تبعث على اعتناقه

دراسة ميدانية

(أ) مقــــدمة :

منذ انتهت الحروب الصليبية ، وخصوم الإسلام يفكرون فى وسيلة أخرى للنيل منه ، وقد ساعدهم على ذلك أن الدول الإسلامية فيما تلا هذه الحروب لم تستجب لداعى الزمن كى تواصل بحوثها العلمية لتواكب المد الحضارى فى أوربا ، فكان من العجيب أن يتقهقر الشرق فى المضمار العلمى متخلفاً ، وأن يتقدم الغرب فى عالم الاكتشاف والتقدم الصناعى سابقاً ، حتى انفرجت الشقة عن دول تستغر بسلطان العلم ، وما يقدم من أسلحة الانتصار والاحتلال ، ودول تستكين أمام العدوان فتقع فريسة لاستعمار متربص بكل خير ، ناهب لكل ثراء .

وما حان القرن التاسع حتى أصبح العالم كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : (منقسماً إلى حضارة حديثة فى الغرب ، وحضارات قديمة فى الأقطار الآسيوية والإفريقية ، وكان المسلمون — إلا القليل منهم — فى هذه الأقطار .

تخلف المسلمون عن ركب الحضارة فى الصناعات والمخترعات والعلوم الحديثة ، وأصابهم هذا التخلف فى مرافقهم جميعاً . ومنها الزراعة والتجارة التى كان قوامها الأكبر على الملاحة الشراعيـة ، فتراجعت شيئاً فشيئاً أمام ملاحة البخار ، وتراجعت كذلك عن سيادة البحار .

ولمـا تقدمت مرافق الصناعة والتجارة فى الغرب تقدمت معها وسائل التنظيم والإدارة ، وبقى الشرقيون جميعاً ، والمسلمون منهم متخلفين فى هذه الوسائل إلى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل ، وأصبح العالم الإسلامى فى مقدمة الأهداف التى تصوَّبت إليها حملات الغرب الثلاث ، وهى حملات التبشير والاستغلال والاستعمار)[1] .

---

(١) الإسلام فى القرن العشرين للعقاد ، ص ٥٠

كان هذا الضعف المؤلم مقارناً بازدهار الدول المستعمرة مدعاة إلى بحوث مغرضة قام بها كتاب الغرب وأساتذة الاستشراق ، فأخذوا يتحدثون عن الأمم الإسلامية متلمسين وسائل إصلاحها — كما يدعون — وقد أدت بحوثهم المغرضة بهم إلى القول بأن الإسلام علة العلل فى تأخر المسلمين ، إذ يعادى العلم الصحيح ، ولا يتحمل الفكر الحر ، كما أنه وليد بيئة صحراوية لا يصلح لغيرها ، فلا يجوز أن يقود دولة ما فى عصور الحضارة المزدهرة ، وقد أصبح هذا اللون من الحديث التبشيرى طابع الكتابة عن الإسلام لدى الكثرة من باحثى الغرب ، حتى لدى من عرفوا باستقلال النظر واتساع الفكر ، فوجد أساتذة مثل أرنست رينان ينكرون أن يكون للعرب أدنى تقدم فكرى .

وقد رد عليه جمال الدين الأفغانى بما هو مشهور متعالم لدى الدارسين ، وتبع رينان تلميذه (الدوق داركور) فأصدر كتاباً يزعم فيه أن الإسلام عدو البحث النزيه ، وأنه علة العلل فى تدهور أبنائه فى شتى الدول الإسلامية ، وأن الإيمان بالقضاء والقدر لدى المسلمين جعلهم كسالى لا يصلحون لشىء وقد قام قاسم أمين بالرد على هذه الأراجيف باللغة الفرنسية ، ليكشف ضلال هذه الترهات ، ثم تعالت هجمات (المسيوهانوتو) وزير الخارجية الفرنسية طاعناً الإسلام بأسوأ ما يمكن أن يفترى من الادعاءات ، فرد عليه الإمام محمد عبده رداً حاسماً ولكن تبجح المدعين لم يهدأ ، فقد سنحت أمامهم الفرصة إذ رأوا ضعف المسلمين فى كل الدول الإسلامية ، فلابد من انتهازها كى يطعنوا الإسلام .

وكان المظنون بعد انتصار أوربا على الدول الإسلامية فى مطلع القرن التاسع عشر أن ينحسر مد الإسلام ، وبخاصة أن الأقلام المغرضة قد شرعت تهاجمه كل يوم ، فما خلا أسبوع واحد من كتاب أو مقال أو ندوة تتسع ، للزراية على الإسلام والمسلمين ، وإذا صدر فى هذا المنحى بحث تبشيرى ترجم سريعاً إلى لغات الإسلام ، من عربية وفارسية وتركية وأوردية لينشر سمومه بين المسلمين فى كل مكان حتى تخصصت أجهزة فى وزارات الخارجية الاستعمارية لإذاعة هذه الافتراءات ، وقد نسى هؤلاء أن الباطل يذهب جفاء ، وأنه لا يصح إلا الصحيح .

لقد فوجئ المتحمسون لاتهام الإسلام بانتشار عقيدته فى أماكن لم تعرفه من

قبل ، على أيدى أناس من التجار والوعاظ لا يعتزون بسلطان دولة ، أو إرهاب سيف ، بل يقرءون كتاب الله شارحين مفسرين فيستميلون الأفواج خلف الأفواج ، فى أفريقيا وآسيا ، وكان امتداد الإسلام من السعة والشمول وسرعة الإقبال ، مما أفزع خصومه ، فظهرت بحوث أخرى لديهم تعلل ما أسمته بخطر الزحف الإسلامى ، ولكن الحق لم يعدم النصير ، إذ قام المستشرق الإنجليزى السير توماس أرنولد بكتابة بحث محايد تحت عنوان (الدعوة إلى الإسلام) تحدث فيه بتركيز هادن عن انتشار الإسلام فى العـالم كله ، منـذ ابتدائه حتى آخر لحظة يكتب فيها المؤلف صفحات كتابه ، فأوضح أن أخلاق الإسلام نظرياً وتطبيقياً ، كانت مبعث انتشاره ، وقال فى جلاء واضح : (وحيثما شق الإسلام طريقه نجد هناك الداعية المسلم حاملا الدليل لعقائد هذا الدين ، فالتاجر سواء كان من العرب أم المندبجو ، يجمع بين نشر الدعوة ، وبيـع سلعته ، وإن مهمته لتصله صلة وثيقة مباشرة ، بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام ، وتنفى عنه كل ما يحتمل أن يتهم به من عوامل شريرة ، وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية ، فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات الصلاة والعبادات التى يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائناً خفياً ، وأن ما يتحلى به من سمو عقلى وخلقى ليفرض احترامه والثقة به على الأهالى الوثنيين ، الذى يبدى لهم فى نفس الوقت استعداده ، ورغبته فى مدهم بمزاياه ، ومعارفه السامية)[1].

ومضت الأيام وانقضى القرن التاسع عشر المبلادى ، وهو من أقسى القرون شدة على مواطن الإسلام ، ومن أحفلها بالكوارث الداهمة للمسلمين ، وكان من المرتقب أن يكون القرن العشرون ذا نتيجـة منطقية لمـا تقدمه من الاضطهاد ، والتشويه والتجنى ، ولكن المسرح ينقلب فجأة أمام النظارة الذين يرتقبون خاتمة الرواية ، بمشهد نهائى يصور اندحار هذه العقيدة ، بعد أن تتبعها الإرجاف الملح ، لأن رد الفعل المضاد قد أورث المسلمين يقظة وانتفاضة فبرزت للإسلام دولتان كبيرتان فى آسيا هما أندونيسيا والباكستان ، وأخذت دول أفريقية تنشط جاهدة للخلاص من الاستعمار ، وهى تضم قرابة من مائة وخمسين مليـوناً من المسلمين ، وهؤلاء جميعاً

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، تأليف أرنولد وترجمة الدكتور حسن إبراهيم وزميليه ص ٢٩٧

يؤمنون بدينهم عن يقين صارم مكين ، وفيهم من يبذل الروح سعيداً فى مناوءة خصومه الجاحدين ، لأن التيار المضاد قد زاده حمية وحفاظاً .

لابد إذن من بحث تبشيرى يتعمق أسباب انتشار الإسلام على هذا النحو المباغت ، فى عهده الأخير ، ولن يتجه البحث وجهته المعقولة فيعدد مزايا الإسلام الحقيقية التى تجذب إليه المنصفين ، ولكنه يبحث عن مبررات هى إلى الاحتيال أقرب منها إلى البحث العلمى الصحيح ، فقد انطلق هؤلاء المتألمون يبحثون عن تعلات موهومة حين يتحدثون عن تعدد الزوجات ، فيزعمون أنه يغرى الإفريقى باعتناق الإسلام ، أما فى آسيا فالمنبوذون يرون فى الإسلام مساواة عادلة تجذبهم إليه ، وتلك فضيلة للإسلام حقاً ، ولكن الذى يسجلها من هؤلاء لا يعنى بإيضاحها قدر ما يعنى بالقول بأنها كانت مصيدة فى رأيه توقع المنبوذ فى شرك جديد .

وبمراجعة ما قاله هؤلاء المغرضون نرى أن تعدد الزوجات كان مباحاً لدى الوثنى قبل أن يعتنق الإسلام ، فلو كان هذا التعدد وحده هو الذى جذبه إلى نور الإسلام لكان دينه الجديد بالنسبة إليه من قبيل تحصيل الحاصل ، وإذن فلا بد أن يكون انتقاله إلى الدين الجديد وليد اقتناع بمبادئ رحيمة تطمح إليها النفوس ، وتتلاءم معها الفطر الصحيحة ، أما المنبوذون فإن وجدوا مصدر خلاصهم فى الإسلام فأنعم به ديناً يسوى بين الناس جميعاً ، إذ لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله ، ولكن الذين سارعوا إلى اعتناق الإسلام ليسوا هم المنبوذين وحدهم ، ففى الهند وجاوة وسومطرة والصين ومختلف البلاد أناس مفكرون لم يكونوا منبوذين ، وقد سارعوا إلى الإسلام عن فحص واختبار ، إذ رأوه مهوى الأفئدة ومطمح النفوس .

والذين يقولون إن الإسلام يرضى الشهوات حين أباح تعدد الزوجات ، ينسون أن الإسلام قد حرم الخمر ، وهى عند عاشقيها مما يصعب تجنبه ، فإذا كان تملق الشهوات باباً للدخول فى هذا الدين ، فإن تحريم الخمر مما يصد عنه ، وأولى بهؤلاء الذين يعصرون أذهانهم فى اصطياد المبررات المسفه أن يواجهوا الحقائق السافرة ، إذ لا يفيدهم فى شىء أن يعكفوا على تخيل شبهات لا تجد سبيلا إلى الإقناع .

وإذا بطلت هذه التعلات فإن الأسباب الحقيقية لنشر الإسلام على هذا المدى الرحيب حيث اكتسح كل العقبات ليست مما يجهل ، لأن أحكام الإسلام تشريعاً

وهداية ذائعة مشتهرة ، ولها كتبها المتعالمة بين الناس ، أما الذى يجب أن يكون موضع دراسة ميدانية واقعية فهو دراسة أقوال من يعتنقون الإسلام فى عصرنا الراهن لنعرف أى بريق جاذب كان من القوة الخارقة بحيث بدل عقائدهم المتوارثة ، وجذبهم من دين إلى دين ، وإذا كانت هذه الدراسة مما تتشعب وتمتد لكثرة من استضاءوا بنور الإسلام ، فإن الاكتفاء ببعض الأقوال الهادفة مما يشبع رغبة المتعجل ، وللتفصيل المستوعب — بعد — مجاله الفسيح .

وسأقدم فيما يلى كتاباً جاداً يرسل بعض الأشعة المنيرة عن واقع عملى لا مجال فيه لافتعال متخيل ، أو تلفيق منتحل ، بل هو الحق المجرد عن كل قناع ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

(ب) كتاب هادف :

منذ عشرين عاماً وأنا أقرأ بالمجلات الإسلامية مقالات تتحدث عن أناس يعتنقون الإسلام بعد دراسة واقتناع ، وكانت هذه المقالات من الدسامة والقوة والنفاذ بحيث دفعتنى إلى جمع نماذج هادفة منها ، وكم كنت أود أن تنهض دار للنشر فتجمع كل ما ينشر بهذا الصدد فى كتب دورية ، تكون بتكاملها المتصل مادة للنظر الموضوعى ، وموضعاً لدراسة فاحصة ترشد من يسعون إلى نشر الإسلام فى الحياة الدنيا بقاراتها الخمس .

والحق أن الدعوة الإسلامية فى حاجة إلى معهد خاص يدرس أساليب الإعلام المستنير ، ويهيىء من الدعاة من يتسلح بسلاح العصر فى ثقافته المتطورة ، وحيويته الواثبة ، ويلم بمشكلات الحائرين ممن يتعطشون إلى دراسة دين صحيح حر ، ويجدون فى الإسلام أملا ينقذ ، وهادياً يرشد ، ومناراً يضىء ، لأن ثقافة العصر قد هزت معاقل الأديان المحرفة ، وعجزت أن تنال الإسلام بما يسىء ، بل إنها فى لبابها الصحيح قد أقبلت نحو الإسلام مصافحة معانقة ، ولو ذهبت غشاوات التعصب عن العيون لرأيت الإسلام يسيطر تلقائياً دون تبشير ، وما دامت حوائل التعصب ، وغشاوات الضلال تعوق النور أن يمتد إلى ربوع الظلام فإن واجبنا فى نشر الإسلام يحتم اليقظة الجاهدة ، والعمل المثابر حتى يظهر الله دينه ، ولو كره الجاحدون .

لقد قرأت فى هذه الأيام كتاباً تحت عنوان (رجال ونساء أسلموا) فى ثلاثة

أجزاء متوسطة بقلم الأستاذ الهادف « عرفات كامل العشى » .. فسرنى احتفاله بموضوعه واهتمامه بمادته وصبره الجاد على المراسلة والمحادثة حتى تهيأ له هذا القدر من الصفحات ، والكتاب بعد لذيذ العرض على دسامة مادته ، ولطيف إشاداته وفيه مجال نظر جاد لمن يهمه أن ينتشر الإسلام بين العالمين ، إذ يرسم هواجس الحيرة ووساوس الشك عند من لا يطمئنون إلى ما ورثوه من عقائد ، ثم يضيف إليها لذة الاطمئنان وبرد اليقين لدى من هداهم الله إلى نوره ، فتوجهوا إلى الإسلام واثقين ..

وقد تابعت أقوال هؤلاء المهتدين وفيهم من كان مسيحياً ومن كان يهودياً ومن كان هندوكياً ومن مال إلى الإلحاد فاعتنق الشيوعية أوالوجودية ، ومن كان الانحلال الخلقى يقضى على شبابه وقوته فيرمى جسده بالهزال فالفناء ويصم سلوكه بالانحطاط والتدهور حتى أبصر فى حالك الديجور قبساً من نور الإسلام ، فكان صخرة النجاة للغريق ، ومرفأ السفينة التى غالبت الأعاصير حتى انتهت إلى الشاطئ بسلام ، وفى هذه الأقوال ما يوجه دعاة الإسلام إلى خير ما يجنون به أطيب الثمار بأيسر الجهد لو عرفوا الطريق .

لقد كان الإسلام بيسره وسماحته عامل جذب قوى لمن وازنوا بين الضر والنفع والخير والشر ، فرجحت لديهم كفة العقل ، وأجابوا داعى الله عن اقتناع منطق لا تعترضه الوساوس ثم هبوا يعلنون على الملأ حقيقة ما اهتدوا إليه من دين يشد الأزر ويقوى العزم ويعلو بمعتنقيه على مفاسد البيئة ، وأوهام التقليد ، إذ يريه الرشد من الغى ويهديه النجدين ، وفى استعراض جانب من أقوال هؤلاء المهتدين ما يجلو أهم الحقائق الناصعة التى يتميز بها هذا الدين القويم .

(ح) سلوك المسلم :

كان سلوك المسلمين فى عهد الفتوح الأولى سر انتشار الإسلام فيما امتد إليه من أصقاع ، ولو كانت القوة الحربية وحدها هى التى أرهبت فارس والروم لتقلص الإسلام بتقلص هذه القوى الواثبة ، ولكن التاريخ يثبت أن سلوك الفاتحين كان مصدر تمسك المغلوبين بدين الغزاة حين رأوهم رسل رحمة وفضيلة ، ودعاة عدل ومساواة ورجال أخوة ووئام ، هذا لدى الأمم التى حوربت بالجيوش ، وقوبلت بالصدام ولن تكون شيئاً جوار الأمم التى اعتنقت الإسلام طواعية دون قتال ، بحيث

كان التاجر الأعزل يتقدم بدينه إلى المئين والآلاف داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيجد الاستجابة السريعة والامتثال المطيع ، إذ يكون داعية بلسانه، وقدوة بسلوكه الأبىّ ، وخلقه الوفى ، وطهره النبيل ، وما سجله التاريخ فى هذا المضمار يجد مثيله فيما اعترف به هؤلاء المهتدون إذ رأوا فى سلوك من دعوهم إلى الإسلام نبلا حياً ، وطهراً رفيعاً ، ورحمة حانية ، ونصراً وتعاوناً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وإخاء فى ذات الله يقوم على البر والإنصاف دون تحيز أو استعلاء .

١ — كان (استريد هيرما سمارت) الأمريكى طالباً بجامعة الينوى بالولايات المتحدة ، وقد أتيح له أن يدرس القرآن ، وأن يصاحب بعض المسلمين ، فوجد من إخائهم المتعاطف ما دفعه إلى مناقشتهم ، والاندماج فى صحبتهم ، حتى أنس بما ينعمون به من تراحم أخوى لا يعرف الغرض ... فكان هذا المجتمع النظيف فى نهجه السلوكى المتراحم مصدر إعجابه بالإسلام ، وسر انجذابه إلى المسلمين ، وهو يقول فى ذلك (ص ١١ ج ١) :

(إن المسيحية تنادى بالشفقة ، وأن يكون المرء حارساً لأخيه) ولكن إذا قورنت هذه العبارة بأخلاق المسلمين فى جامعة الينوى وأعمالهم ، ومدى عطفهم على بعضهم البعض وعلى الآخرين فإنها تبدو عبارة جوفاء ، وسأذكر أمثلة لذلك ، فمن غير المسلم يتبرع بتوصيلى إلى البيت وسط عاصفة ممطرة ؟ وقد علمت فيما بعد أنه تلقى رسالة من عائلته بنبأ عن وفاة والده ؟ ومن غير المسلم يجمع التبرعات لأخيه المسلم الذى استنزف أمواله كى يتسنى له دراسة سنة أخرى لإنهاء إجازة الدكتوراه ، ومن غير المسلمين يساعدون أخاً لهم على نقل أغراضه التى ملأت ثلاث سيارات عندما طلب إليه إخلاء البيت فجأة ، وقد قام بهذه العملية حوالى ثمانية عشر مسلماً) ! .

٢ — ويقول (ركس انجرام) الإنجليزى فى بعض حديثه (ص ٣١ ج ١) :

(وفى الثلاثينات قدمت إلى الإسكندرية وهمت على وجهى حتى وصلت إلى دمنهور ، وعلى شاطئ ترعة هناك رقدت ، وفى أثناء نومى رأيت دخاناً يتجمع ثم يضىء ... وصحوت وكلمة الإسلام ملء ناظرى وحواسى ، وفى الطريق ما مررت بقروى إلا أقرأنى السلام ، ودعانى للطعام ، وبذل جهده فى إكرامى وإضافتى فى منزله ، وأنا غربى وهم شرقيون ، أختلف عنهم طبعاً وديناً ، فما بالهم يسارعون إلى

إكرامى ، أنا الذى رأيت كيف يرتاب الناس فى بعضهم ؟! وإذا وجدت رجلا يأكل ووقفت إلى جانبه ، فهل هو يشركك فى طعامه عن طيب خاطر ؟ وهل إذا قرعت باباً يفتح لك على مصراعيه فتنزل ضيفاً كريماً ؟ تواردت هذه الخواطر على نفسى وحاولت الإجابة عنها ، وعند ذلك علمت أن الإسلام هو الذى جعل تلك النفوس حية كريمة) .

٣ — أما (حسين رءوف) وهذا اسمه بعد ما ترك المسيحية فقد كان مصلحاً اجتماعياً من خيرة شباب الإنجليز المثقف ، إذ ولد لأبوين أحدهما يهودى والآخر كاثوليكى ثم تربى فى مدرسة إنجليزية لم تترك فى نفسه اهتماماً بالمسيحية ، فاتجه إلى دراسة اليهودية فأنكر عليها أنانيتها المتعالية وازدراءها لإخوان يشاركون اليهود إنسانيتهم البشرية ووجدها فى النهاية طقوساً تشاكل طقوس المسيحة فى سطحيتها الساذجة دون تأثير حى فى الروح الإنسانى ، ولكنه عاشر المسلمين فى لندن فشاهد من سلوكهم الذاتى ما طمأنه بداهة إلى سمو دينهم الواقعى ، وقد أفاض فى ذلك قائلا عن نفسه (ص ٤٥ ج ٢) :

(وقد دعيت ذات يوم لمشاهدة الصلاة (الإسلامية) والمشاركة فى تناول طعام الغداء الذى قدم عقب صلاة العيد ، وكان ذلك فى عام ١٩٤٥ م مما أتاح لى الفرصة لتأمل مجموعة دولية من المسلمين عن كثب ... لم تكن تلك المجموعة من العرب ، ولا من أية قومية أخرى ، وإنما كانت ثلة تمثل مختلف أجناس الدنيا وطبقاتها الاجتماعية ، وكان فيها شتى ألوان البشر ، فقد التقيت ضمن هذه المجموعة بأمير تركى ، كما لقيت أناساً يمكن اعتبارهم فى الحياة العملية من طبقة الشحاذين ، وجلس هؤلاء وأولئك جميعاً يتناولون طعام الغداء (بمناسبة العيد) بعضهم مع بعض ، ولم تبد من الأغنياء أية بادرة تنم عن التواضع المفتعل ، كما لم تشم أى رائحة من النفاق المغرور بالنسبة للشعور بالمساواة التى كانت تنبعث من الرجال البيض ، وهم يتحدثون مع جيرانهم الزنوج ، ولم تجر أى محاولة للانسحاب أو الانعزال عن بقية البشر (كما فى اليهودية) كما لم أشاهد أى تعاظم مضحك من قبل أى أحد منهم يتصنع الفضيلة ويخفى الأثرة ... وهذا جو لم أعثر على مثله فى مكان آخر ، وحسبى أن أقول أنى دخلت هذا الدين بعد تفكير وتأمل مناسب وبعد دراسة جميع الأديان الهامة فى العالم) .

ثم يقول (ص ٤٨) : (لقد سافرت إلى أقطار كثيرة فى أنحاء العالم وأتيحت لى فرصة كافية لملاحظة طريقة استقبال الأجانب فى كل مكان ، فلم أجد أحداً من أتباع الديانات الأخرى كالمسلمين فى كرم ضيافتهم وعطفهم على الغرباء المبرأ من كل مصلحة ، بصرف النظر عن رد الفعل المبدئى المتمثل أحياناً فى مساعدة الغريب ، أو مسألة معرفة هويته ، واكتشاف المزايا والفوائد التى يمكن جنيها من ورائه) .

لقد أطلت بعض الشىء فى الاستشهاد بحديث هذا النابغة الذكى ، لأن ذهنه اللماح قد هداه إلى اكتشاف الأغوار العميقة بعد أن تجاوز القشور السطحية فهو يفرق بين التواضع الطبيعى ، والتواضع المفتعل ، ملاحظاً دلائل هذا وذاك كما يفطن إلى النفاق المغرور عند من يصطنع المساواة ... والإخلاص الطاهر لدى من يعتقد هذه المساواة اعتقاداً لا يعرف الغش والدجل ، ثم هو يهزأ بكل تعاظم مضحك من قبل من يتصنع الفضيلة ويخفى الأثرة ، وكل ذلك لا يتضح بجلاء إلا لعين نافذة تتسلح بالقراءة الذكية والاستشفاف البصير ، والإحساس الحى ، كما يقدر فى حسابه رد الفعل المبدئى حين يتكارم البخيل رغبة فى اكتشاف المجهول والاستفادة مما يمكن أن يتاح لدى هـــذا الغريب الوافد ، ومثل هذا الإنسان النابه جدير بأن يكون عالم نفسى وخبير اجتماع .

٤ — ونختم حديثنا عن سلوك المسلم بما تحدث به مسلم انجليزى بارز يحمل لقب بارون من الدرجة الثانية . وقد شغل منصب قائد فى سلاح الدفاع الملكى البريطانى كما كان رئيساً لجمعية سلسى للمحافظين ، وهى رئاسة لم تأت عفواً دون اختبار ، بل جاءت نتيجة اعتراف حقيقى بالكفاءة التامة والموهبة المقتدرة ، وقد مهد لحديثه بمقدمة منصفة جلا فيها حقائق هامة رغم إيجازها الدقيق ...

قال البارون عبد الله ارشيبا هاملتون الإنجليزى (ص ٨٠ ج ٢) :

(كان اعتناقى للدين الإسلامى تلبية خالصة لما يمليه ضميرى ، ومنذ ذلك الحين وأنا أحس أنى رجل أفضل ، وأصبحت إنساناً حقيقياً ، ليس هنالك أى دين من الأديان تعرض لمثل ما تعرض له الإسلام من إساءة على يد الجهلة والمترمتين ، ولكن يا ليت قومى يعلمون أن الإسلام يمنح القوة للضعيف ، والغنى للفقير) .

ثم يتحدث عن السلوك الإسلامى حديث المشاهد المتأمل ، فيقول (ص ٨١ ج ٢) : (لا أحسب أنى بحاجة كبيرة إلى الحديث كثيراً عن مبدأ الأخوة العالمية بين البشر

فى الإسلام ، فهذه حقيقة مسلم بها إذ أن الأمير والحقير ، والغنى والفقير كلهم سواسية ، وإنى ألمس دائماً هذه الروح الكريمة بين إخوانى المسلمين ، كما أثق بحديثهم ، فقد لقيت منهم كل معاملة عادلة كرجل عادى ، وأخ لهم كما تكرموا علىّ أعظم الكرم واستضافونى أحسن الضيافة فأنا أشعر دائماً أنى واحد منهم) .

وكان بودى فى ناحية السلوك الإسلامى أن أشير إلى بعض مشاهدات صديقى وأستاذى الكبير عبد الكريم جرمانوس كما ذكرت فى الجزء الثانى من الكتاب ، ففيها الخبرة الواعية والدقة الحصيفة والنفاذ اللامح ، ولكنى أعرف الرجل شخصياً ، والحديث عنه يتطلب مقالا برأسه فلأرجئه إلى ساعة أخرى ، ولعلى قد تحدثت عنه قبل ذلك بما لم يبلغ قدر مكانته الرفيعة فى نفسى .. ولكنى أعبر عن عاطفة صداقة مخلصة تجمعنى به تاركاً مجال التحليل الهادف إلى أمد قريب .

(د) دين الفطـرة :

العقيدة الإسلامية من الوضوح والبداهة بحيث يتقبلها العقل المنصف فى يسر إذا سلم من غشاوات الغرض ، وشوائب الريب ، وهى فى صميمها دعوة الله التى ترددت على ألسنة الرسل جميعاً ، وهتفت بها جميع الديانات فى عهود أنبيائها المرسلين مصداقاً لقول الله عز وجل : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب »[1] .

ولكن ما غشى الديانات السابقة من تحريف لا يلتئم مع النظر الفاحص والعقل البصير قد باعد ما بينها وبين الإسلام ، ولذلك كان القرآن مهيمناً على ما قبله ، يدل على الحق الأصيل ، وينفى الباطل الدخيل . والمسلمون فرحون بعقيدتهم السهلة الواضحة لا يجدون فيه أحاجى معماه ولا ألغاز مغطاه ، وعلى النقيض من ذلك يجد معتنقو اليهودية والمسيحية وبعض الشرائع الوضعية ما لا يقدرون على هضمه من الأفكار فتضيق به عقولهم ، ويشتد الصراع فى أفكارهم حتى يتمموا شرعة الإسلام فيلقوا العصا مستريحين .

وإذا كانت المسيحية هى الدين المناطح الذى يهيئ أسلحته الفاتكة لمحاربة الإسلام

---

(١) الآية ١٣ من سورة الشورى .

طوراً بالحروب الصليبية فى معارك القتال ، وطوراً بالكتائب التبشيرية فى المــدارس والمستشفيات والإرساليات ، وتارة بتسميم أفكار المبعوثين من الشرق إلى الجامعات ليكونوا عوامل نسف ماحق إذا رجعوا إلى قومهم معبئين ، فإننا نجد من الحتم الضرورى أن نكشف عوار العقائد المزيفة التى ترتكز عليها المسيحية دون تحقيق ، كما اتضحت لأناس نشأوا فى أحضان المسيحية وتلقنوا تعاليمها بالكنائس والمدارس ، على أيدى القسس والرهبان ، ثم أجالوا عقولهم فيما يلقنون ، فرأوا فى خلال الزيف ، وخداع الباطل ما لم يطيقوا صبراً عليه ، فدار النقاش وامتد الحجاج بينهم وبين القائمين على الكنيسة من الأحبار والآباء فلم يصلوا بهم إلى اطمئنان ، ثم انجذبوا لدراسة الإسلام باحثين عن جوهره الأصيل فأنسوا سلام النفس وهدوء اليقين عن اختيار راض مقنع فولوا إليه وجوههم مستبشرين ، وهؤلاء حين يتحدثون عن عقيدتهم القديمة ودينهم الجديد ، لا يسمعونك غير صوت العقل الفاحص ، الذى ظل حائراً فى متاهة البحث حيث اهتدى إلى الصواب عن رسوخ لا تزلزله الشكوك .

١ — وسننقل إليك ما قاله السيد يعقوب ريموند فى حيدة نزيهة (ص ٦٧ ج ١) من الكتاب بتصرف يسير :

(لقد وجدت ثلاثة فروق جذرية بين المسيحية والإسلام ساهمت فى إقناعى بصدق الإسلام

الفارق الأول : هو أن المسيحية فى الوقت الذى تقرفيه وتعترف بكافة الأنبياء ، تجرد عيسى من النبوة ، وترفعه إلى مرتبة الألوهية ، كما تنكر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام كلية ، فلم أجد لذلك أى مبرر ، إذ أن النبى صلى الله عليه وسلم يؤمن بجميع الأنبياء الصادقين ويؤكد أن الرسالة السماوية التى أنزلت إليه هى الرسالة السماوية الوحيدة التى لا تزال مكنونة لم تمس بسوء .

أما الفارق الثانى : فهو أن المسيحية تنادى بالنظرية القائلة بأن عيسى ابن الله وأنه طرف فى التثليث المقدس وبذلك يكون عيسى فى نظرها إلهاً . وابن الله فى وقت واحد مما يتعذر فهمه . كما أن هذه النظرية تناقض التعاليم التى نادى بها موسى وإبراهيم ؛ فقد علما الناس أن يعبدوا إلهاً واحداً لا شريك له . كذلك نجم عن التصور بأن عيسى ابن الله نتيجة أخرى هى إقامة الفوارق بين الأنبياء ، وتقسيمهم إلى درجات .

أما الفارق الثالث فهو أن المسيحية تجعل الكنيسة وسيطاً بين الناس وربهم ، فهى تقول لك اقترف ما شئت من الآثام والكنيسة تعفو عنك وتضمن لك الخلاص والنجاة ، ومن هنا فالخالق فى تصور النصرانية ليس حراً يفعل ما يشاء ، بل لابد للكنيسة أن تقوده سبحانه يوم القيامة . وقد وجدت لحسن الحظ تصويباً لهذه الفكرة المضحكة وتصحيحاً لها فى الإسلام ، فالإسلام يبين أن الله وحده لا شريك له هو الذى سيقضى يوم القيام فى الأعمال التى اكتسبها كل ذكر وأنثى فى حياتهم الدنيا دون أى تدخل أو نفوذ من أى جهة من الجهات ثم سألت نفسى أين الاستقرار والثبات بالنسبة للدين الذى تظل تعاليمه عرضة للتعديلات المستمرة حسب ما تقتضيه العادات المتغيرة المتقلبة ، وآخر مثال على هذه التعديلات هو مجلس الفاتيكان الثانى ، إذ يتضح من هذا أن الديانة النصرانية تقدم عادات البشر وتقاليدهم وتجعلها فى منزلة أسمى من إرادة الله) .

هذا الذى قاله السيد يعقوب ريموند ، قد تردد فى نفوس آلاف من المسيحيين ، وتجد صداه مجلجلا فى الأجزاء الثلاثة من الكتاب الذى نتولى تحليله اليوم حتى ليصدق قول اللورد هيدلى كبير المسلمين فى بريطانيا (ج ٢ ص ٥٢) :

(أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء مسلمون فى أعماق قلوبهم ، ولكن التقاليد والخوف من التعليقات الشديدة والرغبة فى تجنب كل إزعاج أو تغير ، تتضافر كل هذه الأمور للحيلولة دون تصريحهم بالحقيقة الواقعة على رءوس الأشهاد ، وإننى إذ أتخذ هذه الخطوة — يعنى إعلان إسلامه — أعلم تماماً أن كثيراً من أصدقائى وأقاربى ينظرون إلىّ متوهمين أننى خسرت روحى ولا أمل فى الدعاء لى ، مع أنى ما زلت أومن بنفس العقائد التى آمنت بها منذ عشرين عاماً ولكن النطق الصريح بحقيقة أمرى هو الذى أفقدنى رأيهم الحسن) .

فالفكر بالثالوث وضيق العقل بحقيقته يلوحان لدى كل هارب من المسيحية ، ولئن تحدث ريموند عن الثالوث بما يمثل وجهة نظر هؤلاء الفارين ، فإن المسلم الأمريكى أستريد هيرما سمارت يؤكد هذا الضيق مضيفاً إليه تبرمه الصارخ بما يقال عن الصلب ووساطة القسس ويجمع ذلك فى سطور واضحة تنحصر فى قوله (ج ١ ص ١١) :

(لا أذكر الوقت والمكان الذى بدأت أتدبر فيه التناقضات الظاهرة فى النصرانية فقد بدا لى فى أحد الأيام أن الإيمان بثالوث الآلهة لا يمكن أن يتناسب مع مبادئى وعبثاً حاولت فهم الكتب النصرانية فقلبت ما قيل فيها بالنسبة لميلاد العذراء ، ولكن دون جدوى وتساءلت كيف تمثلت روح الحصاد فى حمامة ! ... وبعد بحث عثرت على الآية التى تقول : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار » :

وهكذا وضعت المسيح فى موضعه الصحيح من تصورى لمكانته كنبى من أنبياء الله المرسلين ، كما اصطدمت منذ زمن مع العرف المسيحى السائد باعتبار القسيس وسيطاً بين الله والناس ، مع أن لدىّ الثقة الكاملة التى أستطيع بها أداء الصلاة ، ولم أصدق حكمة الصلب أبداً ، فلأى شىء يموت إنسان ضحية أخطاء وذنوب يرتكبها آخرون ! إن الأمثلة الملموسة حول مغزى هذا الموضوع لا أصدقها ! !) .

هذه الحيرة الحائرة فى فهم الإله المثلث قد كانت مثار جدال شاق بين الحائرين وقساوسة الكنائس ، ولئن اختلف الجدل فى ألفاظه ، فهو فى جوهره واحد لا يختلف ، وقد لخصه المسلم البيرونى (شاكر جورج) الذى تسمى فيما بعد (بوليد أحمد) فى حوار هادف موجز قام بينه وبين راعى الكنيسة البيرونية ، وقد قام له يقوله (ج ٣ ص ٢٥) :

(عاودت قراءة القرآن وكان يشدنى إليه شعور خفى ، لم أكن أعرف تفسيراً له وبدأت أوازن بين ما أقرأه فى القرآن ، وبين ما تعلمته طوال حياتى الدراسية الماضية من العقيدة النصرانية فشعرت أنى أعيش فى دوامة ، وجاء يوم الأحد التالى فذهبت إلى الكنيسة ، واستمعت إلى القداس وبعد أن فرغ الراهب من تلاوته قلت له :

— أبونا — فقال : نعم ، قلت : أنا إنسان ، ألست كذلك ؟ فقال : بلى ، فقلت : إذا تحولت إلى جماد ألا تذهب عنى صفة الإنسان ؟ فقال : نعم ؛ فقلت : فكيف تقولون بأن الله قد تحول من إله إلى إنسان ولم يفقد صفات الألوهية ؟ فقال : إذهب فإن لك عقل زبول (شطيان) . فقلت له : أبونا ، أقنعنى أن الله عندما أصبح إنساناً وفدانا بدمه قد بقيت فيه صفات الألوهية ، فقال بعد صمت : (تعال عندى بعد غد كى أعطيك الإجابة على ذلك ، وطبيعى أنه لم ير إجابة أبداً) :

(ه) أمثلة أخرى صريحة :

فإذا أردت أنموذجاً آخر لهذا الضيق المتأزم بعقيدة الكنيسة فاستمع إليه من الفتاة الألمانية المسلمة (فاطمة سي لامير) حين تقول فى وضوح شفاف ينم عن مشاعر المرأة الصادقة الحس الذكية الشعور (ج ٣ ص ٩٣) :

(لقد جاء فى الإسلام كما يأتى النبع الدافئ إلى الأرض الباردة بعد الشتاء المظلم ، فأدفأ روحى وسربلنى بثوب من تعاليمه القشيبة ، فما أوضح تعاليم الإسلام وأعذبها وما أعظم منطقها !! لا إله إلا الله محمد رسول الله ! هل هناك عبارة أسمى من هذه العبارة ، لا تجد فيها أثر للطقوس الغريبة المبهمة كتلك التى تؤمن بالتثليث — الإبن والأب والروح القدس — صحيح أن هذه الطقوس قد تثير فى النفس الخشية إلا أنها لا ترضى العقل المتفتح الذكى .

لقد كان من الطبيعى بالنسبة لى أن أكون نصرانية بحكم معيشتى فى بلد نصرانى كألمانيا الغربية ، إلا أننى لم أك قط مسيحية بالمعنى الصحيح ، فقد كان الغموض يكتنف الديانة النصرانية ، وكانت فكرة قتل المسيح عليه السلام بالقوة لإنقاذ الآخرين غير معقولة فى نظرى ، وأقل ما يمكن قوله هو أن الديانة النصرانية كانت لغزاً محيراً بالنسبة لى فالإسلام دين عصرى صالح للتطبيق فى عالمنا المعاصر ، خذ مثلا مبدأ المساواة التى تنادى به الكنائس النصرانية ، ثم تأمل كيف يسعى البابوات والبطارقة والقسس وغيرهم من رجال الكنيسة إلى استغلال اسم الله الطاهر بغية كسب النفوذ والسلطة ! ثم قارن بين ذلك وبين الإسلام تجد عجباً) .

ولن نستطيع أن نحيط بكل ما قيل عن المسيحية ، ولكننا نقدم من المجموع ما يدل على بعض النقاط الجوهرية ذات التناقض الصارخ لمن يدرس العقيدة المسيحية فى أصولها المتداولة بين القارئين !

فإذا تركنا المسيحية إلى اليهودية فإننا نجد مثلا حياً لمن ضاقوا بها ، لدى الكثيرين ممن أسلموا من اليهود وكتبوا مذكرات خاصة شافية تشرح أسباب التفضيل للإسلام عن نظر ثاقب وعقل فاحص من أمثال زكى عريبى المحامى المصرى اللامع وأحمد نسيم سوسة المهندس العراقى الشهير ومحمد أسد النمساوى صاحب كتاب الطريق إلى الإسلام ، وللقارئ أن يرجع إلى ما دوّنه هؤلاء وأمثالهم فى كتبهم الذائعة ، ولكننا

سنخص بالذكر هنا السيدة مريم جميلة التى تحدثت عن نفسها فى هذا الكتاب فكشفت عن انصراف اليهود عن الاهتمام بتعاليمهم الدينية إلى حد السخرية منها فى بعض الأحايين حتى فى المدارس الدينية الخاصة بالطائفة اليهودية ، فهى تقول فى (ج ١ ص ٣٦) :

(ولقد صدمنى ما لاحظته من عدم اهتمام زملائى فى المدرسة ، وعدم اكتراث آبائهم بالدين اليهودى ، وأخذهم له مأخذ الهزل ، فقد اعتاد الأولاد أثناء الصلاة فى المعبد أن يقرءوا قصاصات مضحكة كانوا يخفونها فى كتب الصلاة ، ويضحكون إلى درجة الاستهزاء بالطقوس الدينية ، ولم يكن جو الاهتمام بالدين فى البيت بأفضل من هـذا بكثير ففى أعظم الأعياد اليهودية المقـدسة كنا نؤخذ أنا وشقيقتى من المدرسة ونذهب فى رحلات عائلية وحفلات مرحة نقضيها فى المطاعم الأنيقة بدلا من حضور الصلاة فى المعبد وصيام اليوم الكبير ، فإذا انضم إلى هذا الانصراف النفسى عن الدين عدم إخلاص الأحبار أنفسهم فى فهم الحقائق الدينية ، ومحاولة تشويهها إلى الحد الذى ينكشف دون لبس ، فإن ذلك مما يزعزع الثقة بالأحبار وبما يقولون ، وتلك تجربة واقعية كشفت عنها السيدة مريم ، إذ تقول (ج ١ ص ٣٨) :

(وعندما أصبحت فى العشرين من عمرى وكنت حينئذ طالبة فى جامعة نيويورك كانت إحدى الدورات المرشحة لى تحت عنوان (اليهودية فى الإسلام) للبروفسور الحبر إبراهام إسحق كاتش رئيس قسم الدراسات العبرية فى الجامعة وكان لا يألو جهداً فى إقناع تلامذته وكلهم من اليهود الذين يطمح كثير منهم أن يصبح حبراً — بأن الإسلام مشتق من اليهودية ، وكان كتابنا المقرر وهو من تأليفه يأخذ كل آية من القرآن ويسعى جاهداً فى تتبع أصلها اليهودى المزعوم ، وبالرغم من أن هدفه الحقيقى هو أن يثبت لطلابه استعلاء اليهودية على الإسلام ، فقد أقنعنى بعكس ذلك تماماً ، وكان تصورى لإله اليهود كما ذكر فى العهد القديم وفى كتاب الصلاة عند اليهود مشوهاً وغير لائق فقد بدا لى الله — فى اليهودية — فى صورة وكيل لمقاطعة دنيوية !) :

وللقارئ أن يقرن حيرة السيدة مريم فى إله اليهود الذى لا يهتم بالإنسانية جميعها بل بطائفة اليهود وحدهم بحيرة المتشككين فى التثليث والصلب والفداء ليعرف أن الجميع يخبطون فى ديجور كثيف .

(و) شبهات مدحوضة :

وإذا كنا قد اخترنا بعض من تركوا المسيحية واليهودية ، فلا مناص لنا من أن نلم بحديث هندوكى مستنير ، كان يشغل إحدى مناصب العدالة الراقية فى بلاده ، وهو مثقف دارس عالمى ألمّ بثقافات الغرب ودياناته ومذاهبه السياسية وعاود الموازنة بينها جميعاً لعله يهتدى إلى وجهة مريحة وتجده يهتف بأدق خفاياه حين يقول (ج ٣ ص ٨٢) :

(لقد أحسست رغم منصبى الكبير كمحام فى المحاكم العليا بالهند أننى ما زلت طفلا من الناحية الروحية ، كان إيمانى بالهندوكية كمثل الطفل الذى يحبو ولا يقدر على شىء لذلك رأيت لزاماً علىّ أن أبحث عن دين .. ثم قال عن الإسلام بعد ذلك :

إن أول شىء شدنى إلى هذا الدين بساطته ووضوحه فأساس العقيدة الإسلامية قائم على دعامتين بسيطتين يستطيع أن يعيهما أبسط الناس ، وهاتان الدعامتان هما أن النبى الكريم قد جاء بالوحى الربانى من عند الله وأن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له .

والصفة الثانية التى جذبتنى إلى الإسلام روح الديمقراطية الأصيلة التى يتميز بها هذا الدين . فالمساواة فى الإسلام تختلف عنها فى الاشتراكية أو البلشفية التى تعمل على سحق الأغنياء لصالح الفقراء والصعاليك ، وليست كالمساواة عند النصارى حيث يجلد الرجل الزنجى لا لشىء سوى أنه وقع بصره على امرأة بيضاء ! ويعبد الزنوج ربهم فى كنائس خاصة مستقلة بهم عن كنائس البيض ! والإسلام لا يقيم مراسيم خاصة لكل داخل فيه كما تفعل الأديان الأخرى ، وإنما حسب المرء أن ينطق بالشهادتين حتى يغدو عضوا فى أعظم أخوة عالمية يتساوى فى ظلها الناس جميعاً ! ..) .

ثم تعرض إلى مجتمعه الهندوكى فقال الأستاذ (ك . ك جاوبا) متابعاً حديثه المنطقى الشائق : (هناك خلاف كبير يقوم حالياً بين مجتمعات الهندوكية حول دخول فئة منها تعرف باسم (الممنوع لمسهم) إلى المعابد الهندوكية – يريد من يعرفون بالمنبوذين فى اللغة العربية – وهناك طائفة معينة بين الهندوس تزعم لنفسها أنها تحول هؤلاء الممنوع لمسهم إلى أشخاص عاديين بواسطة ما يسمى (شوذى) أما فى الإسلام فهذا الدين لا يعرف مبدأ (لا مساس) كما أنه لا يطهر الإنسان فيه أخاه الإنسان ولا سبيل إلى التطهر إلا بالتقرب إلى الله دون وساطة أحد من خلقه إذ كيف يتسنى لبشر أن يطهر بشراً آخر وهو نفسه فى حاجة ماسة إلى من يطهره) .

وحديث الأستاذ القانونى اللامع ك . لـ جاوبا ، بمنطقه الذكى ومقارناته الحصيفة من أقوى ما يقدم لطالبي الحقيقة الواضحة ، ولا يغنى اقتباس فقرات منه عن العودة إليه مرات ومرات ، ففى كل كلمة مغزى ، وفى كل فكرة شعاع ، ولا أشجى منه وأشد تأثيراً سوى حديث هندوكى آخر ترك دينه وارتمى فى أحضان الشيوعية مخدوعاً بشعاراتها المريضة ، وأهمها أنها تقدم أصح الحلول لراحة الجنس البشرى ونقاء سلوكه .. ولكنه وجد ما زلزل كيانه وشيت استقراره ففر إلى الإسلام عن اقتناع دارس صبور وفى ذلك يقول الأستاذ باشير أحمد باتيل (ج ١ ص ١٧) عن مرحلة ما قبل الإسلام :

(ولما شعرت بخيبة الأمل فى قرارة نفسى أخـذت أبحث عن مذهب سياسى بوسعه أن يحل مشكلات الإنسانية فى هذه الدنيا ، وحسبت أن الخدمة الاجتماعية ترضى اعتقادى بأن خدمة الإنسان خدمة لله ، فاتجهت للشيوعية وسرت فترة فى حياتى تعمقت خلالها فى المذهب الشيوعى أكثر فأكثر ، وبينما كنت أدرس هذا المذهب وأطبقـه أخذ إيمانى بالله يتلاشى تدريجياً . وأخذت القيم الروحية تفقد وزنها أمام الحجج العقلية المحدودة ، ومرت سنوات حرمت خـلالها من الإيمان بالله اللهم إلا إيمانى بالعـدالة والاستقامة ولكنى أحسست فى أعماق نفسى بالشقاء الكامل ، كأن روحى كانت تصرخ لحرمانها من اندفاعها الفطرى للانضمام إلى الروح العلوية ، وجاء الوقت الذى لم يستطع فيه عقلى المتعثر أن يقنع قلبى الذى كان فى لهفة شديدة إلى مبدأ حتى يؤمن به ، فقد عجزت الحياة المادية والخلقية والفكرية عن تحقيق السلام لنفسى ، وكانت روحى متعطشة لمبدأ روحى يحقق لها ما تصبو إليه من سلام) .

ونحن بعد هذا الإيمان بشتى الأحاديث المتنوعة المختلفة الأشخاص ، نستطيع أن نضيف أقوالا أخرى تصور بعض مناحى الإعجاب المطلق بهذا الدين النبيل ، وهى مناح دقيقة يحسها من نشأ فى الإسلام دون أن يتعمقها فى دقة كما يتعمقها الغريب الذى اكتشف الإسلام عن بعد فاهتدى إليه كاشفاً كل حقيقة بنفسه واغلا فى تفحص سرائرها إيغالا لا يصل إليه من أخذها مبدأ صحيحاً من صغره ولم يكلف نفسه عنـاء تقليبها على شتى الجوانب المختلفات :

فتعدد الزوجات — مثلا — له موجباته الضرورية لدى النفس البشرية فى أحايين

كثيرة بحيث يؤدى امتناعه إلى فساد خلقى يوحى بوباء فاتك ، ونحن المسلمين نقول ذلك فنرمى بالتأخر والرجعية لدى من يفتك بهم وباء الانحلال فتكاً حطم الأسرة وشوّه المجتمع ، وإذا كانت المرأة أقدر على الحديث فى هذه الناحية وهى أصلا المتهمة بالاعتداء عليها فى هذا التعدد لدى من يصمون الطهارة النظيفة بعهود الرق والحريم ، وهم يعلمون حق العلم ما يرشح به مجتمعهم من صديد قاتل تتقزز له الضمائر وتقشعر منه الجلود ، إذا كانت المرأة أقدر على الحديث فى هذه الناحية فإننا نفسح المجال للأخت الفاضلة الألمانية (فاطمة هيرين) لتقول بعد دراسة مستأنية ذات أبعاد (ج ٢ ص ٣٧) :

(إذا كان المتحاملون على الإسلام يقولون بأن من الهمجية أن يتخذ الرجل الواحد لنفسه عدداً من الزوجات ، فهل لهم أن يبينوا لى الخير الكامن فى تصرفاتهم عندما يتخذ الزوج لنفسه خليلات إلى جانب زوجته ، وهو أمر شائع فى الغرب بصورة تفوق انتشار زواج التعدد فى الأقطار المسلمة .. وإذا كانوا يزعمون أنه لا ضرر فى تعاطيهم الكحول فهل لهم أن يفسروا سبب الشقاء الذى تحدثه هذه العادة فى أوربا ، وإذا قالوا أن فصل الجنسين عن بعضهما تأخر فليقارنوا بين الشباب فى أى بلد مسلم والشباب فى أية أمة غربية ، إذ أن الجريمة الخلقية بين الفتاة والفتى تعتبر استثناء بين المسلمين ، أما فى أوساط الغربيين فمن النادر جداً أن تجد زواجاً واحداً بين فتى وفتاة عفيفين) .

وقد عرفت المسيحية بأنها دين الرحمة وعرف الإسلام فى بلاد الفرنجة بأنه دين السيف ظلما دون حق .

وكم كتب المرتزقة من قساوسة الاستعمار وأذناب المبشرين فى هذا المجال ما أحال نور الشمس فى الظهيرة إلى حالك الليل لا يهتدى السائر إلى شعاع . ولكن الحقائق الصارخة لمن يرقب الإسلام والمسيحية رقبة مجردة عن كل غرض تنطق برحمة الإسلام وإنسانيته وتسم من يدعون أنهم يدينون بدين الرحمة المسيحى بشرّ ما يوسم به متوحش شرس يوغل فى الدماء ، وقد استطاع الأستاذ بيجى رودريك الهندى (وقد ولد فى بيت إنجليزى فربى مسيحياً وتلقى تعليمه المبكر فى إحدى مدارس التبشير المسيحية) أن يهتدى ببحثه الشخصى إلى الإسلام وقد كشف أسطورة الرحمة المسيحية الموهومة حين قال فى إخلاص وحيدة (ج ٢ ص ١٠٧) :

(إن السيد المسيح كما جاء فى الأناجيل المختلفة لم يعلم أتباعه الطريقة الصحيحة لاستخدام السيف فكانت النتيجة أن السيف كان دائماً فى يد أتباعه ، فكثيراً ما استخدمه الصليبيون فى ذبح السكان الأبرياء فى الأقطار غير المسيحية ، بل لقد استخدم السيف فى بعض الأحيان من قبل بعض طوائف مسيحية لقتال البعض باسم المسيحية والمسيح .. لقد استخدم السيف على يد الدول الاستعمارية بتأييد من الكنيسة ومباركتها فى سبيل قهر شعوب آسيا وإفريقيا واستغلالها ومحو سكان نيوزلنده الأصليين تماماً كما فعلت فى أستراليا وأمريكا الشمالية ! .

ثم جاءت نقطة التحول فى حياتى عندما أسقط الأمريكيون القنابل الذرية على اليابان فى نجازاكى وهيروشيما سنة ١٩٤٥ ، وامتلأت نفسى بالرعب والفزع عندما قرأت عن الوفاة الفظيعة لملايين البشر من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء ، وعندما علمت بالآلام الشديدة التى لا يمكن تصورها يقاسيها عدد لا حصر له من الناس الذين كان من سوء طالعهم أن نجوا من الموت الفورى ، وقضيت عدة ليال لا أذوق طعماً للنوم بعد أن قرأت عن هذه الأحداث فقد كنت أشعر بالأسى وأنا أقرأ عن جرائم الجيش الأمريكى المحتل فى اليابان ، وكنت أتنكر للغزو الذى قام به المبشرين النصارى ضد الجزر اليابانية تحت سمع وبصر الجنرال (ماكآرثر) لاستعباد أرواح اليابانيين وإنشاء طبقة من الخونة المنتصرين ليساندوا سادتهم البيض ضد أبناء جلدتهم وبنى وطنهم) .

فإذا أشبع الأستاذ بيجى هذه الناحية انتقل إلى الصفحة المشرقة ليتحدث عن قوانين الحرب فى الإسلام فيقول (ج ٢ ص ١١٠) :

(إن الكمال لله وحده ، وكل الناس خطاءون لذلك لابد من فرض للدفاع المسلح ، إلا أن قوانين الحرب فى الإسلام تعتبر أكثر القوانين ! إنسانية فهى تضمن السلامة الكاملة للنساء والولدان وجميع غير المحاربين ، وليس هناك أعظم من جريمة قصف المستشفيات والمدارس ، وأماكن العبادة ومساكن المدنيين فى الأماكن العادية ، فالإسلام يأذن بالحرب لرفع الاضطهاد ، كما يأذن بها لإزالة العراقيل التى تقف فى طريق الدعوة والدفاع عن النفس ، ولكنه لا يكره أحداً على الدخول فى هذا الدين كما لا يقر إبادة العزل على يد المستعمرين والمغتصبين فمن واجب المسلم أن يقبل السلم

حتى لو أراد به العدو خديعته ، وهو دين السلام .. السلام مع الله ، والسلام مع الناس جميعاً) .

ونفاسة هذا الكلام ترجع إلى نفاذ قائله وعمق بحثه وتعبيره عن الحقائق من أقرب طريق متمشياً مع قواعد الاجتماع والسياسة الأممية المرتبطة بأصول من الأخلاق المعترف بها لدى الجميع ، وقوله فى مطلع حديثه أن المسيح لم يعلم أتباعه الطريقة الصحيحة لوقاية الناس على أرض الناس : كما يدل على قصور المسيحية حين خاصمت السيف لفظاً ليكون وسيلتها الدائمة فعلا فى الحياة على حين يقوم فى الإسلام كحاجة ضرورية يلجأ إليها إذ لامناص ،وهذا ما أكده الأستاذ بيجى حين قال(ج٢ ص١٠٩):

(إن تعاليم الإسلام الخلقية تحقق امتزاجاً تاماً بين المثالية والواقعية فبفضلها يستطيع الإنسان أن يعرف الله ويصبح ربانياً وهو يقوم بنشاطات الحياة اليومية ، وليس فى الإسلام أى فصل بين الدين والسياسة ، فعلى الحكومة الإسلامية أن تراعى نفس المبادئ الخلقية التى يراعيها الأفراد عند التعامل فيما بينهم .. وذلك فى معاملتها للناس والدول الأخرى فليس فى الإسلام أى مجال للظلم والاستغلال مهما كان نوعه كما أنه لا سبيل فى هذا الدين إلى وجود الاستعمار والتفريق العنصرى والصراع الطبقى والحروب الجائرة المعتدية) .

لقد كان جنون الحضارة المادية فى أوربا الآن داعياً جهير الصوت للفرار من مجتمعها الغاشم والبحث عن موءل للسلام فى نطاق دين واقعى يهدى إلى الحياة الفاضلة بعيداً عن سعار التشاحن وجنون التنافش ومصادمات الأنانية والمغيرة والاستعلاء وهى حقيقة تواطأ على إظهارها أكثر الفارين إلى الإسلام هرباً من رمى التطاحن البشرى المزعج .. وأقوالهم فى ذلك لا تحتاج إلى تعليق إذ أظهرت ضيق النفس وتأزمها من العيش فى غابة تضج بالزئير المفترس وتروح الوحوش بها مستنة إلى فرائسها الضعيفة لتلعق الدم وتمضغ اللحم ودونك فاستمع إلى بعض ما يشير إلى ذلك :

١ ــ قالت الفتاة الإنجليزية المسلمة عائشة برجت هونى (ج ١ ص ٦٣) :

(يعيش العالم الغربى اليوم فى ظلام ليس هناك أى بصيص من الأمل فى قيام الحضارة الغربية بتوفير سبل لتخليص الروح والنفس ، فكل من يعرف الوضع الحقيقى للمجتمعات الغربية يلمس هذا القلق خلف بريق التقدم والإبداع المادى الزائف ،

فالناس فى الغرب (والشرق) يبحثون عن مخلص من العقبات التى تحيق بهم ولكنهم لا يرون منها مخرجاً ، فبحثهم عقيم وليس أمامهم إلا أن يوصلوا سيرهم نحو جحيم الفناء والكارثة ، والانسجام اللطيف فى الإسلام بين مستلزمات الجسد ومتطلبات الروح يمكن أن يمارس تأثيراً قوياً فى أيامنا هذه ، وبوسعه أن يبين للحضارة الغربية السبيل المؤدى للفلاح والخلاص الحقيقيين) .

٢ – أما السيد يعقوب باريموند ، فيقول (ج ١ ص ٦٨) :

(ومما زاد فى إقصائى عن النصرانية إلى جانب ما تقدم مالاحظته من أن أساليب الحياة المادية البحتة التى انتشرت فى أوربا وأمريكا الشمالية فى الأوقات الحاضرة قد أدت إلى تحطيم أبسط القيم الإنسانية تحطيما كاملا ، إذ ينحصر اهتمام الناس فى الأقطار الأوربية والأمريكية فى تحقيق هدف واحد فى الحياة وهو تأمين مزيد من وسائل الراحة المادية بصرف النظر عن الغذاء النفسى والروحى ، فترى كل واحد منهم يلهث وراء ملذاته الشخصية ، كما ينعدم الإحساس بالأخوة بين الإنسان وأخيه الإنسان) .

٣ – ويقول السيد ركس انجرام الإنجليزى (ج ١ ص ٣٢) ، وهو آخر ما نختم به هذه المقتطفات الهادفة الصادقة :

(إننى لم أغير دينى إلا لكى أجد الراحة من ضجيج الحياة الجنونى لأنعم بالسكينة فى ظلال الهدوء والتأمل بعيداً عن متاعب الهموم والمحن التى يسببها التكالب على الكسب والتهالك على المال ، الذى أصبح اليوم معبود البشر وإلههم ، ولأخلص نفسى من براثن الإغراء وخدع الحياة الباطلة ، والشراب والمخدرات وجنون فرقة الجاز ، أسلمت لكى أنقذ ذهنى وعقلى وحياتى من الهموم والتدمير) .

هذه جولة سريعة فى كتاب (رجال ونساء أسلموا) بأجزائه الثلاثة ، ويقينى أن السيد الغيور الأستاذ عرفات كامل العشى مؤلف الكتاب سيواصل البحث حتى يصل بأجزاء كتابه إلى ما فوق العشرة .. وهو عمل لن يؤتى جدواه التامة إلا حين تهتم الحكومات الإسلامية بإنشاء معهد للدعوة الخارجية يقوّم مثل هذه الاعترافات تقويمها العادل محاولا الاستفادة منها فى إعداد العدة وحشد القوة وتهيئة السبيل لإخراج الناس فى الظلمات إلى النور عن طريق الإسلام ليظهره الله على الدين كله ولو كره الكافرون .

* * *

حقوق الحيوان فى الاسلام

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه
إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم
إلى ربهم يحشرون » . (قرآن كريم)

١ – آراء قديمة :

اشتهر لدى القدماء من علماء الغرب أن الحيوانات كائنات آلية ، لا تتمتع بذكاء ، فهى تتحرك تحركات غريزية دون أن تعى من أمرها شيئاً ، وبالغ بعضهم فزعم أن نصيب الإحساس لديها ضئيل ، وهو زعم ينقصه الواقع المشاهد للعيان ، وليس بحاجة إلى دقة فى الملاحظة كى تتضح قضيته على الوجه الصحيح ، بل إن فيلسوفاً كبيراً ك (ديكارت) وهو من هو ! وقد أبدى من الآراء فى الحيوان ما يكاد يلحقه بالنبات ، ولكن تقدم العلوم قد ارتفع بالحيوان إلى مستواه من الإحساس التام ، والشعور بمؤثرات اللذة والألم والراحة والتعب والجوع والشبع والظمأ والرى على نحو يكاد يطابق شعور الإنسان ، بل إن هذا التقدم العلمى قد رصد خطوات الطير والحيوان رصداً دقيقاً فوجد لديها من النظام الاجتماعى ما يكاد يشبه نظام الإنسان ، فالنمل والنحل وأسراب الطيور التى تنتقل من أفق قريب إلى أفق بعيد ، وطوائف الظباء والفيلة التى ترد الماء فى صفوف متراصة وتخضع لقائد يقود ، بل زمر النمال التى تقيم جسراً من أجسادها لتعبر عليها طوائف أخرى من فصائلها مضحية بنفسها فى سبيل الصالح العام عن طواعية لا تعرف التردد ، أن هذا التقدم العلمى الناطق بأوضح أدلة الواقع الملموس قد جاء مؤكداً قول الله عز وجل : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ، لأن الأمة ذات اجتماع متعاون يدفع الشر ويهيئ أسباب الخير ، وهل فيما نشاهد من تعاون الحشرات والحيوانات والطيور إلا أمثلة حية تنطق بهذا التعاون الجاد ، لذلك جاء الإسلام مؤكداً حقوق الحيوان وداعياً إلى الرأفة به ، إذ هو فى لبابه ذو شعور وإحساس .

٢ — جمعيات الرفق بالحيوان :

وقد أسست فى أوربا جمعيات الرفق بالحيوان ، وكانت إنجلترا أول الدول نهوضاً بهذه الجمعيات ، إذ ظهرت أول جمعية بها فى سنة ١٨٢٤ أى منذ قرابة قرن ونصف ، وكان ظهور هذه الجمعيات وانتشارها فى شتى عواصم الممالك والدول الغربية مدعاة فخر متزايد لهؤلاء الذين يزعمون أن التقدم الحضارى لديهم قد بعث على إنشاء هذه الجماعات ، وأن المسيحية وحدها هى دين الرحمة والإشفاق ، ولو كان هؤلاء الزاعمون لم يدرسوا الإسلام قرآناً وحديثاً وتشريعاً وتاريخاً يمتد إلى أربعة عشر من القرون ، لقلنا أنهم يجهلون ما لدينا من الروائع الخارقة فى مضمار الرأفة بالحيوان ، ولكنهم قد خصصوا فريقاً من باحثيهم فى شتى دولهم للإلمام بشريعة الإسلام ، فظهر مئات الدارسين ممن يعرفون بالمستشرقين ، وقد ترجموا كتاب الله وحديث رسوله ، وصحائف التشريع إلى لغاتهم المختلفة ، ففيم تجاهل الحق الواضح ، ونحن لا ننكر أن المسيحية الأصلية قد قامت على الرحمة والحنان ، ولكننا نتساءل : أين أثر هذه الرحمة فيما تنزله دول أوربا بالآمنين من بواعث الفتك المدمر ، وقدائف القنابل الصاعقة ، دون جرم يبث على هذا الدمار المتأصل الساحق ، أفيكون مظهر الرحمة لدى هؤلاء إنشاء جمعيات تعطف على فصائل من الحيوانات وحدها ، أم أن الرحمة مظهر عام يشكل الكائنات جميعها .

٣ — يردون على أنفسهم بأنفسهم :

وإذا كان الحق لا يعدم أنصاره فى كل زمان ومكان ، فقد وجدنا من هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم التفرد بالرحمة دون سائر الناس من يريهم تناقضهم الكبير فيما يتناولون من القضايا المتشابهات ، فقد احتجت جمعية الرفق بالحيوان فى أمريكا حين فجرت الولايات المتحدة قنبلتها الذرية فى المحيط الهادى فقتلت آلاف الحيوانات المائية حيث طفت على ظهر المحيط جثث هذه الضحايا المسكينة على نحو يبعث التحسر والالتياع ، وقدمت جمعية الرفق بالحيوان احتجاجها الواضح معلنة تأثرها الشديد ! وكان على أعضاء هذه الجمعية الكريمة أن يمتدوا برحمتهم إلى الإنسان أيضاً — لأن الرحمة شعور تام لا يتجزأ تجزأ يفرق بين حيوان وحيوان .

كان على أعضاء هذه الجمعية أن يعلنوا احتجاجهم حين أسقطت الطائرة الخطيرة

قنبلتها الذرية على هيروشيما ، فقتلت عشرات الآلاف فى طرفة عين ، وتركت آلاف المشوهين يعانون من آلام المرض ما استراح منه هؤلاء الذين بلعتهم الأرض فى كرة طرف ! إن الشعور بالرحمة على الكائنات شعور نبيل يجب أن يسود الناس جميعاً ، ولن يصدق هذا الشعور حتى يشمل كل كائن حساس ليجتث بواعث الألم قبل أن تهيأ لهـا الأسباب .

٤ ـ بواعث الرحمة الإسلامية على الحيوان :

يعلم رجال التشريع الإسلامى أصول فقههم الحكيم ، فهم يعرفون بناءه على الأخلاق الوطيدة ، والتزامه بما يفى بحقوق الكائنات وفاء يدرأ عنها الإجحـــاف والتعسف ، وإذا كان الحيوان ذا شعور يتعذب ويفرح فلا بد أن نمنع أسباب تألمـه وعذابه ، وقد وصف رسول الإسلام بأنه نبى الرحمة ، والرحمة معنى عام يشمل كل كائن ، لذلك دعا رسول الله دعوات صادقة إلى الشفقة بالحيوان ، فامتلأت كتب الحديث بوصاياه الرحيمة وأوامره الحكيمة ، وحفظ صحابته المخلصون ومن تبعهم بإحسان أوامره ونواهيه ، فالتزموا بها التزاماً ظهر فى سلوكهم الإنسانى عملا وفى مدونات الفقهاء علماً ، فإذا أراد قارئ محايد أن يقف على ذر من هذه الروائع الباسقة فسنقدم له ما يملؤه اقتناعاً بعطف الإسلام على كل كائن حى .

ولعل فيما نقدم من النصوص الصحيحة ما يقنع ذوى الارتياب ، ممن يحسبون الرأفة بالحيوان عملا حضارياً سبق به الغرب ، وتخلف عنه الإسلام .

٥ ـ من أحاديث النبوة :

١ ـ روى أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تعرس (أى ترتفع وتطل بجناحيها) فقال رسول الله : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها .

٢ ـ فى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها وشرب ثم خرج ، فإذا بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكره الله فغفر

له ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر) .

٣ — فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عذبت امرأة فى هرة حبستها فلم تطعمها ولم تسقها ، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض) .

٤ — روى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجتكم) .

٥ — روى أبو داود عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال : كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل (ما اجتمع من فروع النخل) فدخل حائطاً لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جمل ، فلما رأى رسول الله حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله فمسح عليه بيده ، ثم قال : من رب هذا الجمل ؟ قال فتى منا لأنصار : هو لى يا رسول الله ، فقال : أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتعذبه) .

٦ — روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قرية نمل قد أحرقت ، فقال : من أحرق هذه ؟ فقال من معه : نحن . فقال عليه السلام : إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار .

٧ — روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طيراً أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة .

٨ — فى صحيح مسلم أن امرأة كانت على ناقة فلعنتها ، فسمع رسول الله ذلك ، فأمر بإعراء الناقة مما عليها وإرسالها ، عقوبة لصاحبتها ، وفى رواية : أنه قال : لا تصاحبنا ناقة ملعونة .

هذا بعض ما جاء فى الصحاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو فى وضوحه البارز أظهر من أن يحتاج إلى تعليق .

٦ — (مدونات التراث) :

من يطالع ما جاء فى كتب الصحاح عن الرأفة بالحيوان يدرك ما استشعره رسول

الله من شدة إحساس هذا النوع من المخلوقات ، وقد امتلأت كتب الأدب العربى القديمة بنوادر عن وفاء بعض الحيوانات ظنها بعض الدارسين خرافات تداول بين الناس لما دلت عليه من رأفة ، لا أنها حقيقة حية تنبئ عن واقع ملموس ، مع أن هذه النوادر تشفع كثيراً بأشعار حية قالها الأدباء متأثرين بما شاهدوه من المواقف ، وبعيد جداً أن يختلق الشاعر حادثة ليبنى عليها قصيدة يذيعها بين الناس ، ففى مواقف الحياة من خوارق المفاجآت ما يغنى عن الاختلاق ، والشاعر الذى يصف مشاعر ناقته أوأحاسيس فرسه أو وفاء كلبه يعبر دائماً عن شعور حى قام بنفسه ، ولا يوجد من يتهمه بالافتعال ، كما يتهم حيناً ما إذا مدح من لا يستحق المديح طمعاً فى نواله أو هجاه يأساً من عطائه . وإذا جاز لبعض الناس أن يشكوا فيما روته كتب التراث من روائع مدهشة عن الحيوان وشدة إحساسه ، وفرط تأثره ، فليتركوا كتب القدماء إلى ما رواه المعاصرون ودونوه فى هذا النطاق وهو من الكثرة بحيث يوجب أن يحتذى بأمثلة قليلة تقوم مقام الكثير مما تردد فى كتب الرحلات المعاصرة ، وتتناقله الصحف والمجلات .

٧ ـ (أمثلة معاصرة) :

١ ـ ذكر قائد إنجليزى فى مذكراته عن الحرب العالمية الأولى ، أنه فى أحد جولاته بين المعسكرات الحربية شاهد على بعد جواداً منكس الرأس لا يترك مكانه ، فقذفه بالحصى كى يحمله على الانتقال دون جدوى ، فزحف إليه فوجده يقف يحجب فارسه القتيل ، وقد طرح على الغبراء صريعاً ، فحاول الجنود اصطحاب الجواد إلى ما وراء خطوط القتال ، ولكنه تشبث بالبقاء تشبثاً غريباً ، فحملوا الصريع وساروا به فتبعهم الجواد فى تأثر أليم ، وظل يجاور الفارس الصريع طيلة الليل ، فاضطروا إلى أن يعصبوا عينيه بالسواد كيلا يرى شيئاً ، وبعد مدة طويلة قادوه فانقاد دون أن يرى شيئاً ، ويقول الكاتب أن الجواد توهم أنهم حملوا صاحبه ، وبذلك ارتضى أن يسير .

٢ ـ ذكر السائح الشهيد (فوريس) أنه كان مرة فى غابة من غابات أفريقيا فصاد قرداً واحتمله قتيلا إلى خيمته ، فلما مضت برهة سمع لغطاً كبيراً حول الخيمة ، فخرج فرأى غوغاء القردة قد تجمعت وتصخب وكأنها تطالب باسترداد القرد المخطوف ، فلم يبال بها ، فلما هدأت الضوضاء خرج فوجد قرداً حزيناً يبكى وتسيل

دعوعه فى تذلل وانكسار ، وبعينه استرحام يذيب قلب الجماد فرق له ، وأحضر الجثة فحملها وأخذ يجرها باكياً متألماً يريد أن يسير بها إلى مكان رفقائه ، قال (فوريس) فشعرت بحسرة مفرطة فى قلبى ، وأقسمت ألا أقتل قرداً بعد ذلك .

٣ – ذكر الجراح الفرنسى الشهير (بيبراك) أنه وجد يوماً قريباً من داره كلباً جميلا مصاباً بتكسر فى أصابعه ، وقد برح به الألم ، فأمر بإدخاله إلى الدار ، وأخذ يعنى بأصابعه فجبر عظامها ، وما زال به حتى شفى تماماً ، فلما استرد صحته غادر المنزل مبتهجاً ، ومضت خمسة أشهر جاء بعدها الكلب إلى الطبيب ، فدعاه أن يلج منزله فأبى وأخذ ينظر إليه مسترحماً ، ويجذب ثوبه بفمه ، كأنه يريد أن يتبعه ، فانقاد له الجراح وسار وراءه فأوصله إلى كلبة مطروحة على مقربة من الدار ، تشكو ما كان يشكو صاحبها من تكسر الأصابع ، فعلم الجراح أن الكلب قادها لتجد علاجها لدى الطبيب ، فدهش الجراح لمشاعر الكلب وقام بالعلاج .

٨ – (أمثلة من التشريع الإسلامى) :

نعرف أن الإسلام دين الفطرة ، وأن أحكامه تسير دائماً وفق ما ترتضيه الطبائع السليمة ، فإذا كانت فطرة الإنسان السوى تهفو إلى الخير وتنأى عن الشر ، فإنها ترحب بما تفرضه شريعة الإسلام من حماية الضعيف ، وعون اللهيف ، والرفق بالكائن الحى ، إنساناً أو حيواناً ، أما أصحاب الطبائع الشاذة من غلاظ الأكباد وصم القلوب فإنهم لا يبالون بإيذاء الضعيف وتعذيبه ، بل ربما تلذذوا كثيراً بما يتكرر أمامهم من مصارعة الثيران ، ومهارشة الديوك ، ولا أدرى كيف يكون المصارع بطلا لأنه هجم بالسيف على ثور مسكين دفع به إلى الميدان دون أن يدرى ماذا يراد به ويراد منه ، وقد تكنفه عوامل الرعب من ستائر حمر ، وسيوف تشرع ، وكل ذلك فى بلاد تباهى بسبقها المدنى ، وبين أناس يرون أنفسهم ممن يسكنون أعرق القارات حضارة وتقدماً وارتقاء ، ليسمع هؤلاء شذوراً مما دونه فقهاء الإسلام فى كتبهم التشريعية ، ليعرفوا كيف يكون الرفق بالحيوان لدى قوم تهديهم شريعة السماء لا قوانين الأرض ، ويا بعد ما بين الاثنين :

١ – يجب النفقة للبهائم المملوكة ، سواء كانت مما يؤكل لحمها أو مما لا يؤكل ، فإن امتنع مالكها أجبره الإمام على بيعها ، ولو كان لها ولد ولم يكف لبنها سوى

إطعامه امتنع أن يحلبها أحد ، ولو أجدبت أرض فضاقت عن علف البهيمة وجب على المالك أن يبحث عن طعامها كما يبحث عن طعام أولاده .

٢ — يحرم خصاء البهائم لما يلحقها من التعذيب ، ويحرم متابعة السفر عليها دون أن ترتاح لأن لها حق الاستراحة والأمن ، كما يحرم أن يتخذ الحيوان هدفاً للرمى تعلماً للصيد ، ففى صحيح مسلم أن ابن عمر مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً يرمونه ، فلما رأوه تفرقوا ، فسأل ابن عمر : من فعل هذا ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً .

٣ — لا يجوز الحمل على ما لم يخلق للحمل كالبقرة والغزالة والجاموسة ونحوها ، إنما ينتفع بما تطيقه ، كأن تحرث البقرة الأرض ، وقد أمر رسول الله بقطع القلائد من أعناق الإبل مخافة أن تختنق الدابة بها عند شدة الركض ، وكراهة أن تمر بشجرة فتعلق بها فتخنقها وتعوقها فى المسير .

٤ — قال أبو حنيفة : لو ضرب الراعى شاة ففقأ عينها ، أو كسر رجلها ضمن ، وكذلك لو ساق الأجير المشترك أغناماً وصعد بها جبلا مرتفعاً فتردت من موضع يمكن الاحتراز منه فإنه يضمن ، ولو استعجل الحيوان للسوق فنفرت بقرة فأصيبت ضمن أيضاً ، والصور الفقهية فى هذا النطاق أكثر من أن تحصى .

٩ — (أمثلة تاريخية) :

نشر الدكتور زكى نجيب محمود مقالا ممتازاً تحت عنوان (نفوس فقيرة) بالعدد (٦٤٤) من مجلة الثقافة ، تحدث فيه عن منظر هز شعوره ، وملك عليه إحساسه ، إذ نشرت مجلة إنجليزية صورة لشرطى أوقف حركة المرور كى تعبر أوزة وأفراخها الطريق فى مأمن ، وقد أعاد الدكتور نشر الصورة بالثقافة ليرى القارئ العربى نمطاً إنسانياً يظنه الدكتور غريباً عليه ، وأنا أعلم أن المجلة الإنجليزية لم تنشر هذه الصورة إلا لكونها غريبة فى بابها تستدعى الانتباه ، فلو كانت مما يتكرر فى طرق لندن لكان نشرها غير ذى موضوع ، فمن يبلغ الدكتور الكبير أن لهذه الحادثة نظائر شتى فى كتب التاريخ الإسلامى ، بل إن فى هذه الكتب ما يفوقها أثراً وروعة ، ولا أظن الأستاذ الكبير يجهل قصة عمرو بن العاص مع يمامة الفسطاط حين أرجأ تقويض الخيام كيلا تنزعج الأم الضعيفة ذات الأفراخ الصغار ، فأين هذا العمل الفذ الذى يعوق

ارتحـــال جيش بأجمعـه من انتظار دقيقـة أو دقيقتين فى ميـــدان عام ، لتعبر أوزة مع أفراخها ...

لا أنكر أن عمل الشرطى صنيع إنسانى نبيل ، ولكن أنكر ألا يكون لدينا أمثلة شتى من هذا الموقف النبيل ، نذكر منها :

١ ـ جاء فى كتاب الأم للإمام الشافعى أن عمر بن الخطاب قدم مكة ، فدخـــل دار الندوة يوم الجمعة وألقى رداءه على جدار فيها ، فوقع عليه طير من الحمام ، فأطاره الفاروق عن ثوبه ، ووقع على جدار آخر كانت عليه حية فقتلته ، فتأثر عمر لما رأى وقال لأصحابه : ما أظن إلا أننى كنت السبب فى مصرع الطائر ؟ فماذا أصنع ؟ فقيل له : تصدق بعنزة يا أمير المؤمنين ، فعجل بالتصدق ، وهو يرى نفسه مذنباً بذنب لم يرتكبه .

٢ ـ رحل الإمام أحمد بن حنبل إلى محدث وراء النهر يروى بعض الآثار النبوية ، فسلم عليه ، فرد السلام ، ثم اشتغل بإطعام كلب أسود حتى ظن أحمد أن الرجل لا يعبأ به ، ومع ذلك فقد انتظر حتى فرغ المحدث من شأنه ، وأقبل على أحمد يقول له : لعلك وجدت فى نفسك إذ أقبلت على الكلب دونك،فقد حدثنى أبوالزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة ، إن أرضنا هذه ليست بذات كلاب ، وقد قصدنى هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه ، قال أحمد فرحاً : يكفى ما سمعت .

٣ ـ انتشرت الأوقاف والحبوس على إطعام الحيوانات فى وصايا الأثرياء من ذوى الرحمة من المسلمين حتى كان نور الدين زنكى البطل المجاهد يتعهد إطعام الحيوانات بنفسه على رغم أعبائه الكبار ، كذلك كان عدى بن حاتم يفت الخبز للنمل ويقول : ضعيفات لا يجدن القوت ، أما أبو الدرداء رضى الله عنه فقد نظر إلى بعيره عند احتضاره وقال له يخاطبه ـ وكأنه إنسان عاقل ـ لا تخاصمنى عند ربك ، فلم أكن أجيعك ولا أحملك ما لا تطيق .

١٠ ـ فى الشعر العـــربى :

من يقرأ موسوعة الحيوان للجاحظ يرى فيها شعراً كثيراً يدل على تعاطف الإنسان العربى جاهلياً وإسلامياً مع الحيوان ، فأكثر ما قيل فى الناقة والحصان والكلب يدل

على رقة حانية ملأت نفوس القائلين ، ففاضت بأعذب المشاعر وأنبل الأحاسيس ، ومراثى الحيوان أكثر من أن تحصر فى الأدب القديم والأدب الحديث معاً ، بل إن للحمام ديواناً كبيراً فى الشعر العربى يتحدث عن نواحه وهديله ، إذ يتصور الشاعر مايسمع من هديل الحمام تصوراً يقع من نفسه أنبل موقع ،والذئب هذا الحيوان الخبيث يجد من يتعاطف معه فيقسم الزاد بينه وبين ضيفه ويداعبه قائلا :

تعش فـإن صـاحبتنى لا تخوننى — نكن مثل من يا ذئب يصطحبـان
ولو غـيرنا نبهت تلتمس القـرى — رماك بسهم أو شـباة سـنان

ولا أوجه للنفس ، وأشجى للقلب من تصوير الأبيوردى والشريف الرضى ومهيار لتفجع الظباء على أطفالها حين يداهمها وحش مفترس ، مما يدل على أن العاطفة الإسلامية نحو الحيوان متأصلة متغلغلة ، فإذا ذهب بعض الكتاب إلى غير ذلك فقد أخطأ الطريق ، كما توهم أستاذنا الكبير أحمد أمين :

حمامة زياد الأعجم :

أما تفصيل ذلك التوهم ، ففحواه ، أن الشاعر الأموى زياد الأعجم(١) وفد على حبيب بن المهلب وهو بخراسان ، فبينا هو وحبيب ذات ليلة يسمران ، إذ سمع زياد حمامة تغنى على شجرة كانت فى دار حبيب بن المهلب ، فهاجت شاعريته ونظم من فوره :

تغـنى أنت فى ذمـتى وجـارى — وذمـة والدى إن لم تطـارى
وبيتـك أصلحيـه ولا تخـافى — عـلى صـغر مزغبـة صـغار
فـإنك كلمـا غنيت صـوتاً — ذكرت أحبتى وذكـرت دارى
فإمـا يقتـلوك طـلبت ثـأراً — لـه نبـأ لأنـك فى جـوارى

فأخذ حبيب بن المهلب سهماً فأنفذها ، فقال زياد : أى حبيب ، قتلت جارى ، وبينى وبينك المهلب ، فاختصما إلى المهلب ، فقـال لابنـه : جار زياد لا يروع ، لقد لزمتك الدية ، ألف دينار ، فقال حبيب : إنما كنت ألعب ، فقال المهلب : أبو أمامة لا يروع جاره ، ادفعها إليه ، فدفع إليه الألف ، وقال زيادة عقب ذلك :

---

(١) لباب الآداب : للأمير أسامة بن منقذ ، ص ٢٦٤ ، طبعة أولى ، بتحقق الشيخ أحمد محمد شاكر .

فلله عينــاً من رأى كقضـــية ... قضى لى بهــا شيخ العراق المهلب
قضى ألف دينـــار لجــار أجرته ... من الطير حضان على البيض ينعب
رمـــاه حبيب بن المهــلب رميـة ... فأنقـــذه بالسهم والشمس تغـرب
فقــال : زيــاد لا يروع جــاره ... بلى جاره جارى ، وملجار أقرب

فبلغت القضية الحجاج بن يوسف الثقفى . فقال : ما أخطأت العرب حيث جعلت المهلب رجلها .

١١ — تعليق صاحب فجر الإسلام ونقده :

ذكر الأستاذ أحمد أمين هذه الواقعة ، وعلق عليها بقوله : (أفلست ترى معى أن هذا الشعور على هذا النحو جديد لم أعرفه للعرب من قبـل ، ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان) . ثم استدرك رحمه الله فقال فى الحاشية : لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لأنه فى جواره، إذ يظهر أن هذا كان عند العرب فى الجاهلية ، ولكن أعنى تجسيم هذا المعنى ، حيث لسيتعدى الوالى بطلب الدية .

وقد اتفق لى أن قرأت هذا الكلام فى (فجر الإسلام) فأنكرته صامتاً ، ثم وقع فى يدى عدد من مجلة (رسالة الإسلام) ربيع الأول ١٣٦٩ هـ فرأيت المغفور لـه الكاتب الغيور الأستاذ توفيق الفكيكى يفرد مقالا رائعاً لمناقشة الدكتور أحمد أمين ، فيتحدث عن حقوق الحيوان فى الإسلام بإفاضة وإشباع ، وينقل عن العرب حمايتهم للحيوان فى الجاهلية ، مستشهداً بناقة البسوس التى حماها جساس وقتلها كليب فقامت الحرب الضروس ، ومتحدثاً عن ثور بن شحمة أحد أشراف العرب الذين يحمـــون الحيوان والطيور ، فكان الطير لا يثار ولا يصاد بأرضه ، ثم قال الأستاذ الفكيكى رحمه الله فى ختام بحثه (ص ٦٥) من المجلة :

(ترى هل كان كليب وجساس وثور بن شحمة على مذهب المـانوية لحمايتهم الحيوان ، وهل كانت تعاليم الإسلام العالية فى رحمة البهائم وبيض الثيور ، وكذلك وصايا الصحابة وأحكام الشريعة ، ونظام الحسبة فى الإسلام بشأن الرفق بالعجماوات ، ترى هل كان ذلك كله مستمداً من تعاليم المـانوية ؟ أليس من الأرجح أن نقول أن زياداً الأعجم ، ذلك الشاعر الإسلامى العربى المجاهد فى سبيل الله ، قد استمد خياله من التقاليد العربية الأصيلة ، وتعاليم الشريعة المحمدية السمحة من قبل أن تشيع الفاحشة المـانوية فى الوسط الإسلامى بأجيال) .

١٢ - فى النثر القصصى :

كما تعاطف الشعر العربى - جاهليه وإسلاميه - مع الحيوان ، فقد تعاطف النثر العربى الإسلامى مع الحيوان تعاطفاً ينطق بتغلغل روح الشفقة فى النفس البشرية ، ومن أبرز ما نشير إليه فى هذا المجال قصة الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن ، إذ شاء قصاص أديب من إخوان الصفاء أن يعالج موضوع الرفق بالحيوان معالجة تبلغ أقصى ما يراد من التأثير ، فطار به الخيال الأدبى إلى تصور الإنسان الأول فى حياته البدائية ، إذ كان يستوحش من السباع والكواسر والوحوش ، فأخذ يأوى إلى المغارات والكهوف ، ويصعد إلى رءوس الجبال متجنباً شر هذه الآفات الفاتكة ، ثم امتد به الزمن فمال إلى التحضر واستخدم الآلات الحديدية ، فاستذل البقر والغنم والجمل من الأنعام والخيل والبغال والحمير من البهائم ، وجعل يعيد هذه الحيوانات ويلجمها ويسرجها لتكون رهن إشارته ، ثم اعتقلها فى مجالس قراه بعد أن كانت مخلاة فى البرارى والآجام والغياض ، وما تعذر صيده من هذه الأجناس شمر بنو آدم فى طلبه ، مستعينين عليه بإخوته من الخيول والبزاة والكلاب ، حتى أصبح الحيوان من الإنسان فى شر مستطير ، وقد ولى أمر الجن ملك حكيم يصتصنع العقل والمعرفة ، ففزعت إليه طوائف الحيوانات شاكية جور الإنسان ، وقامت المرافعات والاتهامات وتعددت الجلسات ، فأخذ كل حيوان يشكو ما وقع على جنسه من الأذى !

وهنا تتجلى عظمة القصاص الموهوب فى براعة التقصى وبعد النظر وسلامة الاستنتاج ، وكان بارعاً حين يجعل حيواناً كالبغل يدفع رأى الإنس فى قوة مقنعة ، إذ أخذ زعيم الإنس يستدل على حق طائفته فى تسخير الحيوان ، يقول الله عز وجل : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .

ذكر زعيم الإنس هذه الآيات الكريمة وأشباهها من كتاب الله مثل قوله تعالى : « لتستووا على ظهورها ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له بمقرنين » . فقام أحد البغال يدفع الحجة بالحجة ويقول فى وضوح كاشف : ليس فى شىء مما قرأ هذا الإنس من آيات القرآن أيها الملك دلالة

على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم إنما هى آيات تذكر بإنعام الله عليهم وإحسانه ، فقال : « سخرها لكم » كما جاء ما يفيد أن الله قد سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح لبنى الإنسان ، أفترى — أيها الملك — أن هذه الكائنات هى الأخرى عبيد للإنسان ، وهو ربها المتحكم القهار ؟

وقد انتهت الخصومة الحادة بحكم معتدل أوضحه ملك الجن فى قوله : (الآن حصحص الحق ، فيا أيها الحيوانات أنتم أعوان الإنسان ، فأطيعوه ولا تعصوا له أمراً ، ويا بنى آدم أنتم سادة الحيوان ، فعاملوه بالرفق ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

وفى القصة إشارات دقيقة إلى معان عالية تقتبس مادتها من علوم النفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ والتحليل التشريحى للأعضاء الحيوانية ، والغرائز البشرية ، والحواس الظاهرة والمستترة ، والعواطف الراضية والغاضبة ، لتنتهى إلى تأكيد الرفق ووجوب الحنان .

١٣ — إحساس النبات :

يبالغ بعض الشعراء حين يتجاوز الحيوان إلى النبات ، وكأنه يريد أن يقنع القارئ بضرورة العطف على الكائنات جميعها ليكون الحيوان فى طليعة من يختصون بالرفق والإحسان ، ولعل هذا ما عناه القائل :

ارحم الغصن لا تنله بسوء	قد يحس النبات كالإنسان
واستمع للحفيف منه تجده	بات يشكو الإنسان للرحمن

العدل ظـاهرة كونية

« الشمس والقمر بحسبان ۝ والنجم والشجر يسجدان ۝ والسماء رفعها ووضع الميزان ۝ ألا تطغوا فى الميزان ۝ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »[١]. (قرآن كريم)

ظاهرة كونيـة :

العدل سنة من سنن العالم الطبيعى ، به سارت الكواكب فى مجاريها ، وعلى نظامه توقف مجرى الليل والنهار ، فالشمس تجرى لمستقر لها لا تتزحزح عنه ، والقمر لـه منازل معلومة مرصودة ، « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار » ، « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » .

لقد اكتشف الفلكيون بعد أن رصدوا الكواكب السيارة أن أبعادها بالنسبة إلى الشمس تسير على نظام عادل لا يختلف (٣ — ٦ — ١٢ — ٢٤ — ٤٨) وبالعـدل الدقيق قامت حركة الكون فى اطرادها المديد ، كما أن الخلل الشاذ فى بعض مظاهر الكون لا يكون إلا عقاباً على ترك العدل ، لأن الظلم يمحق الحياة الإنسانية كما تمحق الزلازل والبراكين هدوء العالم الأرضى فى وقت من الأوقات ، وإذا كان الزلزال يرسل الحمم ويبعث الصواعق ، فالظلم الحائد عن طريق العدل هو مدعاة هذه الأهاويل ، لذلك كان الخسف والرجف والزلزال بعض العقاب الذى سلطه الله على الطغاة من الظالمين .

الظـلم يدمر الكون :

وقصص الجبابرة من الطغاة فى كتاب الله تنتهى دائماً برجفة كونية تكون نتيجـة لانهيار العدل فى مجتمع هؤلاء النجاة ، وقد عرضت سورة هود قصص البغاة ممن

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات من ٥ إلى ٨

مردوا على الحق ، وكانت كل قصة تنتهى بالخسف والمحق والغرق ، فقد فار التنور وماج الماء مدراراً من السماء وفوّاراً من الأرض فى قصة نوح ، وأخذت عاد وثمود بالرجفة والصيحة ، وأرسلت على قوم لوط حجارة من سجيل منضود ، وأخذت الذين ظلموا من قوم شعيب الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ثم قال الله عز وجل عقب هذه الأحداث : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود »[1]

وفى مثل هذا المعنى يقول الله عز وجل : « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد »[2].

فكأن العوامل الطبيعية التى تنزل الكوارث بالناس هى فى كثير من أحوالها نتيجة منطقية للظلم القائم ، وسبب من أسباب تغيب العدالة بين الناس ، لذلك وضع الله الميزان بالقسط حين خلق السموات والأرض ، وجعل العدل مناط الاستقرار .

العدل اتجاه فطرى :

وكما أن العدل ظاهرة كونية فهو أيضاً اتجاه فطرى فى النفس إذا سلمت من غواشى البيئة الفاسدة ، وبرئت من سيطرة الغريزة الهابطة ، فحين ترتكس النفوس فى حمأة الضلال لا تطمئن اطمئناناً كافياً لشذوذها المنحرف ، بل تضيق به وتحس كأنها بمنأى شاسع عن الطريق الصحيح إحساساً يورثها لذع الألم ، وبرح الندم ، مهما تظاهر المذنب بالتماسك والالتئام ، إذ يشعر شعوراً داخلياً أنه يأتى بما لا يناسب إنسانيته من الآثام ، ويتمنى لو أمكنه سريعاً أن يسدل ستاراً على مخازيه بأن تهيئ له الظروف ما ينجيه من انحداره نجاء خالصاً لا رجعة فيه ، لأن صوت الفطرة فى أعماقه يؤرقه ، وقد يموت الضمير نهائياً عند قلة قليلة ، وهؤلاء شواذ لا تستقيم بهم قاعدة عامة .

---

(١) سورة هود ، الآيات من ١٠٠ إلى ١٠٣

(٢) سورة الحج ، الآية ٤٥

ومن دلالة هذا الاتجاه الفطرى فى النفس أن صاحب الخلق المحمود إذا عدل فى أهـله ورعيته يشعر بالارتياح المغتبط فى كل موقف من مواقف عـدالته ، حـتى ولو عادت عليه هذه العدالة المتحرزة ببعض الأضرار المـادية أو المعنوية ، لأنه يعرف أن الجزاء من جنس العمل وأن الضرر الذى لحقه بإجراء العدالة ضرر ظاهرى يخفى نفعاً كثيراً له قبل أن يلحق النفع سواه ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، خضوعاً للقانون الإلهى فى الحياة وهو العدل . وحين قال الله عز وجل : « الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان »(١) ، قد مهد جل جلاله لذلك كله بقوله : خلق الإنسان علمه البيان ، ومن علمه البيان لا يستطيع أن ينكر أن كل شىء يقوم فى الحياة بميزان أى ميزان ، فالبيان هو ثمرة الحكمة العاقلة ذات الوعى البصير .

عدالتان : خارجية وداخلية :

وعلماء الأخلاق حين يتحدثون عن العدالة يجعلونها عدالتين : عدالة داخليـة ، وعدالة خارجية .

فالعدالة الداخلية هى مراعاة الالتزام الدقيق بقواعد النظام العادل فى السـلوك الإنسانى بحيث لا تقوى ناحية ما فتسيطر على غيرها سيطرة تفقد المرء توازنه النفسى ، أو تعظم غريزة هابطة فيسوء أثرها حين تسيطر على عاطفة شريفة فتمحقها ، وتفصيل ذلك أن الإنسان يخضع لقوى عقلية وقوى شهوية ، والقوة العقلية هى التى تحتل مكان القيادة فتوجه صاحبها إلى الطريق الصحيح ، وتكبح جماح القوة الشهوية حين تميل إلى تجاوز ما أحل الله من متاع ، أو سلب ما يحوزه الغير من مال ، وبمراعاة العدالة بين القوتين يحدث الانسجام النفسى لدى الإنسان ، إذ يكون موفقاً فى حياته فلا تعصف به نزوة هائجة ، إلى عمل عدوانى ، أو انحطاط بهيمى ، لأن العدالة الإلهية قد منحت الإنسان إدراكه البصير ، ليسير فى المحيط الزاخر آمناً مهابّ العواصف الهوج ، والزعازع الهائجة ، فيصل إلى الشاطئ بسـلام ، وما يقوله الأخلاقيون قديماً عن القوى العقلية والقوى الشهوية يقوله علماء النفس حديثاً عن الإدراك والوجدان والنزوع ، والمـآل واحد ، وإن اختلف الاصطلاح .

(١) سورة الرحمن ، الآيات من ٥ إلى ٧ .

هذه هى العدالة الداخلية ، وكثيراً ما يغفلها المتحدثون عن العدالة مع أنها أصل من أصول الاستقرار الإنسانى ، وبتحقيقها يعيش المرء سعيداً هانئاً ، ولا شك أنها تتطلب جهاداً شاقاً ، وكفاحاً مريراً ، لأن للغرائز سيطرتها الغاشمة إذا اتسع أمامها ميدان العبث دون كبح ، فلا بد أن يعالج الإنسان توازنه النفسى ليوصد منافذ الشر فلا يندلع شررها على حياته ، وللتربية الخلقية أثرها فى السيطرة على النوازع الهابطة ، وهى تربية لا بد أن تلزم الناشىء من مفتتح حياته ليسمو بنفسه مبدئياً ، فيظل بعيداً عن جواذب الشرور ، ودوافع الانحطاط .

العدالة الخارجية :

أما العدالة الخارجية فهى التى تتجاوز التنظيم الداخلى للنفس إلى الاتصال الاجتماعى بين الناس ، ولا شك أن كل إنسان حريص على ألا يضيع حقه ، فهو يتطلع إلى استيفاء ثمرات جهوده ، تطلعاً قد يدفعه إلى الطمع فى ثمرات غيره ، إذا فقد عنصر الحق فى نفسه ، إذ من الحق كل الحق ألا يجور إنسان على إنسان ، حتى ولو كان فى نهاية الحد الأقصى من عدالة المتربصين ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »(١).

والنصوص القرآنية فى هذا المجال كثيرة يعرفها الدارسون ، وعلينا أن نتفهم نفوسنا حين نصدر الحكم فى تحديد العلائق بيننا وبين الناس ، لأن الشيطان يعجز عن أن يدفع المسلم المتحرز دفعاً صريحاً للظلم ، فيأتى إليه من باب التدليس ، ليزين له الشر حين يرسمه فى صورة الخير ، فيجعل من ميوله الذاتية فى حب الاستئثار بالنفع ما يريه الباطل المحض فى صورة الحق الصريح إذا لم يعتصم بالحجة الواضحة ، دافعاً تطلعات الهوى المغرض . ومن هنا قال الله عز وجل مخاطباً نبيه داود عليه السلام : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »(٢). وداود نبى ذو خلق وعقل وإيمان ، وقد حذره الله مع مواهبه الثالبة من الهوى ، فتحذير غير الأنبياء أوجب وألزم .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨ (٢) سورة ص ، الآية ٢٦

وإذا كنا نستعرض نوازع الشر فى النفوس ، فلا نظلم الحق حين نقول : إن فى بعض النفوس كرائم نفيسة يدفعها التسامح الحميد إلى التنازل عن بعض الحقوق العادلة حباً فى الرحمة المطلقة ، فهى ترضى بالعدالة عند التخاصم ، فإذا تحقق لها ما تريد تنازلت عن حقها الصريح استجابة لقول الله : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » ، ولن يرتفع الإنسان إلى الرحمة الغافرة إلا إذا تأصلت أخلاق القرآن الكريم فى نفسه بحيث أصبح لا يستطيع عن المثل الأعلى صبراً واحتمالا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

العـدل فى العـدل :

يقول الأستاذ إبراهيم الجبالى رحمه الله : (إذا نظرت إلى المعاملات وجدت قانون العدل محكماً ، وطريق الإنصاف محتماً ، لأن الإسلام قد عدل فى العدل . نعم لقد عدل حتى فى العدل ، لأنه لم يحتم على صاحب الحق أن يأخذ بالعدل ، كما لم يحرمه حقه من العدل ، وإنما قال له : لك الحق فى أن نستوفى حقك بالعدل ، ولكنى مع ذلك أرغبك فى الإحسان ، فما أشبه الإتيان بالإحسان بعد العدل أن يكون اعتدالا فى تقرير العدل) .

وكأن الأستاذ الجبالى ينظر إلى قول الله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان »(١) ، فيجد العدل هو الميزان الطبيعى للمصالح العامة ، ويرى الإحسان فى العدل منزلة مستثناة للخاصة ، وهى التى تجاوز العدل إلى العفو وهو الإحسان وإذا كان من علماء الأخلاق فى الغرب من جعل الإحسان فى العدل دون تجاوز ، فإن هذا الأخلاقى الكبير لم يحط خبراً بكل النفوس ، إذ أن من البشر من تسمو نفسه إلى التسامح متنازلا عن حقه العادل ، وقد رأينا من كرام الناس من يبكى لمآسى أعدائه ويود أن لو هادنتهم الأوصاب ، ومن يتنازل مشكوراً عن حقه العادل فى ساحة القضاء رغبة فى ثواب الله يوم الجزاء ، وتجاوز العدل إلى الرحمة سمو نفسى دعا إليه الإسلام مخيراً بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، وتلك عليا مراتب الفضلاء .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩٠

حرية التفكير فى الاسلام

دعا القرآن الكريم إلى التأمل الفكرى بآياته الواضحة ونصوصه الصريحة ، وقد ظهرت نتائج هذا التأمل عملياً فيما أحدثه علماء المسلمين شرقاً وغرباً من معجزات علمية شهد بها المنصفون من رجال الغرب ، ولم تكن هذه الدلائل الساطعة — بعد كثرة الكتابات عنها فى العصر الراهن — مانعة ذوى الأرجاف من لغوهم الباطل إذ عكف أشباه المبشرين من الدارسين على طمس الحقائق الصريحة بأراجيف كاذبة تنتحل لها الأسباب الموهومة من كل طريق حتى غلا صاحب كتاب (الوجيز فى تاريخ الفلسفة) وهو مفكر طنان الذكر فزعم أن تقهقر المسلمين فى المضمار الفلسفى يرجع إلى كتابهم المقدس الذى يتعارض مع النظر الحر للعقل المستقل ، وهو زعم تدحضه النصوص الصريحة التى حفل بها القرآن الكريم ووعتها السنة المطهرة ، وقد أصبحت من الاشتهار بحيث تجبه هؤلاء المتخرصين جبهاً يقذف بهم بعيداً عن منطقة البحث النزيه ، ولا نرى مانعاً من أن نكر على بعض اتجاهاتهم المجحفة بالتفنيد الباتر ، لينسجم القول على وجه صريح .

وأوضح ما يروعك من هذه الاتجاهات هو تصيد حوادث تاريخية يشم من ظاهرها التضييق على حرية البحث ، فنجد أصحابها ينشطون فى حرص دائب على جمعها ثم تأويلها كما يشاءون وأقوى ما يستدلون به فى ذلك ما روى من أن (صبيغ بن عسل الحنظلى) قدم إلى المدينة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر فضربه حتى أدمى رأسه ثم نفاه إلى البصرة وأمر بعدم مجالسته وفى رواية أنه حرمه من عطائه حتى صلح حاله ورجع عن البحث فى مشكلات القرآن ، وقيل أنه كان يتنقل فى أجناد المسلمين وأمصارهم سائلا عن المشكلات والمتشابهات فنفاه عمر وأمر ألا يجالس حتى يصلح أمره .

كما يستدلون بما حكاه عمرو بن شعيب عن عمرو بن العاص وأخيه هشام أنهما قالا : جلسنا مجلساً فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كنا به أشد اغتباطاً من مجلس

جلسناه يوماً (جئنا فإذا أناس عند حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم يتراجعون فى القرآن ، فلما رأيناهم اعتزلناهم ورسول الله خلف الحجر يسمع كلامهم فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً يعرف الغضب فى وجهه حتى وقف عليهم فقال : أى قوم ، بهذا ضلت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه بعضاً ، ولكن يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به ثم التفت إلى وإلى أخى فغبطنا أنفسنا ألا تكون قد رآنا معهم) .

والناظر فى هاتين الحادثتين بعين الإنصاف لا يرى فى إحداها ذرة تشى بالتضييق على حرية البحث النزيه بسبب ، لأن الرجل كان يبحث عن المشكل ثم يذهب ليسأل عنه من لا يدرى شيئاً من أمره فيحدث من التشكيك والبلبلة ما يجب الحسم فى القضاء عليه ، ولو أن صبيعاً قد تلجلج فى صدره شىء من المتشابه فأتى أمثال علىّ بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعمر بن الخطاب من كبار العلماء فى عصره فناقشهم الرأى وطالبهم التفسير ، ما وقف أحد أمام سؤاله ، ولرأوا فيه رجلا طلعة يسعى إلى تأويل المختلف وإزالة الريب ، بتفصيل المجمل ، وإيضاح الغامض ، ولكن الرجل كان يتنقل بين العامة لينقل نصوصاً مبتورة توهم بما يشكل ثم يترك الناس حائرين ليلقى سواهم فى الأمصار المختلفة فيذيع إليهم ما يشكل ويعضل وحين بلغ أمره إلى ابن الخطاب لم يؤاخذه بعقاب صارم بل رأى أن يدرأ خطره عن الناس فنفاه عن حرم رسول الله إلى البصرة وأمر بعدم مجالسته حتى تتاح له الفرصة بينه وبين نفسه ليفكر فى صنيعه ، ويعلم أنه يثير الفتن لدى من لا يستطيعون النظر الدقيق ، وكأن الله عز وجل قد هداه إلى الخير فاستراح من شكوكه وصلح أمره وخالط الناس على أمن واعتقاد !

أما ما رواه عمرو بن العاص وأخوه هشام من حديث رسول الله ، فلا أدرى موضع التضييق فيه ، إذ أن رسول الله قد استمع لنفر يفسرون القرآن على غير وجهه فخرج مغضباً يعرف الغضب فى وجهه الشريف ، وأى فرد عادى لا يغضب حين يسمع كلاماً يدرك خطأه الشنيع ، ويعلم أنه بعيد كل البعد عن الصواب ؟ فإذا كان هذا الخطأ مما يتعمد نصوص كتاب الله فإن الغضب ليشتد وإن السخط ليعنف ؟ فإذا كان السامع لهذا الغلط رسول الله وقد جاء بالحق الصريح وعرف فساد ما يخوض فيه

بعض الخائضين ، فإن الغضب أقل مما يتصور أن يحكم به عليه فى شدة غيرته على الحقائق الإسلامية ؟

أفكان هؤلاء ينتظرون من رسول الله أن يسمع القوم يضربون الكتاب بعضه ببعض فيأخذون نصاً مبتوراً من آية ليقفوا به أمام نص مبتور من آية أخرى ، وليقولوا قد اشتبه علينا الأمر ووقع فى كلام الله من التناقض ما لا يهدى إلى صواب ، أكان هؤلاء ينتظرون من رسول الله أن يخرج لهؤلاء القوم هاشاً باشاً منطلق الأسارير يشجعهم على ما يرجفون ؟ أم كانوا ينتظرون منه أن يغضب لحق يخفى وباطل يعلن ، ثم ماذا فعل الرسول بعد ما سمع ؟ أأمر باعتقال القائلين أدعا إلى حربهم ونفيهم عن حظيرة الإسلام حتى يقال أن ضيق من حرية البحث ، ووقف أمام سلطان العقل ؟ كل ما فعله رسول الله أن قال فى تؤدة ؟ أى قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكن يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به ؟ أيكون فى ذلك تضييق على حرية البحث ، ودعوة إلى عدم التدارس العلمى ، وقد شرق وغرب قوله صلى الله عليه وسلم فى تحبيذ هذه الدراسة البصيرة (ما اجتمع قوم على كتاب الله يتدارسونه إلا حفتهم الملائكة وذكرهم الله فى ملإ عنده) إلى عشرات من هذه الأقوال يعرفها القريب والبعيد .

ثم أن المسألة ليست من الخفاء بحيث نتصيد حادثة أو حادثتين لنفسرها كما نريد ، فإن الدعوة إلى التفكير الحر فى الإسلام ليست مما نص عليه فى آية أو آيتين ، بل توالت النصوص حتى شملت أكثر السور فى بسط وإسهاب ، وقد لاحظ بعض دارسى الأديان أن النصوص القرآنية الخاصة بالدعوة إلى التفكير المستقل تأتى واضحة فهى غرض مقصود واضح قامت عليه الشواهد المتعددة ، أما كتب الأديان الأخرى فقد جاءت الدعوة إلى التفكير فيها كأمر جانبى لا يقوم على رأسه منادياً باستقلاله ، بل أن بعض المقارنين يرون فى هـذه الكتب كثيراً مما يعلن الزراية بالعقل ويدعو إلى انتقاص قيمته التقديرية محذراً من سلطانه الذى يكون مزلة الإنكار فى كثير من المواقف ، وما رأينا نصاً قرآنياً يهمل أو يحذر بعض التحذير من حرية التفكير تلميحاً أو تصريحاً ، بل تضافرت النصوص بما لا مزيد عليه تدعو إلى نشاط البحث وحرية التفكير ، إلى أن صار ذلك مذهباً واضحاً من مذاهب الإسلام ؟ وماذا نقول فى دين

ينص فقهاؤه على أن إيمان المقلد غير مقبول إذا أمكنته القدرة على التفكير فاحتقرها واكتفى بالتقليد ؟ ثم ما نقول فى دين يدعو إلى الاجتهاد ، ويعلن أن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ؟ لأن فاطر السموات والأرض يعلم أن الخطأ طريق الصواب .

ولنسرد — على سبيل المثال — هذه النصوص القرآنية الداعية إلى النظر المستقبل لترن مع سابقتها فى آذان من يستمعون القول فيفكرون :

١ — « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »(١) .

٢ — « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب »(٢) .

٣ — « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٣) .

٤ — « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب »(٤) .

٥ — « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »(٥) .

٦ — « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون »(٦) .

ولكن الذين فى قلوبهم مرض يتركون هذه النصوص ، ليؤوِّلوا حادثتى صبيغ وعمرو بن العاص كما يشاءون !

هذا بعض ما يقال عن تصيد ما يشم من الأحداث التاريخية لتأويله على غير وجهه ، نعقبه بما دأب عليه بعض المغرضين من التنديد بمن يحرم دراسة المنطق من فقهاء العصور المتأخرة ، وأقوى ما يستعصمون به فى ذلك فتوى ابن الصلاح حين وجه إليه هذا السؤال :

---

(١) سورة يونس ، الآية ١٠١
(٢) سورة الرعد ، الآية ١٩
(٣) سورة محمد ، الآية ٢٤
(٤) سورة الزمر ، من الآية ١٧ ، ١٨
(٥) سورة العنكبوت ، الآية ٤٣
(٦) سورة يونس ، الآية ٥

(ما حكم الاشتغال بالمنطق والفلسفة تعلماً وتعليماً ، هل أباحه واستباحه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون والسلف الصالحون ، هل يجوز استخدام الاصطلاحات المنطقية ؟ وما الواجب على من تلبس بتعليمه وتعلمه متظاهراً بها ، وما الذى يجب على سلطان الوقت فى أمره ، وإذا وجد فى بعض البلاد شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمها وأقرائها والتصنيف فيها ، فهل يجب على سلطان البلد عزله وكفاية الناس شره ؟) .

وواضح أن الذى وجه السؤال إنسان يضيق بالمنطق لقصور ذاتى يمنعه الوصول إلى صواب براهينه واستقامة حدوده ، فاختار من رجال الإفتاء من يشاركه هذا الضيق ليشفى حاجة فى نفسه ، وابن الصلاح رجل حديث وفقه ، وهو إمام فى العلوم النقلية لا محالة ، ولكن أمراً ما عاقه عن العلوم العقلية ، فلم يشأ أن يشارك فيها ، ونحن لانصدق ما قيل أنه سعى إلى تعلمها فلم يجد السبيل . فحين وجه إليه السؤال أجاب : (بأن المنطق مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدى به ، وأن استخدام الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية يعد من المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية افتقار إلى المنطق أصلا وما يزعمه المنطقى بالمنطق من أمر الحد والبرهان فقاقيع قد أغنى عنهما الله كل صحيح الذهن لا سيما من خدم العلوم الشرعية ، ولقد تمت الشريعة وعلومها وخاض بحر الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ، ومن زعم أنه تشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان) .

هذا لباب الفتوى ، وحين نتلمس الأسباب التى دعت الفقيه الكبير إلى الجهر بها فى صراحة سافرة ، نجد أن شيوع المصطلحات اليونانية وتدسسها إلى كتب الأصول والفقه والكلام على نحو غامض لا يؤذن بوضوح ، قد جعل كتب الشريعة عند نفر من دارسى المنطق تأخذ غير طابعها الإسلامى فى كثرة اللجاج وطول المماحكات والوقوف عند الألفاظ ، ومناقشة الحدود والتعريفات ، حتى كثرت اللجاجة من جرائها ، واستطاعت أن تنحى نصوص الكتاب والسنة قليلا أو تمىل ببعضها إلى

ما تريد ، وقارئ الكتب الإسلامية إذ ذاك لا يكاد يهتدى إلى بغيته خالصاً دون عقبات تؤوده ، فاندفع أمثال ابن الصلاح إلى تحريم الاشتغال بالمنطق ، سداً للذرائع واتقاء للفرقة التى تبلبل الأذهان وتفسد القلوب وتجر إلى مشكلات أهل الفضول ، ولا نجد أوفى من حديث الأستاذ العقاد عن ذلك فى كتابه (التفكير فريضة إسلامية) ص ٣٢ حيث يقول :

(وكان دخول مصطلحات اليونان على أيدى أناس يجهلون العربية ويعجزون عن فهم ألفاظ القرآن ومعانيه باباً آخر من أبواب الخلط والغلط فى تطبيق البرهان والقياس فمن كان من أصحاب المنطق أهلا لمعرفته وفهم وجوهه لم يكن أهلا لتطبيقها على معانى القرآن وعبارته لجهله بذوق اللغة وأسرار بلاغتها ، ومن كان يعرف اللغة لم يكن من ذوى المعرفة بالبرهان والقياس ، وشر من هؤلاء من يجهلون اللغة كما يجهلون المنطق ثم يهرفون بما لا يعرفون) .

وكل ما ورد من علماء الإسلام الذين حرموا الجدل فإنما ينصرف إلى منع هـذه اللجاجة التى لمسوا شرها ، وتحققوا من جريرتها ، ولم يلمسوا فيها منفعة تتحقق بالجدل ولا تتحقق بغيره ، فما يغير قوماً من الأقوام خطب أفدح عليهم من اشتغالهم بالجـدل وتركهم العمل ، كما قال الإمام الأوزاعى وأسلم المواقف عند ذوى البصر بالدين إذا احتـدم الخصام وشاع المراء والاتهام أن يصاب المرء ولا يصيب ، وأن يتجنب الخصومة أو يتجنب فيها كل قول مريب .

وعلى كثرة الفقهاء الذين عرضوا لهذا الموضوع لا تجد واحداً منهم قصد بالمنع أو التحريم شيئاً غير هذا الجدل العقام الذى يمزق وحدة الجماعة ويصرف العقل عن الفهم ويأتى إلى المعنى الواضح فيغمضه ولا يتفق له يوماً أن يأتى إلى الغامض فيجلوه ويقربه لمن خفى عليه ، فهم فى الواقع إنما ينقذون العقل من ضلالة تغشاه فتحجب عنه الحقيقة ، ويعيذونه أن يخبط فى النهار المبين خبط عشواء .

هذا كلام العقاد ! وهو فى موضعه مكان الإقناع والإلتزام .

فإذا تركنا تصيد الأحداث التاريخية ، وفتوى بعض الفقهـاء بتحريم الدراسـة الجدلية فإننا نجد لدى هؤلاء المرجفين شبهة ثالثة تحاك فيما ادعوه من التعليل الكاذب لانحدار العالم الإسلامى فى عصوره الأخيرة ، إذ حاولوا أن يرجعوا بجمود المسلمين

وتقهقرهم الحضارى إلى جمود دينهم ، وقصور تعاليمه عن الوفاء بمطالب الحضارة المزدهرة ، لأنه فى زعمهم دين بدوى لا يواكب المدنية فى ركبها الصاعد ، وما علموا أن المدنيين من المستعمرين أنفسهم كانوا بعض العلل فى انحدار الشرق الإسلامى ، إذ رموه بما فتَّ فى عضده فوق ما ابتلى به من بلاء بعض الفجرة من الحكام ، والظلمة المترئسين ، حين أهدروا قوانين الشريعة جرياً وراء إشباع شهواتهم الخاصة ، واستكمال ملذاتهم الهابطة ، إذ يبنون سعادتهم على أشلاء الصرعى من ضحايا الفقر والجهل والمرض ، فلم تكن تعاليم الإسلام مدعاة الجمود لأنها تعوق الفكر عن الانطلاق ، بل كان البعد عن تعاليم الإسلام هو كارثة الكوارث ، فى انحدار المسلمين .

وإذا كان قساوسة المبشرين قد تابعوا الغرض الأعمى حين أعلنوا أن الإسلام لا يرحب بحركات الإصلاح ، وكل إصلاح هادف لارتقائه يخرج به عن حقيقته إلى دين آخر ، فقد عموا عن حقيقة واضحة يعرفها الدارسون ، وهى أن الإصلاح المسيحى الذى اكتمل على يدى (مارتن لوثر) ومن واصلوا الدعوة إلى مثله قد نبع من مبادئ الإسلام حين دعا إلى محاربة السيطرة الكهنوتية ونادى بالرجوع مباشرة إلى الخالق الأعلى دون وساطة من كاهن أو قسيس ، وقد ثبت ذلك عن علماء مقارنة الأديان بما شاع واشتهر لدى المنصفين ، فكيف يتم إصلاح المسيحية عن طريق الإسلام ، ثم يكون الإسلام نفسه مدعاة جمود أتباعه ، وتأخر معتنقيه ، ثم ها هى ذى تعاليمه ترفع الستار عن الحقائق لتتركها سافرة جلية ، وتحطم كل متجبر يحاول أن يثبت لنفسه سلطاناً يحجر به على العقول والأفهام ...

ثم ماذا كان العالم الأوربى قبل الإسلام ، لقد تسرب الضعف إلى الإمبراطورية الرومانية شيئاً فشيئاً حتى لفظت أو كادت تتلفظ أنفاسها قبل القرن السادس الميلادى ، إذ سيطرت قبائل القوط والوندال والهون والمغول والسكونيين على أجزائها ، وهى قبائل فى الدرك الأدنى من الهمجية والجهل والتوحش ظلت مسيطرة على أوربا قروناً عدة ، حيث كانت إلى بعد القرن العاشر تمتلئ بالغابات المخيفة التى تسكنها الوحوش وتنقض منها كواسر الطيور ، وكانت الحالة الاجتماعية موضع الرثاء والشفقة لدى أناس يبنون فى باريس ولندن بيوتهم من الطين والخشب دون منافذ أو سرر أو بسط ،

وكانت الواحدة ، هى كل ما للعائلة الكبيرة بحيواناتها وطيورها ، وقد ساد الجهل سيادة جعلت المرض يفتك بالمئين دون راحم ، وكانت زيارة الأماكن المقدسة هى وحدها باب الشفاء من المرض ، فإذا دهمت بلدة بوباء ، أو أسرة بمريض فالوسيلة لإنقاذه هى دعوات الكهنة ، وأحجبة الدجالين من المشعوذين .

أما الشرق فقد استضاء بنور الإسلام ليبنى المدن الزاهرة ذات الحضارة الراسخة والتاريخ الحفيل ، وحين ازدهرت الحضارة العباسية فى بلاط الرشيد والمأمون والمعتصم ، وترجمت العلوم إلى لغة العرب فأصبحت أحد الروافد الدافئة فى محيط الفكر الإسلامى كانت الكنيسة الأوربية تطارد كل مفكر يشذ عن اتجاهها فى رأى ، وتتعقب العلماء والفلاسفة تعقباً ينذر بالإبادة والاستئصال ، وكانت المدارس الزاهرة تمتلئ بعلمائها فى البصرة والكوفة وبغداد وقرطبة ، والقاهرة ، حتى بلغت مدارس قرطبة فى عهد الحكم بن عبد الرحمن الأموى سبعاً وعشرين مدرسة ، وقد اعترف المستشرق الشهير (دوزى) بأنه لم يكن فى الأندلس أمى واحد يوم كان التعليم فى أوربا حجراً على الطبقة العليا من القسوس .

وقد نبغ فى المدارس الإسلامية شرقاً وغرباً من يعتز بهم التاريخ فى سجل العلماء والمفكرين ، حتى استيقظت أوربا من نومها العميق على ترانيم الأندلس فى الغرب وأضواء المعرفة فى الشرق ، ولا نطيل فى إحصائيات علماء الإسلام من نوابغ الرياضة والفلك والطب والكيمياء والطبيعة ، فذلك مما يضطر أكثر المتعصبين بعداً عن الحق إلى الاعتراف به فى مجال التطور التاريخى للعلوم ، فإذا كان الإسلام قد رفع وحده لواء الحضارة الإنسانية عدة قرون ، وكانت عصور المأمون ببغداد ، والمعز بالقاهرة ، والناصر بالأندلس ، هى وحدها عصور العلم فى الكرة الأرضية ، فكيف يكون هذا الدين داعية التخلف لأبنائه فى عصور الانحطاط ؟!

إن المنطق السليم يقضى بأن التخلف الطارئ على الأمة الإسلامية لم يكن إلا بمجافاتها تعاليم هذا الدين الراشد ، فقد فتح لها طريق الفكر إلى أبعد مدى يستطاع ، ولكن أعداءها الداخليين والخارجيين قد قعدوا لها كل مرصد ، فسدوا منافذ النور على أهله ، فعمهم الظلام ، وأصبحوا بحيث تتقاذفهم التهم الباطلة من كل صوب فلا يجدون النصير ، ولا نريد أن نستشهد بأقوال مؤرخى الإسلام فى هذا الصدد ،

فقد يتهمهم المغرضون عن كراهية ، ولكننا نستشهد بكتب المنصفين من أساطين الغرب ، ونحيل إلى مرجع ذائع مشتهر هو حضارة العرب لجوستاف لوبون ، إن خفى عن بعض الناس ما كتب أوليرى و . ه . ج ويلز ، وواجين يونغ ، وسيد يوونو برجر ، وغيرهم من الأساطين .

تلك هى أهم الشبه التى يرجف بها المغرضون بغياً دون حق ، وقد عرف القارئ المنصف مقدار بعدها عن الحق بما نطقت به البراهين الصحيحة .

ونحن بعد هذا العرض السريع نجدنا مطمئنين أوفق الاطمئنان حين نقرر أن التفكير الدينى فى الإسلام قد جرى إلى أبعد أشواط الحرية العقلية بحثاً واستنباطاً وتجربة ، وقد خدم الإنسانية بما أثمر من حضارة وأدى من اكتشاف ، وما زال التفكير الدينى فى ظل الإسلام الصحيح مدعاة حرية مكتملة ، واستقلال نزيه :

الاسلام والفروق الجنسية

يقول المستشرق الإنجليزى الكبير (مستر جب) فى كتابه (حيثما يكون الإسلام) :

(ولكن الإسلام ما زال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً فى تأليف الأجناس المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى فى أفريقية والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع) .

وكلام المستر (جب) واضح لا لبس فيه ، فهو يعلن فى صراحة أن مبدأ الإسلام فى المساواة هو الحل الأوحد الذى يقضى على التنافر المتطاحن بين الأجناس والشعوب ، وأنه وحده لا سواه الذى يستطيع أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، إذ ينظر إلى بنى الإنسان نظرة واحدة لا يختلف فيها بعيد عن قريب .

والمدهش حقاً فى منهج الإسلام أنه صاحب القانون الأوحد الذى جاهر فى أعظم أيام ازدهاره بأن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بتقوى الله ، وأن كل الناس لآدم وآدم من تراب ، مع أن الذى يتتبع آراء الدول المتغلبة قبل الإسلام وبعده فى إبان رقيها الثقافى أو السياسى يجد كل شعب يخلع على جنسه من عوامل التفوق ، وطهارة السلالة ونقاء المعدن ما لا يمكن أن يخلص لسواه من الأجناس . حاشا الإسلام فقد جاء ليقدم بلالا وصهيباً وسلمان على صناديد العرب من أمثال أبى سفيان ...

لقد ازدهرت الثقافة الإغريقية ازدهاراً صار حديث الأجيال المتغنية بفلسفتهم وآدابهم حتى عزى إليها فضل النهضة العلمية الأوربية ، ولكن أصحاب هذا الارتقاء الفكرى وقد نظروا إلى أنفسهم بقداسة وتعاظم ، فأعلنوا أن ما عداهم من الشعوب

بربرى متوحش ، وجاء أفلاطون ليقسم الناس فى جمهوريته إلى طبقات من السادة والعبيد ، فيختص بالسيادة والحكم أناساً وبالخدمة والاستبعاد آخرين ، ثم تابعه أرسطو فى كتاب السياسة فأعلن فى قسوة أن للإغريقى على المتوحش حق الإمرة ، وأن العبيد إذا عوملوا بالرفق صاروا سفلة وقحاء ، وأن الآسيويين يطيقون استبداد الحاكم وجبروته ، أما الإغريقيون فأحرار أباة ، وأن شعوب الأرض الباردة أقل ذكاء وأكثر شجاعة من غيرهم وأن اليونانيين أفضل الناس على الإطلاق ، وقد اشتهر كتاب أرسطو فى السياسة ، وتناقل أكثر العلماء آراءه كحق صريح لا يقبل التأويل .

ثم دار الزمان فتألقت السيطرة الرومانية وخبا مشعل الإغريق إلى أمد ما ، فأخذ الرومانيون يدعـون أن كل من لا ينتمى إلى الإمبراطورية بربرى متوحش وأنهم وحـدهم أصحاب السمو والارتقاء ، وأن جيرانهم الأدنين من الجرمان والصقلب والكلت أجناس منحطة متقهقرة ! وقد نسى الإغريق والرومان معاً أن الحضارة الأولى فى طريق الإنسانية كانت شرقية لا غربية ، وأن مبادئ الفلسفة نمت على ضفاف النيل ، وأن الحروف الأبجدية لديهم مستوردة من لبنان وسوريا أيام الفينيقيين ولكن الحق شىء والغطرسة الكاذبة شىء آخر عند أولئك وهؤلاء .

فلما أشرق نور الإسلام كان مبدؤه الإنسانى الأوحد هو المساواة ، وكان تطبيق عمر لهذا المبدأ المثالى فى عصر القوة الباهرة عجباً من العجب ، فقد تداعت دولة الفرس تحت معاول العرب ، وترنحت إمبراطورية الروم بقوة الإسلام ، ووقف أمير المؤمنين فى أوج عظمته وباهر قوته ليطبق المساواة ، مهتدياً بكتاب الله ومتبعاً نهج رسوله الكريم .

لقد جهر الرسول الأعظم بتقرير حق المساواة فى حجة الوداع حين قال فى خطبته الرائعة : (أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد) . ورأى عمر شيخاً ضريراً يسأل على باب ، فسأل ، فعلم أنه يهودى ، فقال له : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال : (انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخزيه عند الهرم) .

وحضر ببابه جماعة من أشراف قريش منهم سهيل بن عمرو بن عبد شمس خطيب قريش ، وعيينة بن حصن رئيس فزارة ، وأبو سفيان بن حرب زعيم قريش قبل الفتح ، ومعهم نفر من العبيد والموالى ممن شهدوا بدراً . فطلبوا الإذن ، فخرج الآذن يدعو بلالا فعماراً فصهيباً فسلمان ، وترك السادة ، فغضب أبو سفيان وقال : لم أر ذلا كاليوم ، يؤذن للعبيد ونترك ، ليخيل إلى أن حجارة الجهلتين لو استأذنت لتقدمت ، فقال سهيل فى أناة : لم تتمعر وجوهكم يا قوم ؟ دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر) .

هذه مبادئ الإسلام ضاءل من تأثيرها النفاذ أن انحرف عنها خلفاء بنى أمية حين تعصبوا للعرب ظالمين ، فسمحوا لغيرهم أن يناصبهم العداء ، ثم ظهرت الشعوبية البغيضة ، فنشأ صراع آثم ينأى عن الإسلام فى لبانه ويرتد إلى دعوى الجاهلية فى التفاخر بالأحساب والأنساب ، وكانت كارثة تحملها الإسلام مظلوماً ، إذ حاد عن هديه تابعوه ، ثم حصحص الحق بعد لأى ، فعرف المسلمون نهجهم القويم ، واعتنقوا المساواة النزيهة مبدءاً ينبع من قرآنهم الكريم لا بضاعة مستوردة من الثورة الفرنسية كما يزعم بعض من يجهل تعاليم دينه ، مؤثراً أن يكون ذيلا لأعدائه لا رأساً فى ذويه !

لقد نادت الثورة الفرنسية بمبادئ الحرية والمساواة والإخاء لتظل حجراً محجوراً على الأوربيين دون الشرقيين ، فالحرية للغرب وحده ، أما دول الشرق فلها الاستعباد والذل والاحتلال ، وقد شاعت فى أوربا الحديثة نظرية الفروق الجنسية ، بل إن أمريكا نفسها تجعل الزنوج فى بلاد الجنوب موضع احتقار الجنس الأبيض ، ولا يزال الرئيس الأمريكى يفاجأ كل يوم بمآسى التعصب الجنسى ، مما اشتهر أمره واحتاج إلى علاج سريع .

وسنلم الآن بخلاصة موجزة لنظرية الفروق الجنسية ومدى **تأثيرها** السيء فى العالم الإنسانى ، ولعل من بعض كوارثها الدامية أن أشعلت حربين عالميين تقهقرت بهما الحضارة إلى الوراء كثيراً ، وصحبتهما اللعنات السوداء من أفواه الثواكل والأيامى والأيتام ، إذ حصدت ملايين الأرواح ، وتداعت آلاف المنازل والقصور .

لقد نادى الكونت دى غوبينو الفرنسى فى القرن التاسع عشر بنظرية الأجناس البشرية ، فجاهر بأن تطور تاريخ الشعوب هو تطور العرق ذاته ، وأن الأمم ذات

البشرة البيضاء هى السباقة دائماً فى مضمار الرقى ، وزاد فجعل الجنس الأبيض متفاوتاً وفق نقاء الدم ، فمنه الأمثل الأعلى ، ومنه ما دونه فى السمو والارتقاء ، إلا أنه على تفاوته فوق الأجناس جميعاً ، وقد فلسف نظريته فلسفة منطقية ، ونستطيع أن نفهم خلاصتها مما نشره الأستاذ ماجد بهجت عنها بمجلة الرسالة العدد ٦٦٩ ــ ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٦ ، حيث قال فى بسطها :

(إن المخلوقات من حيوان ونبات وجماد تخضع لقانون طبيعى أزلى يتميز بعضها عن بعض ، فهناك فصيلة خير من فصيلة ، وعنصر خير من عنصر ، وبطون خير من بطون ، ففى الحيوان ترى الخيول العربية أفضل من غيرها ، وفى النبات ترى الورد الجورى له رائحة زكية هى أعبق وأشهى من غيرها ، وفى الجماد تجد للفولاذ متانة تفل الحديد ، كذلك الإنسان ــ وهو من عنصر الحيوان ــ لبعضه تفوق على غيره .

وهذا الإنسان المتفوق إنسان أعلى ، ويكثر من عدد المتفوقين فى شعوب دون شعوب ، فبطبيعة هذه الحال تكون هذه الشعوب التى كثر أفرادها المتفوقون شعوباً علياً ، ومن حقها السيطرة والنفوذ .

وتعتمد النظرية فى إثبات دعواها على عوامل منها :

١ ــ أن القدرة العلوية شاءت أن تختار عنصراً متفوقاً من بنى الإنسان لتعهد إليه بالإدارة والقيادة فى العالم .

٢ ــ إن العلم فى ذاته دافع إلى السيطرة والغلبة فإنه يسلم صاحبه وسائل ارتقائه وسموه .

٣ ــ أن التاريخ يحدثنا عن الأبطال وحدهم فهم السادة المطاعون .

٤ ــ أن الواقع يصف لنا حاجة الأمم الماسة إلى التوسع وبسط النفوذ نتيجة لزيادة الإنتاج وكثافة النسل .

ثم تنتهى النظرية بالدعوة إلى إنشاء إمبراطورية واحدة تضم جميع هذه الشعوب التى كتب لها ابيضاض الجلد وصفاء الدم فتهيمن على العالم وتسيره بإرادتها الجبارة) .

ومن الواضح أننا لا ننكر تفوق بعض الناس على بعض ، لأمور لا ترجع للجنس والدم ، بل لازدياد الثقافة وارتقاء البيئة ، وهذا ما عناه القرآن حين قال : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » ، والكونت دى غوبينو بمنأى عما نحن فيه لأنه يرجع بالتفوق إلى الدم والعرق ، وقد نسى أن المدنيات الباهرة على شواطئ النيل ودجلة

والفرات وفى سوريا واليمن السعيد قد ازدهرت حين كانت أوربا ذات الدم المزعوم متوحشة تتخبط فى عصور الظلمات ، بل إن بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية وقرطبة العربية كانت جميعها ترفع مشعل الحضارة الإسلامية ، وبلاد التفوق الموهوم تضم أناساً عراة يرتدون جلود الذئاب ، ويعيشون عيشة الهمجى المتوحش فى أدغال الغابات وظلمات الأحراش .

ومن المؤسف أن نظرية الكونت قد وجدت صداها الرنان فى أوربا بنوع عام ، وفى ألمانيا بنوع خاص ، إذ وفدت إليها بعد الوحدة الجرمانية وتطلع ساستها إلى مشاركة انجلترا وفرنسا وهولندا فى مستعمراتها الشاسعة عن طريق الغصب والاستقلال وقد تأثر بها فردريك نيتشه فأوحت إليه ببعض آرائه فى السبرمان ، وأخذ الشباب الألمانى بتأثير هذه الأكذوبة يغنى نشيد (ألمانيا فوق الجميع) ، ثم اندفع متهوراً إلى تأجيج حربين كبيرتين عادتا على الإنسانية المعذبة بالهول والشقاء !

لقد كان من الغريب الشاذ أن تدعو نظرية الفروق الجنسية إلى الوحدة الجماعية فى إمبراطورية تضم الشعوب البيضاء وتبسط سيطرتها على الشعوب الملونة ، وإذ ذاك — فى منطق الكونت وأشياعه — يستتب الأمن حيث يخضع الضعيف الأبله الجاهل للقوى العاقل العالم ! وتمضى القرون المتتابعة على تأثيل هذه الإمبراطورية وتثبت دعائمها فى الوجود ، فيعم الاستقرار .

ولكن مرور نصف قرن فقط عصف بآمال عشاق هذه النظرية الخرقاء ، وجعل أشياعها من متطرفى الألمان يتحسرون لخيبتهم المريرة فى حربين هائلتين ، وثبت للعالم الإنسانى كافة أن أسطورة التفوق حلم مجنون عصف برأس أرستقراطى نشوان ! وجعل المنصفون من كتاب أوربا ينظرون إلى أساس السعادة الإنسانية من جديد ، فيعرفون أنه فى إنصاف الشعوب وتقرير حق المساواة كما شرعها الإسلام . ولذلك أصاب المستشرق الإنجليزى الأستاذ جب مقطع الصواب حين قال : (إن الإسلام ما زال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة) .

وتلك كلمة حق تزرى بجميع ما صاح به أنصار التفرقة من لدن أفلاطون وسقراط إلى ما يردده الآن بعض أعضاء الكونجرس الأمريكى من لغو زائف فات أوانه وانقطع مداه .

الرأى العام فى الاسلام

ينظر بعض المفكرين فى أوربا إلى الرأى العام نظرة مريبة ، فهو فى رأيهم آلة تسخرها الدعاية وتسيرها العاطفة دون تعمق فى أسباب أو ارتقاب إلى نتائج ، والكاتب اللبق يستطيع فى منطق هؤلاء أن يحول الجماهير عن رأى صائب إلى رأى مخطئ بما ينمق من خيالات ، وقد يكون هذا القول منطبقاً على ما نشاهده فى التاريخ الأوربى المعاصر ، فهو يقدم لنا من ألوان الاحتيال على الحقائق ، وأفانين التجهم على القيم ما يدفعنا إلى إساءة الظن بالرأى العام الأوربى مهما يزعم لنفسه من تقدم وتثقيف ، فنحن نجد المعسكرين : الديمقراطى والشيوعى كليهما يقدسان فى ظواهر الأقوال مكانة الرأى العام ، ولكنك تجيل العين الفاحصة ، فتجد كل معسكر يخضع لساسة محترفين يوحون بالفكرة الفردية بادئ ذى بدء ، ثم يعبئون شتى الجهود اللسانية والقلمية للدعاية لها حتى تصبح بين يوم وآخر أمراً بدهياً لا يقبل المعارضة ، ويندفع الرأى العام هناك لتأييدها مطالباً متسرعاً وكأنها قد انبعثت من أعماقه ، غافلا عما يكون بها من مآخذ تستأهل المراجعة .

وقد كان وجود المدرسة النازية فى ألمانيا معلماً أول يلقن أساليب الدعاية والتمويه ، فاندفعت الدول الأخرى إلى تطبيق نظرياته ، واستلهام مذاهبه ، وأصبح كتاب الدكتور جوزيف جويبلز (نصيبى فى كفاح ألمانيا) دستوراً محترماً فى واقع الأمر لدى الأوربيين ، وإن تظاهروا بالنقمة عليه ، والبعد عن اتجاهاته ، والحق أن الدكتور جويبلز وزير الدعاية الألمانى كان عجيباً جداً فى بابه ، وما نحسب أن دولة من الدول وهبت داعية عظيما فى مثل ملكته وكفايته ، فقد فرض عليه هتلر أن يضع برنامجاً لتعليم الشعب الألمانى تعليما من شأنه أن يجمع كل القوى المؤثرة فى الشعب فى يد واحدة مطلقة السلطة والتصرف ، وجويبلز يقول بصدد ذلك : (لقد ألقى على عبء هذا العمل، إنه ميدان فسيح تتجاوز حدوده مقدرة كل إنسان ، إنه عمل هائل يتطلب تحقيقه إنفاق العمر فى جهد متصل ، وصبر عظيم ، ويتطلب قوة ذهنية جبارة

ومقدرة تامة على إدارة وسائل الدعاية الحديثة ، إدارة تشمل الشعب جماعة وفرداً فرداً) .

وقد ذهبت النازية ، وبقى أعداؤها ليسيروا على نهجها فى غسق الليل ، زاعمين أنهم يقفون منها على طرفى نقيض ، وقل لى بربك كيف يوافق الرأى العام المثقف فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا على فظائع الاستعماريين فى تونس والجزائر ، وإبادة آلاف الضحايا ، كما وافق من قبل على تشريد أمة عربية شهيدة دون أدنى جريرة ! ! كيف يوافق الرأى العام الأوربى والأمريكى على هذه الفظائع الدامية إن لم تكن أساليب الدكتور جويبلز فى الدعاية هى الدستور الأعظم لقادة هذه الشعوب ! .

لسنا نتجنى على الرأى العام فى أوربا الديمقراطية حين ننص على أنه قد فقد حريته الطبيعية وأصبح آلة مسخرة تديرها الدعاية كما تشاء ، فهناك عشرات من المفكرين الديمقراطيين يعلنون هذا الواقع الشائن فى مرارة ، وهاهو ذا الدكتور لويبلز الأستاذ بجامعة كونتجن يجهر بذلك فى صراحة إذ يقول :

(وفى الواقع لقد ابتعد الرأى العام فى دول الأحزاب الديمقراطية عن أن يكون التعبير الصادق فى المجتمع الحر ، ويظهر ذلك من ملاحظة أن المبادئ الحرة فى هذا البلد — يريد انجلترا — قد احتفظت بقوتها أكثر من أى بلد آخر ، ولكن رغم ذلك نرى كيف أخذ الرأى العام تحت الضبط الآلى ، والسيطرة الجماعية يميل يمس أكثر فأكثر نوعاً غير منتظم الشكل يخضع لتيارات الأفكار التكتلية ، وبهذا غدا الرأى العام الجماعى الذى فقد القوة المعبرة والكفاءة واقعاً تحت تصرف أولئك الذين يديرون المجتمع)[1] .

وطبيعى أن يبحث الكاتب وأمثاله من المفكرين عن علاج ناجع لهذا الداء الخطير ، ليرد على الرأى العام ما فقد من ضعفه ، فيصبح كما تتخيله مثلهم الفكرية أميناً مخلصاً يهدف إلى الكرامة والحرية والمساواة ! ! وقد أجهد الأستاذ ليبولز فكره منقباً عن هذا العلاج حتى اهتدى إلى القيم الروحية ، فهى التى تفعل ما لا يفعل القانون ، وتصون ما لا تصون التقاليد المتوارثة ، وإنه ليؤكد ذلك مكرراً معاوداً ، فيقول فى استنتاج متعقل : (وقد أظهرت اختبارات القرن الماضى هبوط كل محاولة

(١) ترجمة الأستاذ فؤاد طه زى ببغداد .

لبناء سياسى جديد على أسس إنسانية محضة ، وثبت أن انبعاث الروح الحقيقى يكون عن طريق أولئك الذين يجمعون تجاربهم من موارد روحية عميقة) .

وهنا موضع العبرة من كلام الرجل ، فإن تكوين رأى عام عن طريق القيم الروحية قد وجد تطبيقه العملى فى الإسلام وحده ، ونجح نجاحاً هائلا تتتابع دلائله فيما سطره المؤرخون شرقاً وغرباً عن حياة الإسلام الأولى فى عهده الخالص المخلص ، ونحن نقول : إنه وجد تطبيقه العملى فى الإسلام وحده ؛ لأن المسيحية لم تضع قوانين المعاملات ، ونظم التعاقد والترابط فى كتاب مقدس لتكون معروفة مؤكدة لا يختلف فيها اثنان ، بل اتجهت إلى التهذيب الروحى والتطهير الوجدانى مكتفية بقوانين المجتمع الرومانى ، أما الإسلام فقد عالج أمور الدولة وسن شرائع الناس ثم فرض اتباع تعاليمه فرضاً ملزماً فسار وراءها الرأى العام المسلم قبل أن تتجه إليه معاول التخريب .

وتاريخ الحقبة الأولى من حياة الإسلام شاهد لا يخطئ ، فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم والعرب أحرار لا تجمعهم غير التقاليد الموروثة المتباينة ، فحمل إليهم رسالة العدالة والمساواة والإخاء والحرية ، وبلغ الناس كتاباً يجمع ما أمر الله به أن يفعل ، فأصبح القرآن دستوراً جامعاً ، وإماماً هادياً ، وبذلك كون رأياً عاماً يتمتع بأهدابه فيعتصم بفضائله ويخالف مناهيه ، وأصبح كل مسلم يختط طريقه فى الحياة على هديه ، فإذا أطاع أمير المؤمنين ففى طاعة الله لا فى معصيته ، وإذا عامل رئيسه أو مرءوسه ففى نطاق شريعة مقدسة مدروسة ، فلو نعق ناعق بما يخالف آية كريمة أو يعارض أثراً نبوياً تحداه الرأى العام الإسلامى أن يأتى بدليل قرآنى يقف له !

وهكذا تكون الرأى العام فى ضوء ساطع من القيم الروحية ، وفى هدى واضح من كتاب الله ، وإنه ليحدد مكانة الأمة الإسلامية وواجبها الشرعى فيقول فى جلاء : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » ، وينحى باللائمة على بنى إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، كما يذم المنافقين ذماً شائناً ، لأن بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم .

وقد جاءت أفعال الرسول — وهو المثل الأعلى للإنسان فى الإسلام — وأقواله

شارحة وموضحة لأوامر الكتاب فى تكوين رأى عام مستنير يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والرأى العام حينئذ هو مقياس الترجيح وأداة الحكم ، تصدر الأمة عن رأيه ، وتنبعث قوانينها من هداه .

روى ابن عساكر عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : (قال رجل : يا رسول الله ، متى أكون محسناً ومتى أكون مسيئاً ؟ فقال : إذا أثنى عليك جيرانك أنك محسن فأنت محسن ، وإذا أثنى عليك جيرانك أنك مسىء فأنت مسىء) ! !

وروى البخارى عن حرملة رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، ما تأمرنى به أعمل ، فقال : ائت المعروف ، واجتنب المنكر ، وانظر مايعجب أذنك أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فائته ، وانظر الذى تكره أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فتجنبه .

وروى البيهقى فى الشعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقفن عند رجل يقتل مظلوماً ، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه) .

وقال أيضاً فيما رواه البخارى عن النعمان بن بشير : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأخذ كل واحد منهم نصيباً ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء يمرون به على الذين فى أعلاها فتأذى الذين فى أعلاها بالمار عليهم ، فقال الذين فى أسفلها : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فأخذ أحدهم فأساً ، فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه ، فقالوا : مالك ؟ قال : تأذيتم بى ، ولا بد لى من الماء ، فإن أخذوا على يديه ومنعوه أنجوه ، ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم) .

فى ضوء هذه المبادئ الصريحة قرآناً وحديثاً تكون الرأى العام الناضج ، فقال أبو بكر رضى الله عنه فى أول خطبة له : (أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم) ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (من رأى منكم اعوجاجاً فىَّ فليقومه !) ، فرد عليه أحد المستمعين : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، فوافقه عمر وأيده ! !

وهكذا أصبح كل مسلم رجل سياسة مفهومة ، تتغلغل فى أعماقه ، فهو يلتزم

حد الله فيما يأتى ويدع .. وأصبح الرأى العام الإسلامى إذ ذاك حقيقة واقعة يسيطر عليها القرآن ، وتجمعها روح الإسلام ..

ولو قدر للفكرة الإسلامية أن تطرد على سوائها المستقيم بعد النبوّة والخلافة الراشدة ، لسعد بها المسلمون ، ولكنها انتكست على يد معاوية حين أخذ البيعة ليزيد ، فرغب ورهب ، وقارب وباعد ، وأسكت الأفواه بالمال تارة وبالزجر تارة أخرى ، فأخذ الرأى العام الحر ينحسر ويتقلص ، وأصبح المخالف الجرىء يهتف فى أذن العاصى الغوى بالآية الحاسمة والأثر القاطع فلا يجد السميع ، ثم جاء الخلفاء من بعده فنهجوا نهجه — إلا قليلا ممن عصم الله — فانطفأت جذوة الغيرة على توالى المحن ، وتكون رأى عام آخر يقبل الضيم ويستنيم للمكروه !! ولك أن تقرأ هاتين الحادثتين لتوازن بين عهدين متنافرين اجتمع فيهما الرأى العام على مبدأين متناقضين ، فعلت كلمته فى عهد ، وخبت ريحه فى عهود .

١ — كان عمر بن الخطاب يقسم بعض الغنائم ، فنقده بعض الحاضرين ، فصاح صائح بالناقد : اتق الله فإنه أمير المؤمنين !! فقال عمر : دعه فلا خير فيكم إن لم تقولوها فينا ، ولا خير فينا إن لم نتقبلها منكم .

٢ — خطب أبو جعفر المنصور فقال : أيها الناس ، اتقوا الله ، فقام إليه رجل من عرض الناس ، فقال : أذكرك الله الذى تذكرنا به يا أمير المؤمنين ، فرد أبو جعفر : سمعاً لمن ذكر بالله، وأعوذ بالله أن أذكر به فأنساه، وتأخذنى العزة بالإثم، وأما أنت ، فوالله ما الله أردت بها ، ولكن ليقال : قال فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت ، وأنا أحذركم أيها الناس أمثالها ، فإن الموعظة علينا نزلت ومنا أخذت) .

فقوة الرأى الحر الملزم تتجلى بوضوح فى عهد الخليفة الراشد ، وتتضاءل فى انكماش فى ظل المتجبرين من الورثة ، والمدلين بالنسب ، ونحمد الله أن تقدم بنا الزمن فمضت عصور الاستبداد إلى غير رجعة ، وفاء المسلمون إلى دينهم يحفظون قرآنه ، ويتفهمون حديثه ، ويقرأون تاريخه ، وما أحراهم أن يكونوا رأياً عاماً إسلامياً تجتمع كلمتهم عليه ، دون تراجع ونكوص .

على أن أشد ما يمنى به الرأى العام من أخطار هو أن يصاب بأبالسة يحرّفون الكلم عن مواضعه ، فلا يعمدون إلى الصراحة فى فرض أفكارهم الخاصة ، وأهوائهم

الشخصية ، بل يقصدون إلى القضايا المسلمة ، والحقائق المتعارفة ، فيشرحونها على غير وجهها ، ويحملونها ما لا تطيق من الاتجاهات ، والجمهور لا يفطن إلى الوجـه الصائب ، وقد يجوز ذلك بكثرة فى القوانين الوضعية والمسلمات التقليدية ، ولكنه يصعب كثيراً فى دستور محكم فسرت آياته الكريمة فى شتى المراجع على توالى العصور واشتهرت منازعه اشتهاراً ظاهرته السنة المتداولة ، وأيده واقع التاريخ الإسلامى فى مده الحافل بشتى عظاته ومثله ، لأنه وجد فى كل جيل من يرسم الطريق الواضح على هديه ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه !! وإن ضاعت صيحاتهم بدداً فى خضم المتجبرين ، ولكنه ضياع مؤقت لا يلبث أن ينشد نفسه ، أما الزبد فيذهب جفاء .

فالرأى العام الإسلامى يعرف مصادر وحيه ، ومصابيح هدايته ، وله إحساس يلهمه وجه الحق فيما اشتبه من الدليل والتبس من القول ، ولديه مراجعه المتوارثة على الأجيال من خلاصة التفاسير ، ولباب الأحاديث ، ومعتمد الكتب والنصوص ، فإذا حاول محاول ما أن يخدعه عن طريق فلن يستطيع المسير ، لا سيما فى عصر مدنى كهذا العصر تعددت فيه ألوان المعارف ، وتيسرت سبل التحصيل ، ولا أظن رأياً عاماً آخر لا يستند فى قيمه الخلقية ومعاملاته الشخصية ، إلى كتاب واضح محكم ، يستطيع أن يجد من حرارة الإيمان ما يجده الرأى العام الإسلامى فى دفاعه عن المقدسات والذخائر .

وإذا كان المستنيرون من دارسى التاريخ الإسلامى يأسفون لانحراف حكامه حقباً طويلة عن طريق الحق ، فإن العهود الحديثة أصبحت تستبشع هذا الانحراف ولا تصبر عليه ، وتتطلع إلى عهود المساواة والأخوة والحرية فى شوق عظيم !! وقد سارت كثير من الدول الإسلامية شوطاً حميداً فى هذا الطريق ، وإنا لنرجو أن تلحق بها أخواتها عن قريب .

صلة الأرحام فى الاسلام

من أمثلة الإعجاز القرآنى الذى لا يلتفت إليه قوله الله عز وجل : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » ، فقد قرنت الآية الكريمة تقطيع الأرحام بتولية الحكم ، جاء ذلك مصداقاً لما نطق به لسان التاريخ من بعد ، حين قطعت الأرحام أبشع تقطيع ، إذ دأب ولاة الحكم فى كثير من عهود الدول السالفة فى الشرق والغرب على أن يقطعوا أرحامهم بانتزاع ولاية العهد ممن عقدت له إلى ابن الحاكم القائم بالأمر ، وذلك حدث هائل ولا يتم بغير تهديد ووعيد يصلان فى أكثر الأحوال إلى التآمر والاستئصال ؛

وما تآمر أبى جعفر المنصور وعشرات ممن ساروا على سنته فى ذلك مما يجهل فنعيد الخوض فيه ! بل إننا لنذكر ما كان من تقاليد الدولة العثمانية حين دأب سلاطينها على استئصال أقاربهم وذوى رحمهم فى الساعات الأولى من توليتهم الحكم ! حتى اضطر بعض مؤرخيهم أن يقول فى بدء الحديث عن كل سلطان ، وقد قام بإعداد حمام الدم المتبع فى مثل هذه الأحوال ! وما حمام الدم هذا إلا سفك دماء ذوى القرابة القريبة ممن يتوهم فيهم الحاكم — بالظنة المحتملة — تطلعاً إلى الحكم فى يوم بعيد ! وكأن السلطان سليم قد سن دستوراً جازماً لمن بعده ، حين قال قولته المشئومة : السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد ، بعد أن قتل أباه وأخاه ، فصار خلفاؤه ينهجون نهجه الظالم فى تقطيع الأرحام كعمل مشروع تتقبله الناس بكل ارتياح !

وهؤلاء هم الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم وحقت عليهم لعنته فى كتابه حين قال : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

ولا عجب بعد ذلك أن يهتم الإسلام بصلة الرحم ، وأن يشدد النكير على قاطعها ، استناداً لأمر نفسى جبلت عليه الطبائع البشرية فى كل زمان ومكان ، إذ أن ذا رحمك دائم التطلع إلى خيرك إن حرمه ، فهو يعتده حقاً حتمياً ينادى به الدم الممتزج والقرابة

الواشجة ، فأنت إذا كنت غنياً موسراً وتركت الفقير الأجنبي محروماً من صدقتك ، فإن غضبه عليك لا يبلغ معشار ما يشتعل فى صدر قريبك الفقير من غضب ، لأن منطق الدم القريب يصيح به فى عروقه مؤكداً حقه عليك فى رعايته ، فأنت بإهماله تشعل فى صدره جمراً لا يزال يتقد حتى تطفئه بشاشتك بالخير وصلتك بالبر !

تلك حقيقة نفسية فطن إليها الإسلام حين قدم ذوى القربى على غيرهم ، فقال صلى الله عليه وسلم حين سئل : أى الصدقة أفضل : جهد المقل وابدأ بمن تعول ، وقد أمر رسول الله يوماً بالصدقة ، فقال رجل : يا رسول الله ، عندى دينار ، قال : تصدق به على نفسك ، قال : عندى آخر ، قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى آخر ، قال : تصدق به على زوجك ، قال : عندى آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى آخر ، قال : أنت أبصر به .

هذا بعض ما جاء فى الحديث النبوى ، أما القرآن فقد رتب مصارف الصدقة ترتيباً لا يحتمل اللبس حين قال عز وجل فى سورة البقرة : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وحين قال فى سورة الروم : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ! » . وحين قال فى سورة البقرة : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ! » .

وقد أخطأ بعض المفسرين حين جعل قول الله عز وجل فى سورة الشورى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ! » خاصاً بأهل البيت النبوى الكريم ، ناسياً أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون ، ولو شئنا أن نذكر كل ما جاء فى القرآن والحديث من تفضيل ذوى الأرحام على غيرهم من المحتاجين ما اتسع أمامنا المجال .

وكعادة علماء الإسلام فى التحليل والشرح ، نجدهم يسهبون فى علة تفضيل ذوى الرحم لدى الصدقات ، فمن قائل : إن المتصدق أقدر على معرفة المحتاج من ذوى قرباه ، وأخبر بهم من سواهم ، فقد يضع الصدقة فى يد البعيد وهو غير فقير منخدعاً ببعض الظروف والملابسات ، أما ذوى رحمه فهو أدرى بمصادر رزقهم ومبلغها من الضيق والسعة ، لذلك كانت صدقة القريب يقيناً لا يتطرق إليه الظن ، ومن قائل :

إن فى مودة ذوى القرابة تدريباً على مودات الأباعد ، وتمهيداً للإحسان الشامل الذى ينتظر أن يعم البعيد باتساع منافذ الرحمة تدريجياً لدى المحسن !

ومع ارتياحى لهذين التعليلين فإنى أضيف إليهما أن العامل النفسى المشترك بين ذوى القرابة ، يجعل الغنى مدفوعاً إلى العطف عليهم بادئ ذى بدء بحيث لو قصر فى ذاتهم ما صادف ذلك ارتياحاً خالصاً من ضميره ، فهو يثور عليه فى أعماقه ثورات متقطعة قد تجد صداها عند الخيرين من ذوى البر ، وقد لا تجدعند من أعمتهم الشراهة وأفسدهم الطمع ! كما أن هذا العامل النفسى بذاته يجعل الفقير مترقباً خير قريبه الثرى فى كل لحظة من لحظات عسره ، فإذا أبطأ عنه فإنه لا يستطيع إطلاقاً أن يقرن شحه بشح الأجنبي البعيد ، فالقريب لديه أعظم جريرة وأفدح ذنباً ! وليس ذلك فيما يتعلق بالصدقة وحدها ، بل إنه يمتد إلى كل تصرف من تصرفات الحياة ! وهذه حقيقة إنسانية واضحة لمحها الجاهلى القديم حين قال :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

وما أريد أن أفيض فى استيفاء مناحى القول فى تفضيل ذوى القربى ، فلعل غيرى أقدر على ذلك وأكفأ ، ولكنى أمهد بهذه المقدمة الموجزة لقصة أدبية رائعة ذات مغزى خلقى يؤكد صلة الرحم ! وقد قرأتها فى كتاب (المكافأة وحسن العقبى) لأحمد ابن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ هـ !

وفى تراثنا الأدبى كتب جيدة يصح أن تكون كتب أخلاق علمية قبل أن تضاف إلى التراث الفنى وحده ، وكتاب (المكافأة) من أظهر الأمثلة لهذه الكتب ، إذ كان هدفه الأساسى خلقياً مثالياً يدعو إلى البر والمعروف ، ويؤكد مثوبة الخير المرتجاه ، وعقوبة الشر المنتظرة فى الحياة الدنيا قبل الآخرة بما يروى من قصص واقعى ويسجل من حدث متعالم مشتهر ، وهو بذلك أنفع لقارئه من كتب الأخلاق التقريرية التى تعتمد على المواعظ والنقول وحدها ، أو التى تستند إلى النظريات التجريدية فى فلسفة الخير والشر ، دون أن تمس شغاف القلوب بما تصور من عاطفة وبما تلوّن من منظر ، وقد كان أحمد بن يوسف من كبار البلغاء الذين يرتسمون الإيجاز اللامح ، ويبتعدون عن بريق اللفظ ورنين الصنعة إلى جمال الصدق ، وصفاء التعبير ، وإصابة المحز ، ولن نقدمه بأحسن من بيانه حين يروى هذه القصة المؤثرة فيقول :

وحدثتني أم آسية ، وكان لها دين ومذهب جميل ، ومحل لطيف من خمارويه ، وقد تذاكرنا لطف الله عز وجل في أرزاق عباده ، وحسن الدفاع عنهم ، أنه تزوجها وأختها أخوان ، فأقبلت حال زوج أختها ، وأدبرت حال زوجها ، قالت : وتوفى زوجها بأسوإ حالة ، وخلف لها بنات ، وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله ، وتوفى زوج أختها ، وقد خلف من العين والمساكين والأواني لولد أختها ، قالت : فكنت أجاهد في مؤنة ولدى ، وإذا وقف أمرى ، صرت إلى أختى فقلت : أقرضيني كذا وكذا ، استحياء من أن أقول لها (هبي لى) ، ودخل شهر رمضان ، فلما مضى نصفه اشتهى علىّ صبياني حلواً في العيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : أقرضيني ديناراً أعمل به للصبيان حلواً في العيد ، فقالت : يا أختى : تغيظيني [1] بقولك أقرضيني ، وإذا قرضتك من أين تعطيني ، أمن غلة دورك أو بستانك (لو قلت لى هبي لى كان أحسن) فقلت لها : أقضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتسب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقب ، فتضاحكت وقالت : (يا أختى ، هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النوكى) ، فانصرفت عنها أجر رجلى إلى منزلى .

وكان في جوارنا امرأة تطلق [2] قد أوجعت قلبي ، فقلت : أدخل إليها فليس لها قابلة . قالت أم آسية : ووالله ما عاينت ممخوضة [3] قط ، فدخلت إليها فمسحت جوفها ، وأجلستها كما كان القوابل يجلسنني في طلقي ، فولدت من ساعتها ، فلما أمسك صياحها ، جاء الخادم يسأل عنها ، فقلت : قد ولدت ، فعجب من سرعة أمرها ، وظن هذا شيئاً قد اعتمدته بحذق صناعة ، ولطف في مهنة ، فمضى إلى سته بنت اليتيم ، وكانت مقرباً [4] بأول ولد حمل لأبي الجيش ، وقد عرض عليها قوابل استثقلتهن ، فقال : (في جوارنا قابلة أحضرناها لمرأة في حارتنا فوضعت يدها على جوفها فسقط ولدها) ، ووصفني بما لا يوجد في قدرة أحد إلا بالله عز وجل ، فقالت للخادم : إذا كان غداً فجئني بها ، فأتاني الغلام ودعاني إلى مولاته ، ثم اشتكت مغساً [5] تجده المقرب ، فأدخلت يدى في ثيابها ومسحت جوفها ، وعججت

---

(١) هكذا بحذف النون على لغة مرجوحة تعمدها الكاتب مراعاة لأساليب العامة في التخاطب .

(٢) طلقت المرأة إذا أدركها المخاض .

(٣) الممخوضة التى ضر بها الطلق .

(٤) الحامل المقرب التى دنت ولادتها .

(٥) المغس : المغص .

إلى الله تعالى سرى بتوفيق ، وكنت أدعوه ومن حضر من أهلها يتوهم أنى أرقى ، فكن ما وجدته وتبركت بى ودخل إليها خمارويه وقال : ما وجدت ؟ فقالت : مغساً فى جوفى ، فوضعت قابلة أردتها يدها عليه فزال ما أجده ، وأخرجتنى إليه — وكان قريباً من حرمه — فقال لى : أرجو أن يخلصها الله عز وجل ببركتك .

قالت أم آسية : (ودخلنا فى العشر الأواخر من شهر رمضان وقد تمسكت من الإخلاص لله عز وجل بما لا يصل إليه من ساح فى الجبال خوفاً من شماتة أختى بى ، فلم تمض إلا ثلاثة أيام حتى مخضت فأجلستها على كرسى الولادة ، وكان مقدار طلقها ساعتين ، فولدت ابناً أسهل ولادة ، وأبو الجيش يقوم ويقعد ، ويذهب ويجىء ، فلما ولدت — كانت تتوقع من الولادة أمراً عظيماً — قالت لى : هذا الطلق ، قلت : نعم ، فقبلت — يعلم الله — عينىّ من الفرح ، وصاح خمارويه : أخبرينى يا مباركة بخبرها ، فقلت : وحياة الأمير إنها فى عافية ، وقد ولدت غلاماً سوىّ الخلق بحمد الله ، فوجه إلى بألف دينار ، وألح أبو الجيش فى النظر إليها لفرط إشفاقه عليها ، فاستوقفته إلى أن نقلت حوائج الولادة ، وقلت لها : يا سيدتى اضحكى فى وجهه كما تريه ، فلما دخل إليها ضحكت فى وجهه ، فتقدم بصدقة ومال كثير عنها وعن ولده).

وقالت أم آسية : (لما كان يوم الأسبوع ووقع قبل العيد بيوم واحد ، أمرت لى بخمسمائة دينار ، وحصل من أتباعها ألف دينار ، فحصل لى ألفان وخمسمائة دينار ، وخلعت علىّ ، وسائر حشمها أكثر من ثلاثين خلعة ، وحمل إلى مما أعد للعيد ثلاث موائد خاصة ، وانصرفت إلى منزلى وأرسلت إلى أختى مائدة ، ووافتنى مهنئة وقد تقاصر طولها ، فأريتها ما حصل لى من المال والخلع والطيب ، وقلت لها : يا أختى أنكرت علىّ قولى : أقرضينى ، ومن هذا كنت أقضيك ، فلا تستصغرى من كان الله مادته وعليه مدار ثقته وتعويضه) .

واكتسبت هـذه المرأة بمحلها من أبى الجيش مالا كثيراً ، وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة .

هذه الحادثة تغنى عن مائة صحيفة تكتب فى إيضاح الحساسية المفرطة بين ذوى الأرحام ، فهى تكشف بأوضح الصور ما يمور به تيار الدم فى النفوس ذوات الوشائج القريبة والأواصر الدانية ! فمن الواضح أن أخت القابلة كانت محسنة تعطى شقيقتها

ما تطلب ، فليست من العقوق بمحل يستكره ! ولكن جملة يسيرة من قولها العابث فعلت فى نفس الأخت ما تفعله النار فى الهشيم ! تلك هى قولها : (تغيظينى بقولك أقرضينى ، وإذا قرضتك من أين تعطينى) ؟ ولو كانت الأخت المحسنة تدرك حساسية الموقف بين شقيقتين من نبعة واحدة ما قالت شيئاً ! ولعرفت أن التى تقول لها أقرضينى كانت تشعر بمثل لذع النار استحياء من قولها : هبى لى !

ولك أن نقدر شعور البائسة المسكينة وهى تتحدث عن حرصها البالغ فتقول : فأدخلت يدى فى ثيابها ، وعججت إلى الله تعالى فى سرى بتوفيقى ، وكنت أدعو ، ومن حضر من أهلها يتوهم أنى أرقى !!

أو تقول : (ودخلنا فى العشر الأواخر من شهر رمضان وقد تمسكت من الإخلاص لله عز وجل بما لا يصل إليه من ساح فى الجبال خوفاً من شماتة أختى بى) .

ثم حين تقول فى النهاية : (وانصرفت إلى منزلى فأرسلت إلى أختى مائدة ووافتنى مهنئة ، وقد تقاصر طولها ، فأريتها ما حصل لى من المال والخلع والطيب ، وقلت لها : يا أختى ، أنكرت على قولى : أقرضينى ، ومن هذا كنت أقضيك ، فلا تستصغرى من كان الله مادته) .

إن قولها عن أختها : (تقاصر طولها) على إيجازه المفرط ليتحدث حديثاً مسهباً طويلا عن دقائق العلائق بين ذوى الأرحام ! وليصور لنا خبرة الإسلام الحصيفة بطبائع البشر حين دعا إلى الاحتفاء بذوى الأرحام وتقديمهم فى مجال البر والإحسان ، إذ أن وشائج الدم تفرض لنفسها حقوقاً يسمع صوتها مجلجلا فى حنايا الضلوع وشغاف القلوب ! ومثل هذا الصوت المجلجل لا يستطاع إسكاته دون عنف وإرهاق ! وأذكر أنى فرغت من قراءة كتاب (المكافأة) جميعه على فترات ، ولكن لفظتى (تقاصر طولها) لم تزالا تعتملان فى صدرى حتى حاولت التخلص منهما بتحرير هذا المقال .

الصدقة بين الكرامة والامتهان

« يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منــه تنفقون ، ولستم بآخــذيه إلا أن تغمضوا فيـه واعلموا أن الله غنى حميد » . (قرآن كريم)

سبب النزول :
أجل « لا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » .

لقد علم الله حرص النفس على المـال ، وشغفها بادخاره ، فإذا دعا داعى الإسلام إلى التصدق ، وجد كثير من الناس فى نفسه صراعاً بين الجود والشح ، فهو يود أن يستبقى كل ما لديه ، ويهوله أن ينقصه بالزكاة ، وكأنها عبء فادح قد وقع على عاتقه ، غير ملتفت إلى أنها قرض يقدّمه إلى الله ليضاعف لديه ، فإذا خاف مقام ربه وتغلب على ما فى أطوائه من صراع ، فقد يميل به الشيطان إلى اختيار الردىء الخبيث مما لديه ليكون موضع التصدق ، وفى ذلك ما يدل على أنه يحاول ألا يضحى بشىء ذى بال .

روى ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : نزلت الآية الكريمة : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد »(١) فينا معشر الأنصار ، كنا أصحاب نخل ، فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته ، فيأتى رجل بالقنو ، فيعلقه بالمسجد ، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه ، فسقط منه البسر والتمر فيأكل ، وكان أناس ممن لا يرغبون فى الخير يأتى بالقنو الحشف والشيص(٢) ، فيأتى بالقنو قد انكسر فيعلقه ، فنزلت الآية ، قال : فلو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء ، فكنا بعد ذلك يجىء الرجل منا بصالح ما عنده .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧

(٢) البسر : التمر الذى لون ولم ينضج ، والحشف : أردأ التمر ، والشيص : نوع ردىء منه .

احـــتراس :

نزلت هذه الآية فى بعض الأنصار فحسب لا فى مجموعهم الطيب الأصيل ، حيث كان القوم بالمدينة موضع الإيثار والسماح ، ولا نجد فى تزكيتهم الصادقة أبلغ من قول الله عز وجل : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجـر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعـدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم »[١].

والنفوس البشرية فى كل زمان ومكان ليست فى مستوى واحد ، فقد تجـد فى الأسرة المحدودة ذات الأب الواحد والأيام الواحدة من يشذ عن المجموع فى تصرف ينفرد به ، فلا يرجع عيبه إلا على نفسه ، ومنازعة النفس فى الصدقة جهاد يحتاج إلى عزيمة صادقة مصداقاً لقول الله : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

نفســية المحتاج :

إن الفقير المحتاج إنسان ذو شعور وإحساس ، وهو يزن ما يقدم إليه ميزاناً واقعياً ، فيدرك نوعه من الجودة والرداءة ، فإذا وجد الصدقة ذات قدر ممتاز أحس بالغبطة فى نفسه ، وعرف أن منزلته من إخوته فى الإسلام منزلة الأخ المحترم ، فيهنأ بما أخذ ، ويستمرئ الصدقة استمراء يبعد عنه مرارة الكدر ، أما إذا كانت الأخرى فسيلحقه من الهوان النفسى ما يجعل شعوره يتقد بالحسرة ، وما يعمق الهوة بينه وبين قوم هم إخوانه فى الدين والإنسانية ، وقد يؤثر مرارة الجوع على ما يحيه من الازدراء حين سياقى الفتات من أناس يعطونه الصدقة وكأنها انتزعت من جلودهم انتزاعاً ، وهنا يضيع من نفسه بعض مزايا التصدق ، لأن الزكاة مدعاة التواد والتواصل ، إذا شعر الآخذ أن من يعطيه يقدم له مثل ما يدخر لنفسه من المتاع ، فإذا تزلزل هذا المعنى فى نفسه ، عدّه خصماً يضن عليه بالنفيس الطيب ، ولا يكاد يعطيه حق الله إلا عن رهبة جازعة من عقابه ، فهو إذن لا يوده لذاته ولا يستشعر فى إطوائه أخوة الإسلام التى

---

(٢) سورة الحشر ، الآيتان ٩ ، ١٠

تجعل المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ! وهذا الانتقاص المتعمد فى العطاء نوع من الأذى الذى يمحق الثواب ، وقد قال الله عز وجل فى كتابه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم »(١).

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس بن مالك أنه قال : (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بئر (حاء) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيهما طيب ، فلما نزلت « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : يا رسول الله ، إن الله يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وإن أحب أموالى إلى بئر (حاء) وأنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عنده ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بخ ، بخ ، ذلك مال رابح ، وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه) .

نفسية المعطى :

من المتصدقين من يبذل عن سماح لا لبس فيه ، وهؤلاء هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، ومنهم من لا يستطيع أن ينكر حق المحتاج فى الصدقة ، ولكن شح نفسه يلجئه إلى شتى التبريرات المفتعلة ليقنع نفسه بالمنع ، فإذا جاء إليه محتاج يطلب من الله لديه ، قال إنه قوى الجسم ويستطيع أن يكسب من كفاحه ، وما درى أنه ما تعرض للسؤال إلا بعد ضياع جائع أجبره على السؤال ، أو قال إنه لا ينفق المال فى وجهه المشروع ، بل يبدده فى الكماليات ، ولهذا النمط من المنتحلين للأعذار المفتعلة أسلاف عاصروا الدعوة الإسلامية ، ووسوس لهم الشيطان بما صدهم عن سبيل الخير ، فقالوا — فيما حكى عنهم القرآن — « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا ، أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا فى ضلال مبين »(٢) ، وهو تبرير زائف يعلمون فى أنفسهم حقيقة خداعة ، لأن كل من تدبر فى ملكوت السموات والأرض يعرف أن الله قد خلق الغنى والفقير معاً لتنتظم شئون الحياة بمعاونة الإنسان لأخيه ، وليتخذ بعض الناس بعضهم سخرياً ، فإذا كان من قدر الفقير أن يحتاج

(١) سورة آل عمران ، الآية ٩٢

(٢) سورة يس ، الآية ٤٧

إلى المال فإن من واجب الغنى أن يسارع إلى إعطائه حق الله دون انتقاص ، لا عن تفضل يتعالى به ، بل عن خضوع لأمر واجب الأداء ، ومن التغابى المقصود ، أن يقول البخيل الشحيح : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » لأن الله عز وجل قد شاء أن أن يطعمه حقاً حين فرض له نصيباً معلوماً فى مال الغنى ، وحين جعل هذا النصيب قرضاً لله واجب الأداء ، فإذا علم الغنى أنه يعطى القرض لربه فلا استعلاء ولا تشامخ ، وإذا علم الفقير أنه يأخذ نصيبه المفروض فلا استكانة ولا خضوع .

إن بعض هذه الوساوس التى تحيك فى صدور البخلاء قد وجدت علاجها فى آيات الذكر الدافعة للبذل ، الواعدة بالثواب ، وفى السنة النبوية من الأحاديث المقنعة ما يدفع الأنفس الشح للعطاء دون احتياج إلى الخداع .

حديث كريم :

روى البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (قال رجل : لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ، لأتصدقن بصدقة ثانية ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ، فأتى (رأى فى المنام) فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، أما السارق فلعله يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله تعالى) .

هذا الحديث يحتاج إلى وقفة توضح مغزاه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يقوى دوافع الخير فى النفس ، وأن يبدد شكوك المتردد فى العطاء ، فالإنسان فى أعماقه يود أن يبقى كل شىء فى يده دون نقص ، والشيطان يساعد على أن يبخل الناس ملتمساً لهم شتى المعاذير ، فلا بد من عرض مشهد حى نابض يقضى على ما يعتمل فى بعض النفوس من بواعث الشح والتقتير ، وأى مشهد أبلغ من منظر رجل يريد أن يتصدق خفية كيلا يراه أحد ، فهو ينتظر سواد الليل ليستر إحسانه عن العيون ، حتى إذا حان موعده خرج راصداً الطريق ليضع الصدقة فى كف أول قادم عليه دون أن يتبين أحد وجه صاحبه ، وقد نفذ خطته حين قابله إنسان ما فأخذ نصيبه ، ولكن

المتصدق عليه فرح بما نال ، فتحدث فى الناس أن رجلا من أهل الخير أعطاه ، وكان الآخذ لصاً ، فجعل الناس يتعجبون أن تهبط الصدقة على لص ! وجاء النبأ للمتصدق ، فحمد الله على ما كان ، وقد وقر فى ذهنه أن الصدقة ضائعة الثواب . فحاول العودة كيلا يضيع الأجر ، ثم وقعت الصدقة فى يد زانية ، وتكرر الظن ، فثلث بالعطاء ، فوقعت الصدقة فى يد غنى لا يحتاج ، وحار الرجل ماذا يصنع ؟ فأنقذته الرؤية الصادقة من حيرته ، وتلك الأمثال نضربها للناس .

خاتمـــة موجزة :

نحن نعلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن صيانة الوجوه بالعمل هى سبيل المؤمنين ، ولكننا نعلم أيضاً أن من الناس من يحول المرض أو التسرع أو الجهل أو الزمانة بينهم وبين الكسب ، فالصدقة لهؤلاء واجب مفروض لا مهانة فيه ، لأن معطيها يلتمس أجرها من ربه حين يقرضه قرضاً حسناً ، وسيتضاعف له الأجر إذا أخلص النية ، واختار الأجود الطيب مما يبذل ، وارتاح لما أعطى ، فما استشعر غير السرور والابتهاج .

كيف سما الاسلام بالنفوس

يظن بعض أساتذة الأخلاق أن قواعد السلوك الإنسانى مستمدة من العرف العام للمجتمع وحده ، وما زالت تتطور وتتبدل متأثرة بالتجارب الإنسانية حتى رست — أو كادت — ترسو على أصول راسخة أوحى بها الرأى العام الاجتماعى دون تأثر بهداية الأديان ! وتلك نظرية براقة فى وجهها الظاهر ، إذ تعتمد على مقدمات وضيئة خادعة ، ولكنها فى صميمها الخالص لا تستند إلى منطق يستقر على أساس وطيد .

فنحن نجد فى تاريخ الجماعات البشرية أعلاماً ضرب بهم المثل فى السؤدد والنبل ، وواتهم السيادة من أنبه طريق للشرف والجاه ، حتى ليظن من يتلقف أخبارهم الذائعة أنهم بلغوا فى السلوك الإنسانى قمة لا تطاول وشأواً لا يتاح ! ثم تفحص ما يأتيك من أنبائهم المتداولة فتجد بعض ما لا يرضيك ! وتحاول أن تجد تفسيراً لذلك ، فترى أن النفس البشرية مهما سما معدنها الخلقى بحاجة ماسة إلى هداية عليا تنحدر من السماء كما ينحدر المزن على الربا الظامئة فيحيى الأرض بعد ممات !

ونحن — فى محيط التاريخ العربى — نجد بين أعلام الجاهلية أفذاذاً تفردوا بضروب من النبالة الخارقة فى مجتمعهم ، حتى سارت بأحاديثهم الركبان ، ولقد كان العربى الحر فى جاهليته يتجافى عن مواقع الملق والرياء فلا يمدح إنساناً دون اعتقاد أصيل بما يقول ، إذ أن كرامته الصريحة تأبى عليه أن يصف رجلا ما بما ليس فيه ، قادحاً أو مادحاً ! فإذا اجتمعت الألس العربية على تقدير إنسان ثم ضربت به المثل فى السؤدد والشرف والحلم ، فلن يكون هذا الإجماع أكذوبة ملفقة ، ولكنه رأى تأصل فى النفوس بروائع بارزة من أخلاق هذا السيد الماجد ، يعرفها القريب والبعيد ، حتى لا تحتاج إلى تدليل ، وهذه الروائع البارزة لا يمكن أن تتاح عفواً بلا تعب ، بل لابد من تكاليف السيادة ، وتبعات الوجاهة حتى تبلغ بصاحبها ما يريد ، إذ أن الأمر يطرد دائماً على نحو ما قال العربى القديم :

وإن سيادة الأقوام ، فاعلم　　　لها صعداء مطلبها طويل

وكان قيس بن عاصم المنقرى من أنبه السادات ذكراً ، وأخلدهم مأثرة ، فهو شاعر قوى العارضة ، وهو فارس مقدام لا يتراجع دون غنم ، وهو كريم أريحى يتدفق بالعطاء حتى لتأتى إليه الوفود من أقصى الجزيرة واثقة فى فتوته وأريحيته ! ثم هو بعد ذلك مضرب المثل فى الحلم ، والحلم جماع الأخلاق وسيدها الأمثل يحتاج صاحبه إلى ركائز من الفضائل المختلفة تؤازره وتسانده حتى يعتصم بسيد الأخلاق .

ومازلنا حتى اليوم — إذا اضطررنا إلى الاستشهاد فى مواقف التأبين عند فقد عظيم أو رحيل زعيم — لا نجد فيما نتمثل به من الشعر أفضل مما اشتهر فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى ، إذ يقول ناعيه :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

تحية من غادرته غرض الردى إذا زار عن شحط ديارك سلما

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ولا نجد فى مجال التنويه به — أفضل من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين قدم قيس إلى المدينة معلناً إسلامه : هذا سيد أهل الوبر ، ثم بسط له رداءه الشريف ، فجلس عليه تكريماً لما ذاع من فضائل كرمه وأحاديث أريحيته ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أعرف الناس بسادات العرب ، فلا يعقل أن يصف رجلا بما ليس فيه ! وكانت أريحية الكرم وهمامة النفس وعلو الهمة مما تنزل لديه صلى الله عليه وسلم أكرم منزل ، ولأجلها احتفل بقيس فى مجلسه ! وهو احتفاء سجلته كتب الحديث والسيرة المطهرة ، فحاز شرف الخلود !

وثانية نقولها فى مجال التنويه بقيس : تلك هى شهادة الأحنف بن قيس ، وكان رضى الله عنه هو الآخر مضرب المثل فى الحلم ، كما هو كقرينه قيس ابن عاصم من معادن العرب النفيسة التى ازدادت رفعة ووضاءة بنور الإسلام ! وقد قيل للأحنف : من أين أخذت هذا الحلم ؟ فقال فى مباهاة : ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقرى ، قيل له : وكيف ذلك يا أبا بحر ؟ فقال الأحنف : لقد قتل ابن أخيه ابناً له ، فأتى إليه بابن أخيه مكتوفاً يقاد إليه ، فقال فى هدوء : أذعرتم الفتى ، ثم أقبل عليه فقال فى أسف : يا بنى ، نقصت عددك ، وأوهنت ركنك ، وفتت فى عضدك ، وأشمت عدوّك ، وأسأت قومك . ثم سكت ملياً ونظر إلى من حوله فقال : خلوا

سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديته ، وانصرف الجمع وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه :

هذا الهدوء الرزين لا يتسنى لغير حليم فسيح الصدر ، تعوّد أن يكظم غيظه ، حيث لا يستطيع أقوى الأقوياء أن يسيطر على نفسه ! ولقد هال الأحنف — وهو الحليم الراسخ — أن يرى الوالد فلذة كبده تتشحط فى دمائها ثم لا يحرك ساكناً ، ولو كان المقتول ابن أخيه والقاتل ابنه لقلنا إن الرجل الداهية قد استجاب إلى نداء الدم فى مسارب قلبه ، وتظاهر بالحلم لينقذ فتاه من القصاص ، ولكن القتيل فلذة كبده ! وذلك ما راع الحاضرين ! وما جذب من الأحنف كل انتباه حتى اتخذ قيساً أستاذاً يستهديه !

هذا السيد العربى العريق بما تأثل فى نفسه من شمائل عالية صار بها موضع السيادة فى قومه ، وصاحب السيرورة فى القبائل والبطون ! كانت أخلاقه المعترف بسموها فى حاجة ماسة إلى هداية السماء ، وقد جاء الإسلام لينقذه من الظلمات إلى النور ، لأن أخلاق الجاهلية لدى السادة مع ما اكتمل لهم من عناصر الفتوة وركائز الحلم وذخائر النبل كانت فى حاجة قوية إلى من يسمو بها ؛ فهى إن اكتملت فى موضع ، فقد نقصت فى موضع ولن تكون الأخلاق كاملة تامة دون أن تتشح بقلادة الإسلام ، ولك أن تسألنى عما كان ينقص هذا الشريف الحليم الماجد من عناصر الإنسانية النبيلة التى كملت لديه بهداية محمد صلى الله عليه وسلم ، ولى أن أجيب بما يرضيك :

كانت الغيرة على النساء فى المجتمع العربى من أعنف العواطف البدوية وأحدها اضطراماً ، فما تسقط فتاة فى يد مغير حتى يتلظى أهلوها حقداً وحفيظة ، وحتى يعبئوا أكبر القوى لإنقاذها ، وقد تشتعل الحرب بين قبيلتين مراراً بسبب سبية أسرت فى غيبة ولى أمرها ، وكان مما امتحن به قيس بن عاصم أن أغار فارس من قبيلة (يشكر) على خيام بنى سعد ، فسبى منهم نساء ، وساق أموالا ، وكان فى النساء (رميم بنت جندل) وهى ابنة أخى قيس بن عاصم ! فجاء الخبر فى تميم بأن ابنة أخيه قد سيقت أخيذة فى بنى سعد ، وأصبحت حليلة لفارس يشكرى يقال له عمرو ! فتعاظم قيساً الأمر ، وغضب على بنى سعد أن خارت عزائمهم دون العدوان فلم يدفعوا المغيرين حتى اغتصبوا النساء ، وسلبوا الأموال ، ثم أعد عدة الرحيل ، وسار مغيظاً إلى

بنى يشكر يسألهم رد الأخيذة ، فقابله صاحبها بهدوء وتحفظ ، وأعلن أنه اصطفاها لنفسه عن اختيار ورضاً منها ، وله أن يسألها ، فإن رضيت مفارقته قدمها إليه طائعاً ! واستمع قيس إلى صاحبه فوقع حديثه منه موقع الرضا ، واطمأن إلى أن ابنة أخيه لن تخذله فى مشهد القوم ، وسترجع معه إلى ديارها مصونة مكرمة ، ولكنه فوجئ بها تختار عمراً اليشكرى وتفرى جبينه بالعرق ، ثم ارتحل مغضباً حنقاً تهتاج فى صدره بواعث الثورة والحفيظة ، وآلى على نفسه أن يئد كل بنت تولد له كيلا يضطر إلى أن يقف هذا الموقف الكريه ، ورأى الناس سيد تميم يئد بناته ، فاتبعوه بغير إحسان ، حتى كانت تميم صاحبة السبق فى هذا المضمار ، وبين خيامها وئدت الكثرة الكاثرة من البنات ! ولم لا وقيس يئد فى حفيظة واضطرام ...

لم يكن قيس فى أطواء نفسه يحس بشاعة جرمه ! فهو يرى الوأد كرامة لقبيلته وعزة لنفسه ، وكان له من السيطرة والرئاسة ما جعل قومه يعتقدون أنه يأتى فضيلة لا رذيلة ، وقد كان تقدمه فى السيادة والشرف المتعارف عليهما بين القبائل مما يجعل جريمته محمدة ، إذ أن العرف الاجتماعى قد جرى حينئذ على قبول هذا الجرم ، فعده عملا مشروعاً إن لم يكن مستحباً مرغوباً !! وإن شذ عن هذا العرف السائد أفراد رزقوا سلامة النظرة ، وقوة البصيرة ، فقد روى التاريخ أن (صعصعة بن ناجية) جد الفرزدق كان يستهجن صنيع قيس ، ويراه سبة نكراء ، وقد بادر فافتدى إحدى بناته من الوأد ، واشتراها كى تصبح فى كنفه دون أن تقع أخطاؤها — إن حدثت — على قيس بن عاصم ! وهى همامة نفس تنبئ عن نظر بصير !

ثم جاء الإسلام وأشرق نوره فمنع الموءودة أن تقتل وسأل عنها : بأى ذنب قتلت ، واضطر قيس بن عاصم أن يراجع نفسه فيما صنع ، وأخذت هداية الدين تكشف عن العيون غشاوات كثيفة حجبت أشعة العقل ورانت على الفطر السليمة فطمست لألاءها ، واحتاجت إلى من يزيل عنها الضباب ، فأخذ بنو تميم يتنبهون إلى ما جرهم قيس إليه من شطط جموح ، ورأى قيس أنه كان نائماً وأن الإسلام قد أيقظه من ضجعة طويلة الرقاد ، فتعاظمه ما أسلف من جرائر ، ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً ، فهش له صاحب الخلق العظيم مرحباً ، ثم رأى قيس أن يعترف بزلته فى حديث دار بينه وبين عمر بن الخطاب ، فقوبل بالاستنكار ، وأشار عليه عمر أن يعتق رقبة عن كل واحدة وئدت ! ومع أن الإسلام يجبّ ما قبله ، فقد أراد

الفاروق بذلك أن يريح قلب قيس من خواطره ، والرجل سيد واسع الثراء وفى عتق الرقاب ما يزيل الشكوك ، ويطمئن النفوس .

ولقد تناقلت الكتب حديث قيس بن عاصم عن الموءودة فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن ينقله كما جاء فى مصادره إيثاراً لبلاغته ، وتسجيلا لموقف دقيق تتخذ منه العبرة البالغة إذا وجدت المعتبر .

(حدث الكلبى قال : وفد قيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله بعض الأنصار عما يتحدث به فى الموءودات اللائى وأدهن من بناته فى الجاهلية ، فأخبر أنه ما ولد له قط بنت إلا وأدها ، ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة فى البنات ، فما ولدت لى بنت إلا وأدتها ، وما رحمت منهن موءودة إلا بنية كانت لى ، ولدتها أمها وأنا فى سفر ، فدفعتها إلى أخوالها فكانت فيهم حتى قدمت ، فسألت أمها عما تم فى حملها ، فأخبرتنى أنها ولدت ولداً ميتاً ...

ومضى على ذلك سنون ، حتى كبرت البنت ويفعت ، وكنت عند أمها ذات يوم فرأيتها ، وقد ضفرت شعرها ، وجعلت فى قرنها شيئاً من خلوق ، ونظمت عليه ودعاً ، وألبستها قلادة جزع ، وجعلت فى عنقها مخنقة بلح ، فقلت : من هذه الصبية ؟ لقد أعجبنى جمالها ولبسها ، فبكت وقالت : هذه ابنتك ، كنت قد أخبرتك أنى ولدت ولداً ميتاً ، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ ، فأمسكت عنها حتى شغلت أمها ، ثم أخرجتها ، فحفرت لها حفرة ، وجعلتها فيها ، وهى تقول : يا أبه ! ما تصنع بى ؟ فجعلت أقذف التراب عليها وهى تقول : يا أبه ، أمغطى أنت بالتراب أم تاركى ، أنت وحدى ومنصرف عنى ؟ وكم حاولت أن تزيح عن لحيتى ما علق بها من أثر التراب ، بيد أنى كنت أقذف التراب عليها وأهيله ، حتى واريتها وانقطع صوتها ، فما رحمت أحداً ممن وأدت غيرها ، فدمعت عين النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : إن هذه لقسوة ، إن من لا يَرحم لا يُرحم) .

هذا ما ذكرته الكتب من أمر قيس بن عاصم ، ولو كان من سوقة الناس ، لقيل عنه أعرابى قدم غليظ القلب لا يبالى ماذا يصنع ؟ ولكنه كان رجلا ذا مجادة ، يهتز للأريحية ، ويسعى للمحمدة ، وقد ساد قومه بمآثره ، وجرى المثل بمحامده حتى

صار قدوة رجل عظيم كالأحنف بن قيس !

وإنسان يضعه الناس هذا الموضع لا بد أنه كان ذا ذخائر قيمة من الفضائل ؛ فإذا اقترف وأد البنات مع ذلك فقد قدم الدليل على فساد ما اصطلح عليه العرف الاجتماعى العام ، ونادى بأفصح بيان بأنه لا بد لدنيا الناس من هداية الله ، وقد عذره المنصفون فيما كان يأتيه بعد ، إذ أقلع عنه واستغفر ربه ونبيه ، وبذلك أسدل الستار على ماض يتأسف على مآسيه ، ويود أن يمحوه الحاضر بالندم والمتاب ، فظلّ سيد القوم فى إسلامه كما كان السيد فى الجاهلية ، ولكن سيادة الإسلام كانت نقية ساطعة ، وسيادة الجاهلية كانت ذات وضر كريه .

وفد قيس بن عاصم ذات يوم على أبى بكر الصديق ، فسأله أن يصف نفسه ، فقال : أما فى الجاهلية فما هممت بريبة قط ، ولم أر إلا فى خيل مغيرة أو نادى عشيرة ، أو حامى حرمة ، وأما فى الإسلام فقد قال الله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » ، وموضع الشاهد من هذا القول أن الرجل لم يكن يعتد الوأد ريبة ، ولم يجل بخاطره أنه جريرة تلطخ فاعلها ، ولو فطن إلى ذلك لتحاشاه ، فهو فى صميم نفسه طالب سؤدد وعاشق أمجاد ، بين أناس صرحاء لا يصفون فرداً بغير ما يستحق من الخلال ، وقد تغنى قيس بمآثره فيما روى عنه من الشعر بديوان الحماسة ، فبرأ خلقه من الدنس ، وعقله من الأفن ، وفاخر بأرومته الأصيلة ، كما باهى ببلاغته قومه وشيعته ، ثم تمدح بأريحته العالية حين يحفظ جاره ويحميه دون أن يكلف نفسه البحث عن بعض مثالبه ، فتلك سبة ترديه ، وكان مما قال :

إنى امرؤ لا يعترى خلقى ... دنس يفنده ولا أفن

من منقر فى بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن

لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن

ولعمرى إن قال الرجل هذه الأبيات فى الإسلام فقد صدق ، أما إذا سبقت بها الجاهلية ، فقد كان فى حاجة إلى من يقول له أن عقلك لم يبرأ من الأفن بعد ، وستجد سلامته الصحيحة حين تتخلق بآداب القرآن وتستمع مطيعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كاتب فاضل يتحدث عن الاسلام

يفرح القارئ حين يقرأ كتاباً منصفاً لأحد المخلصين من الكتاب ، فى كل لغة وعن أى دين ، لأن خلق الإنصاف ينبئ عن معدن ثمين ، ويوحى بسمو نادر فى الاتجاه الإنسانى ، وما قامت الحروب وتطاحنت الجيوش إلا حين فقد الإنصاف من النفوس ، وتغلبت مساوئ الجحود والنكران على الملأ ، فأصلتهم ناراً حامية الأوار ، أما إذا قدر للإنصاف العادل أن يسود فلن تجد بين الناس سوى الطمأنينة والاستقرار .

وقد كان المنصف الغيور الأستاذ واصف غالى — طيب الله ثراه — وزيراً للخارجية المصرية فى عهد عدة وزارات مختلفة ، وكان عظيم الوطنية ، عالى الروح ، صادق النظرة ، وقد ضحى بنفسه حين قام بأعمال جريئة ضد الاحتلال البريطانى حتى حكم عليه بالإعلام ، ولكن خوف الاحتلال من اندلاع لهيب الثورة قد أرجأ التنفيذ ، ثم كتب للرجل الباسل أن يتبوأ أعظم المراكز الدبلوماسية فى بلده ، وأن يكون مجال التقدير بين الزعماء والأدباء حتى أجمع مجمع اللغة العربية بمصر على انتخابه عضواً ينضم إلى الخالدين من رجاله ، ومع تهالك الكبراء على عضوية المجمع ، فقد أباها واصف غالى وأرسل استقالته ، لأنه يؤثر العمل فى صمت دون ضجيج ..

وقد كانت اللغة الفرنسية لغة الكاتب الثانية ، إذ درس آدابها دراسة مستفيضة ، وقرأ فى كتبها ما يسطره الغلاة من رجم بالغيب حين يرجفون بالعرب والإسلام ؛ فينسبون كل تأخر فى الدول العربية إلى الإسلام ، ويعلنون أنه دين صحراوى لا يعيش فى القرن العشرين ، حيث المدنية المزدهرة ، والحضارة المفكرة !

وقد قرأ الأستاذ الراحل كثيراً مما يأفك به القوم ، فكتب الفصول الضافية ، والكتب المتتابعة باللغة الفرنسية فى إنصاف العرب والإسلام ! ليقرأها هؤلاء المغرضون فيعرفوا وجه الحقيقة فيما يهرفون به من ادعاء ، ولا شك أن آثار الرجل الفاضل قد بلغت بعض ما يريد من تصحيح الخطأ ، وتقويم النظر ، إذ أيدت بالأدلة الدامغة والروايات الصحيحة ، والأمثلة الناطقة بالحق ، مما لا يجرؤ عاقل على المماراة فيه .

وكان من الأمور السارة أن يترجم بعد وفاته إلى اللغة العربية كتابه الجليل (تقاليد الفروسية عند العرب) ليشهد به قراء الأدب العربى إحدى صحائف الحق والخير والجمال ، يسطرها قلم نزيه منصف ، سمع اللغو الآفك فدحضه بالحق الصريح .

والحديث عن الفروسية مجال صادق لإنصاف الإسلام ، فقد ألفت كتب أوربية كثيرة تقدس الفروسية الغربية وتراها مثالا عالياً للخلق الأوربى ، لا يلحقه مثال آخر لدى الشعوب المختلفة :

هكذا تواطأ أكثر الكاتبين عن الفروسية منكرين أثر العرب والإسلام فى خلق الفروسية المترفعة النبيلة ، وجاحدين أثر الشرق المضطهد فى تقويم الغرب وتهذيبه ! مع أن التاريخ الصادق للفروسية الأوربية (يعلن أن فروسية العرب كانت فى نشأتها الأولى فروسية جبروت وإقطاع ، إذ يعمل كل نبيل على المحافظة على سلطانه فيضم حوله نفراً من الفرسان لا هم لهم غير الاهتمام بشئون النبيل ثم تطورت الفروسية) إلى تقليد دينى كنسى حين خرجت كتائب الحروب الصليبية تباركها الكنيسة المتعدية ! !

وفى كلا العهدين لم تكن للفروسية الغربية آداب خلقية تتجه إلى النبل والتسامح والوفاء والشرف !حتى وقف الأوربيون على شمائل العرب والمسلمين ، فرأوا لدى فرسانهم من قصص المروءة والبطولة ، والعفة والتسامح ، ما لفت أنظارهم إلى الفروسية الحقيقية ، فهى فى لبابها الخالص فروسية خلق وآداب لا همجية غابات ووحوش ! ! هنا كان المسلمون أصحاب الفروسية الحقيقية ، وأساتذتها النبلاء الذين جعلوا البطولة الحقة بطولة شرف ووفاء لا بطولة غدر ودماء .

بهذه الحقيقة الصريحة تنطق فصول الكتاب مؤيدة بالشواهد المواثل ، وقد أحسن الأستاذ واصف غالى التعبير عن هذه الحقيقة حين قال (ص ٢٦) :

(إن هؤلاء الذين كانوا يلقبونهم بالكفار ممن كانت الكنيسة تأمر بمقاتلتهم دون هوادة (يريد المسلمين) إنما هم أبطال كرام فى معاملة الخصم ، سرت إليهم الرأفة وأصبحوا أشد إنسانية ، وهكذا تعلم أولئك الفرسان فى مدرسة العرب أن يكونوا سمحاء كبار النفس فى مخاصمة العدو . لقد رأوا كيف يرعى العهد أولئك الذين لم يتلقوا المعمودية ، فتعلموا أن يصونوا جميع عهودهم لا تلك العهود التى قطعوها رسمياً وأقسموا على الوفاء بها فحسب ، ورأى الفرسان لدى أعدائهم ذلك الازدراء العيوف

للثروة والغنى ، ولمسوا فيضاً من كرم ضيافتهم ، وجوداً لم يتخيلوا مثله ، فتعلموا أن يغدقوا فى صدقاتهم وأن يسخوا فى حياتهم ، ورأوا رعاية العرب لحرمة النساء ، بل ولحرمة أقلهن شأناً — أو لم تصبح بعض الجوارى أميرات — فتعلموا الشهامة والرقة لا نحو السيدات النبيلات فحسب ، بل نحو النساء جميعاً على اختلاف طبقاتهن ، وهكذا تهذبت أخلاق العصور الوسطى الجافية وتطورت عندما اتصلت بالعبقرية العربية ، فلانت ولطفت ورقت وسمحت . وذلك فى عبارة موجزة هو أثر العرب فى الفروسية الغربية) .

وإذا كان عماد الفروسية العالية هو النبل الخلقى الأصيل فإن الأستاذ واصف غالى قد بسط من وقائع التاريخ ما يؤكد نبل الفروسية الإسلامية ، فضرب للأمثلة على ذلك ببعض ما ذاع واشتهر فى سجلات العرب والإسـلام ، فهو يذكر مثلا سماحة الأمـير الأندلسى عبد الرحمن الثالث حين أذن لعدوه (سافن) أمير ليون أن يفد إلى قرطبة فيستشير أطباءها المسلمين فى علاجه ثم يرجع معززاً محفوفاً بالرعاية الإسلامية فى حين يستضيف ملك قشتالة المسيحى أبا سعيد ملك غرناطة ، فتعجبه جواهره ، وإذ ذاك تدفعه الأنانية اللئيمة إلى قتله غدراً وهو فى ضيافته ليستولى على ذهبه وفضته ؟؟

ثم يستطرد المؤلف إلى موقف ملك مراكش المسلم من الملك الفونس الحكيم حين استغاث به مستنصراً ، فعبر إليه الملك المراكشى البحر ملبياً نداءه عن شرف وهمامة ، وقد أراد الفونس أن ينزل عن منزلة الصدارة والشرف لهذا الباسل الذى خف إلى نجدته ، فقال له الملك المسلم ما نصـه : (إن لك مجلس الشرف ما دمت مغلوباً على أمرك ، ولقـد أتيتك لأعينك على تأديب عـاق غـادر ؟ فتى أديت هذا الواجب وأصبحت قوياً مهاباً ، نازعتك كل شىء وناصبتك للعداء من جديد) .

ولا يترك المؤلف موقف الأريحيـة والبطولة لدى غلوة الإسـلام فى الحروب الصليبية ، إذ يتحدث فخوراً عن موقف نور الدين محمود حين امتنع عن انتهاز فرصة موت (بودان) فـلم يشأ أن يستعيد عسـقلان إذ ذاك قائلا : (إنى لو فعلـت ذلك لأهدرت قيم الإنسانية ، واستهنت بالآم شعب يبكى مولاه ، ولأخللت بشرفى الحربى حين أهاجم منكوبين لم يتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، ثم يقرن ذلك بما فعله ريتشارد قلب الأسد عند ما دفعه جبنه إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا سنة ١١٩١ رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحرياتهم ! !

وقارئ كتاب الأستاذ واصف يلمس الروح الإسلامية لدى أبطال مسلمين لا يدرى كيف بلغت مثاليتهم الرفيعة هذا المبلغ من التعاطف الإنسانى ! هذا الذى ماتت لديه رغبات الانتقام والثأر وعاشت معه نوازع الصفح والإغضاء ! وشيوع هـذه المثالية النادرة بين المسلمين فى الشرق العربى وفى الغرب الأندلسى ، دليـل لا يخطئ على أن معين الهداية لديهم قد جمعهم على أندر خصال المثالية والنبل ..

وإذا كنا نعرف ما اقترفه الصليبيون حين فتحوا بيت المقدس من استئصال العجزة من النساء والأطفال والشيوخ حتى كانت الخيل تخوض إلى بطونها فى مسيل من الدماء ، فإننا نقرن هذه الوحشية الدنسة بنماذج مختارة مما سطره الأستاذ واصف ، وهى من التيقن والثبوت بحيث اعترف بها كبار الخصوم من مؤرخى الغرب المسيحى ، ولعلهم كانوا يمسحون عرق الخزى من وجوههم حين يقرنون توحش فرسانهم النصارى بسماحة المسلمين العادلة ،او أصاخوا إلى الحق مجرداً عن الأهواء والظنون .

ففى ميدان الحروب الصليبية — نجد من الأمثلة الكثيرة — صلاح الدين الأيوبى يظهر روح التسامح نحو خصيمه ريتشارد قلب الأسد حين يسمع بمرضه ، فيرسل إليه ما طلبه من الدواء والكمثرى والخوخ والثلج وهو يهذى فى سكرات الحمى ، متناسياً ما صنعه بأسرى عكا من قبائح ، كما نجد الملك الكامل يقابل قائد الحمـلة الصليبية على دمياط (جان دى برين) فيجده متفطر القلب من البكاء ، وإذ ذاك يسأله عن سر بكائه فيقول فى ضراعة : من حقى يا مولاى أن أبكى وقد رأيت الشعب الذى عهد الله به إلىّ يهلك من البرد والماء جوعاً ، فيتأثر الملك الكامل ويرق راحماً ، ثم يأمر بإرسال ثلاثين ألف رغيف للصليبيين ، ويفعل بضعة أيام متتاليات ! !

أما فى ميدان أوربا بالأندلس فيذكر الأستاذ واصف غالى عنه من نوادر الوفاء والنبل ما يفوح عبيره فى صفحات الكتاب دالا على كمال المروءة ، ونبالة الأريحية ، ومن ذلك على سبيل المثال ما روى عن المنصور بن أبى عامر حين حضر يوماً فى شعب ضيق فرقة كبيرة من جنود الأسبان وأصدر إليهم الأمر بالتسليم ، ولكنهم صمموا على الهلاك والاستئصال دون أن يجيبوا إلى الاستسلام ! فأمر المنصور فى مروءة أن يفتح لهم الطريق ، رافعاً عنهم الحصار ، مؤثراً فى همامة نادرة أن يرسل لعدوه نجدة كبيرة ، على أن يأمر باستئصال هؤلاء ، وقد وقعوا فى المأزق الكريه ، ولقد حكى

المؤرخ الأسبانى موسدن عنه أنه كان يدمر المدن بالحديد والنار حين تنهض لمقـاومة جيوشه ، ولكنه لم يسمح بأهون شر يحيق بمدينة تستسلم دون عصيان !

أما موقف حاكم قرطبة المسلم من زوجة ألفونس الثامن فقد كان نادراً حقاً ! إذ أنه اتجه إلى غزو طليطلة رداً على مكيدة ألفونس فى حصار بعض المدن الإسلامية ، وندع الأستاذ واصف يتحدث عن هذه الخارقة النادرة ! إذ يقول عن القائد الشهم :

(ودار فى حذر حول معسكر المسيحيين وأمعن فى السير حتى بلغ أسوار طليطلة حيث كانت الملكة (بيرانجير) تقبع فى عقر دارها وتعوزها وسائل المقاومة ، فخطر لها وهى فى تلك الضائقة أن ترسل إلى القائد العربى من يهيب به أنه لو كان يريد مقاتلة المسيحيين فليذهب إليهم تحت أسوار العريجة حيث ينتظره ، أما أن يشن حرباً على امرأة فذلك ما لا يجدر بفارس باسل كريم أن يقدم عليه ، ونجحت خطتها فاستسلم القائد العربى المدقق إزاء هذا الدفاع الغريب ، واعتذر عن خطئه ، وود لو يحظى بتحية الملكة قبل رحيله ، فطلعت عليهم (بيرانجير) وسط حاشيتها فوق الأسوار ومرّ أمامها الفرسان العرب وهم آخذون فى الرحيل ، وكأنهم فى مباراة ، بينما كان فى هذا الوقت نفسه وفى أثناء هذا الاحتفال الودى قد استولى ألفونس على قرية العريجة) .

هذا ومثل من محيط يثبت نبالة الفروسية الإسلامية فى مضمار الحروب ، أما ميادين الفروسية الأخرى فقد بلغ بها فرسان الإسلام مبلغاً ما زال مضرب المثل فى صحائف التاريخ ! وإذا كانت فروسية أوربا ترى احترام المرأة وتقديرها أنبل ضروب الفتوة والأريحية ، فلننظر مع الأستاذ واصف غالى إلى مكانة المرأة فى الإسلام :

لئن كان إنصاف الإسلام للمرأة مما يفهمه دارس الشريعة الإسلامية بوضوح ، فإن أعداء الإسلام من غلاة المتعصبين يحرفون الكلم عن مواضعه ، إذ يزعمون أن الإسلام مصدر تأخر المرأة وانحطاطها ، وقد اضطر الكاتب إزاء ذلك أن يذكر الدين المفترى عليه قد منح المرأة منذ القرن السابع الميلادى حقوقاً وامتيازات ما زالت أوربيات القرن العشرين ينزعن إليها ، إذ أن المسلمة فى شريعة الإسلام أهل أن ترث وتشهد فى القضاء ولها أن تزاول التجارة فتبيع وتشترى وتوصى دون حاجة إلى رضا الزوج .

ثم أصاب المؤلف مقطع الصواب حين قال (ص ١٥٤) :

(ولكنا ينبغى أن نعترف بأن ما ينسب إلى الإسلام من مسئولية تأخر المرأة ، ليس كله من قبيل الخطأ ، ألا نخالط هنا بين الشريعة الإسلامية ، وبين التأويلات المغرضة المشئومة التى تفتقت عنها عقول الناس فى عصور الفساد والانحطاط ، فقد ظهر التطبيق الخاطئ على المبادئ ، وقدم العرف السقيم على تعاليم القرآن ، ومن هنا راح الناظر إلى العادات المنحرفة يتهم الدين زوراً وبهتاناً) .

وهذا كلام صريح يدمغ الذين يحكمون على المسلمين ببعض أعمال الجهلة من المنتسبين إلى الدين دون الرجوع إلى مصادر الإسلام الصحيحة من كتاب وسنة وإجماع وقياس ، وقد كرره المؤلف بعبارات مختلفة تزيد دفاعه المنصف قوة ورسوخاً ، وكان من أصوب ما قاله فى ذلك (ص ١٤١) :

(ولما كان الرجل هو الأقوى فقد استسلم لغرائزه الأمارة بالسوء ومضى فى عصور الانحطاط يردع ويذل تلك التى كان من حقها عليه أن تصبح رفيقته ، وواصل ذلك حتى جعل منها كائناً يقل عنه قدراً ، لا شخصية له ولا لون من ألوان الكرامة ، وحينما نبه الرجل صوت ضميره يؤنبه على جوره وطغيانه تسلح بالكتاب الشريف ، فطفق يؤول ويعلل ويحلل ويقسو على النصوص فى تفسيرها ليثبت أنه يصدع بأمر رسول الله ، وهكذا حدث يوم راحت أوربا تتساءل عن تخلف المرأة المسلمة أن كان الجواب معداً ، وكان من البساطة بحيث أقرته فى حماس : جواب يزعم أن الإسلام هو السبب الوحيد فى انحطاط المرأة وتخلفها ، وذلك لما يتيحه للرجال من تعدد الزوجات ومن الطلاق وما يفرضه على النساء من الحجاب والانزواء) .

وكان هذا الإجمال السريع بحاجة إلى تفصيل كاشف ، فكتب الأستاذ واصف غالى فصولا قوية تتحدث عن المرأة كما اعتبرها القرآن ، مؤيداً أقواله بأحاديث الرسول وأحكامه الثابتة بالسنة الصريحة ، وقد بسط مسألة تعدد الزوجات بسطاً عادلا يعرفه فقهاء المسلمين ويشهدون بصحته دون نقد ، ثم تعرض للطلاق فى الإسلام موضحاً أسباب مشروعيته وطرق تلافيه إذا وجد للتلافى العادل مذهب معقول ، ولم يغفل القول عن الحجاب فى الإسلام ، ضارباً الأمثلة بما وقع من أمثال عمر وعائشة ، والجديد علينا معشر المسلمين فى ذلك هو المقارنات اللطيفة التى عقدها المؤلف بين

المرأة المسلمة والمرأة الفرنسية فى القرن الثانى عشر ، فقد نقل من تقاليد المجتمع الأوربى إذ ذاك ما يندى له الخلق خزياً ! أجل نقل الأستاذ واصف عن الكاتب الفرنسى مازوى مثل قوله (ص ٩٠) :

(كثيراً ما تذكر قصص الفروسية أن العرف كان يقضى بأن تعدم المرأة أو الفتاة التى تتهم بسوء السيرة ، ولقد كان من النافع فى أثناء القرن الثانى عشر إلى الرابع عشر وهى عصور اضطراب وانحلال فى العائلة — أن يوضح الآباء للأبناء عبرة ذلك العقاب الذى خص به الأجداد الحب الآثم ، ويبدى المؤرخون والشعراء أساهم وحسرتهم على حياة ربات العصور المقحلة ، فهنا فتيات يتبعن عشاقهن إلى خيامهم ، وهناك سيدات عريقات يستضفن فرساناً ويصلنهم كلما أغفى أزواجهن ، ولقد كانت تتردد فى كل مكان أغنية تقول : (تباً للزوج الذى يدوم شهراً أو شهرين طويلين) .

ثم لينقل بعد عدة سطور عن الكاتب الفرنسى (ب ماير) قوله : (كان التدليك أثناء الرقاد عنصراً من كرم الضيافة قديماً ، وكانت شئون الضيافة من نوم واستحمام متروكة للنساء ، ولكننا نستطيع أن ندرك كيف أدت تلك الحفاوة التى كانت فى الأصل عناية صحية خالصة إلى العبث فى مجتمع كان أقل من مجتمعنا تحرجاً إزاء بعض الأمور) .

والسؤال الذى يمكن أن نوجهه إلى المسيئين إلى الإسلام باتهامه الصارخ بظلم المرأة من ناحية الحجاب : أيهما أشرف للمرأة : أن تحتجب عن الأجنبى المتوقح ؟ أم تقوم له بالتدليك والاستحمام كما كان ذلك تقليداً تتبعه نساء القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر دون استحياء !

وفى مجال الاستشهاد بعظمة المرأة العربية من جاهلية وإسلامية أفاض المؤلف الكبير فى سرد أمثلة ذائعة عن أم سيار ، وليلى العفيفة ، وبهيثة بنت عوف ، وزينب بنت محمد ، وأسماء بنت أبى بكر ، ثم يمضى باستشهاده إلى مضارب الخيام فى القرن العشرين ، فينقل عن شهامة المرأة العربية فى الصحراء ما سجله مدونو الرحلات من الأوربيين ، وكم كان جميلا منا أن نقدم للقراء بعض هذه النوادر الرائعة فى دنيا البطولة والشرف والكرم والأريحية للمرأة الإسلامية حديثاً وقديماً ، ولكن ضيق المجال يدعو إلى التنويه الموجز دون التحليل المقنع ، وفى كل ما قدمه كتاب الفروسية ما يجب أن يقرأه أبناء الإسلام فخورين .

أما الحديث عن الوفاء بالعهد والكرم وحماية الضيف ، فتلك ثلاثة فصول قد ابتدأت بصفحة ٢١٠ إلى صفحة ٢٨٢ ، وكل سطر من هذه الصفحات جدير بالقراءة إذ هو يضيف إلى الفائدة العلمية لذة مشوقة حين يروى طرائف الشجاعة والكرم والعفو والمروءة لدى العرب فى الجاهلية والإسلام ! ويضرب الأمثلة بروائع حنظلة ابن عوف وامرئ القيس وحاتم وحاجب بن زرارة وهانئ بن مسعود وكليب فى الجاهلية ، وبمواقف على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن جعفر وابن عباس وعبد الملك بن مروان والكميت الأسدى ومعن بن زائدة والرشيد والمعتصم وسواهم من أعلام التاريخ ! وهى طرائف مغرية تطلب لذاتها حتى لدى من لا يعنون بربطها ربطاً وثيقاً بأخلاق الإسلام ، فكيف إذا كانت فى حقيقتها الأصيلة استجابة لدين فاضل يسمو بالخلق ويحث على الرحمة والعفو والإيثار !

لقد برهن المؤلف الكبير على إخلاصه العظيم للحقيقة فى ذاتها حين قدم كتابه المنصف لقراء اللغة الفرنسية ، فآتى أكله ، وبلغ بعض ما يريد من تصويب الخطأ ومناقشة الحجة ، حتى قال عنه الدكتور طه حسين كلمة الحق صريحة مخلصة ! إذ أعلن فى مقدمة الطبعة العربية مثل قوله :

(لقد قرأ المنصفون من الغربيين هذا الكتاب فأصلحوا من آرائهم ، وترجمه الأستاذ أنور لوقا ترجمته هذه المثقفة ، وسيقرؤها العرب فيعرفون أن صاحب هذا الكتاب لم يكن كما كان يظن بعيداً عن اللغة العربية وآدابها ، وإنما كان قريباً منهما أشد القرب آلفاً لهما أحسن الإلف وأبقاه ، وأنه قد أبلى فى خدمة الإسلام والعروبة بلاء لا يحسنه إلا أولو العزم والإخلاص فى حب الوطن ، إخلاصاً لا تشوبه شائبة من إيثار للنفس ، أو رغبة فى الغناء ، أو حرص على الاعتراف بالفضل) .

ومما لا شك فيه أن نفراً كثيراً من قراء العربية قد قرءوا الكتاب كما توقع الدكتور وقد عرفوا أن المؤلف من أولى العزم الصادق ، وقد أبلى فى خدمة العروبة والإسلام بكتابه أحسن البلاء ! ولعلنا بمقالنا هذا المتواضع نجزيه إنصافاً بإنصاف !

صورة من سماحة الاسلام

يقرأ المؤمن المتدبر قول الله عز وجل : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون » ، فيستشعر إجلالا مهيباً لما يوحى به هذا النص الكريم ، فهو فى نبله الإنسانى يشف عن سماحة حميدة تتسع حتى تشمل المناوئين من أعداء الدين . وإن لنا فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول وسيرة الصفوة من قادة الإسلام لنماذج كثيرة تنحو هذا النحو الرائع ، وتسمو بالمشاعر المسلمة إلى أفق إنسانى ودود ، ولم تقتصر هذه السماحة البالغة مع أهل الكتاب عن أن نجادلهم بالتى هى أحسن وندعوهم إلى كلمة سواء بيننا وبينهم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، بل شملت غيرهم ممن لا يرجون لقاء الله وكذبوا بما لم يحيطوا به حتى ليدعونا الكتاب العزيز أن نبرهم ونقسط إليهم إن الله يحب المقسطين !! .

وقد أفاض الكاتبون من دعاة الإسلام فى إيضاح هذه الصفحة الوضيئة من صفحات الإسلام بما لا يدع مزيداً لمستزيد ، وأنا هنا لا أحاول أن أكرر معاداً ألفته الأسماع واطمأنت إليه العقول ، ولكنى أعرض على ضوء هذا الهدف المشرق سيرة أديب صابئ من عبدة الكواكب ، وسعته سماحة الإسلام عن صدر رحب ، وبشر متهلل ، فبلغ فى دنيا الأدب — كتابة وشعراً — وهو يومئذ عربى يقتدى بعذوبة القرآن وسلاسته — مكانة رفعته إلى أسمى المراتب ، وهيأت له أن ينوب عن الوزير فيما يصرف من مهام ، ويقرر من شئون ، وكم فى تاريخ الإسلام من أمثال له وسعتهم إنسانيته العادلة ، فبلغوا الأوج الشاهق دون أن تطمس لهم كفاية مقدورة ، أو يجحد لعبقرياتهم فصل ملموس !!

وإذا كان كل هؤلاء من أهل الكتاب فإن العجيب حقاً أن يصل إلى هذه المنزلة فى دنيا الإسلام صابئ لا يعترف المسلمون بشرعية دينه ، حتى لقد حاول المأمون أن يرجع تعاليمهم إلى وحى سماوى حرف فيه الكلم عن مواضعه فلم تسعفه عباداتهم وطقوسهم بما يريد ! إن العجيب حقاً أن يصل أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ

الحرانى إلى مثل هذه المكانة فى دنيا بنى العباس ، وبغداد يومئذ حاضرة الدنيا وعاصمة الإسلام .

ونحن حين نبحث عن الصابئة فى القرن الرابع الهجرى — عصر أبى إسحاق لانتلمس تعليمها مما كتبه الكاتبون عنها فى القرن العشرين ! ! فأكثره مشاهد شخصية لباحثين متجولين رحلوا إلى أماكنهم المتفرقة فى العراق ، فأخذوا من تعاليمهم المستحدثة وأوضاعهم المستجدة ما حسبوه ديناً أصيلا للصابئة ! قد انحدر إليهم من أزلهم السحيق ولكننا نرجع إلى ما كتب عنهم أيام أبى إسحاق أو بعده بقليل فنجد مؤرخى الملل والنحل قد جعلوهم فرقتين مختلفتين ؛ فرقة تقول : إن خالق الكون هو الله سبحانه وتعالى ، ولكنه خلق الكواكب كالشمس والقمر والنجوم لتكون قبلة للدعاء ومركزاً للصلاة ، فهى دلائل وجوده ، ووسائل نفعه وضره ، وفرقة ثانية ترى أن الله خلق الكواكب وحدهافقط ، ثم تركها تخلق ما أرادت من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وهى المدبرة لما فى الكون من صحة ومرض ، وخير وشر ، وعلى البشر تعظيمها وإجلالها ، لأنها الآلهة المدبرة المتصرفة والفرق بين الفرقتين واضح ، إذ أن الأولى تنسب الخلق والإيجاد للأشياء لله ، والثانية تجعلها للكواكب ، وأرجح أن أبا إسحاق كان ممن ينتمون إلى الفرقة الأولى فمثله فى عقله الثاقب واطلاعه الواسع على أديان عصره أكبر من أن يعتقد هذا الاعتقاد البدائى ! !

حقاً لقد كانت الكواكب مؤلهة عند أكثر الناس فى طفولة البشرية حين كانوا ينظرون فيجدون للشمس وللقمر وللنجوم من العظمة والإشراق والعلو قدراً كبيراً ، ولكن تطور الخليقة ، واكتمال النظر ، وتتابع الرسالات جعل من هذه العقيدةأسطورة مضحكة لا يجدر بكاتب مفكر أن يعتنقها فى القرن الرابع الهجرى ، على أننا مع هذا التقدير لا نستبعد شيئاً على الإطلاق ، فالأمر فى العقائد يخضع لتأثير العاطفة والبيئة خضوعاً تتهافت دونه أدلة العقل ، وللتربية الأولى فى عهد الطفولة أثرها المحسوس فى تحديد المذهب وتعيين الاتجاه .

ولقد نشأ الصابئ فى عهد يزخر بأئمة البلاغة وأمراء الأدب ممن تسنموا ذرى الرئاسة والسياسة عن طريق البيان والإفصاح ، فلو كان الرجل فذاً مفرداً لا شريك له فى أدبه وثقافته لقلنا : إن دولة الإسلام قد احتضنته على نشوز دينه حين افتقرت إلى

سداد بلاغته وسحر مقالته ، أما وقد تألق نجمه فى سماء بزغت بها شموس وضاءة فى النثر والشعر معاً ، مثل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبى حيان التوحيدى وأبى الفرج الأصفهانى وأبى بكر الخوارزمى وأبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى والشريفين : الرضى والمرتضى ، وغيرهم ممن لا يحيط بهم الحصر ، ومع هذا التزاحم الشديد على السبق فى مضمار الأدب فقد شق الصابئ طريقه ووجد من أعيان الخلفاء ووجهاء الوزراء من وضعه فى مكانه المرموق ، فإن ذلك وحده لينهض دليلا على سماحة بيئته التى نشأ فيها ، ويعطى البرهان الأكيد على أن المسلمين بعيدون عن التعصب بعداً يدعو إليه القرآن وتشيد به أحاديث الرسول .

لقد كان الوزير المهلبى ، وهو ببغداد ، صاحب الكلمة العليا فى دولة الخلافة ، صديقاً حميماً لأبى إسحاق ، يحنّ إليه إذا غاب فيستدعيه ، كما يأنس به إذا حضر ويستشيره ، وكثيراً ما أقامه مقامه فى الوزارة إذا ارتحل عن العاصمة فى تسكين ثائرة أو تضميد نائرة ، فلا يجد أحد حرجاً من إقامة صابئ منبوذ مقام وزير مسلم فى خلافة سنية تستهدى كتاب الله فيما نقوم به من الأوامر والأحكام ، ولم يكن الوزير المهلبى ضيق الأفق قصير النظر ، فيرمى بالغفلة والحمق فى إسناد الوزارة إلى الصابئ ، ولكنه كما يقول الثعالبى نقلا عن اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ : وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر ونبل الهمة ، وفيض الكف وكرم الشيمة ، على ما هو مذكور مشهور ، وأيامه معروفة فى وزارته لمعز الدولة ، وتدبيره أمور العراق وانبساط يده فى الأموال مع كونه غاية فى الأدب والمحبة لأهله ، وكان يترسل ترسلا مليحاً ، ويقول الشعر قولا لطيفاً يضرب به المثل ، ولا يستحلى معه العسل ، هذا الوزير السياسى الأريب وجد من سماحة دينه سمو إسلامه ما اصطنع به أبا إسحاق عن دربة واختبار ، فكان كما يقول الثعالبى فى موضع آخر ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ : (لا يرى الدنيا إلا به ويحن إلى براعته ، وتقدم قدمه ، ويصطنعه لنفسه ، ويستدعيه فى أوقات أنسه ، وظل وفياً لصداقته حتى قتل فى إحدى الفتن بعمان ، فقطع الموت مودة حلوة هنيئة ، وخسر الصابئ بفقده ذخراً ثميناً وكنزاً لا تفى بقيمته كنوز) .

ولم يكن الوزير المهلبي فريداً فى اصطفائه أبا إسحاق ، فقد كانت تأتيه هدايا سيف الدولة الحمدانى ، وتحف عز الدولة بختيار بن بويه ، حتى لقد عرض عليه الوزارة

نفسها إن أسلم ، فما استجاب لعرضه ، ولم يشأ أن يجبره على ما لا يريد ، وظل يؤثره بنفائسه وألطافه ، وما زاده تمسكه بدينه إلا رفعة وسمواً فى عينه ، وهو بعد دين منبوذ لا يقوم عند غير الصابئة على أصل ولم يأت به نبى تذكره الأديان .

وكان الصاحب بن عباد تياهاً فخوراً ، يرى نفسه بالمحل الأعلى من السياسة والبيان معاً ، ولكنه كان يدخر لأبى إسحاق وداً كريماً وتقديراً رائعاً ، فهو يحرص على مودته متلطفاً ويستدعيه إليه متحبباً ، فيقدم تارة ويحجم تارة ، وما كان للصاحب وهو الوزير الرئيس التياه أن يتحمل إحجام فرد ما عن تلبية ندائه ، لو لم يكن يقدره قدره ، ويزن قيمته فى دولة البيان ، ومع أن الصاحب قد جافى أبا حيان التوحيدى المسلم ونابذه لفرط اعتداده بنفسه، فلم تشأ له سماحته الحساسة أن يجافى أبا إسحاق الصابئ لإحجامه ، بل أخذ يعترف صراحة بفضله وعقله ، ويقول :

(كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف ، وأبو إسحاق الصابئ ، ولو شئت لذكرت الرابع) ، ويعنى به نفسه ، فنراه يذكر أبا إسحاق ، ويترك أبا حيان !! والتوحيدى باعتراف أساتذة النقد سيد الجميع ، فلو أن تعصباً دينياً طاف بنفس الصاحب لأسقط أبا إسحاق كما أسقط من هو أفضل منه من أبناء ملته ، ولكنه التسامح المعتدل يفرضه القرآن ، وتوجبه الأخلاق ، وبهما يعيش أبو إسحاق قرير العين مطمئن الفؤاد .

وأطرف ما يروى فى حياة الصابئ هو صداقته للبيت العلوى فى بغداد ، فقد كان نقيب الطالبيين الشريف الموسوى والد الرضى والمرتضى من أصدقائه المحتفين بأدبه وذكائه . ولم يجد الزعيم العلوى غضاضة ما فى أن يتأثل وده بأديب صابئ يفد إلى داره بين الفينة والفينة فيؤاكله ويحادثه ،ويصادق شبليه الناشئين ، لأن الإسلام فى لبابه يحرص على مودة مخالفيه ، ويعلن كتابه الصريح أن لا إكراه فى الدين فقد تبين الرشد من الغى ، وقد امتدت صداقة أبى إسحاق للبيت العلوى حتى ممات الوالد وترعرع الشريف ليؤكد الصلة ويعرق المائة ، فكانت صداقة الفتى اليافع والكهل الفانى مضرب المثل بين الناس حتى خرج الصابئ عن طوره فرشح الشريف فى بعض أبياته لإمارة المؤمنين ، ولم يجد من الخلفاء من يغلظ له الحساب على وعورة المسلك وخطر المركب وظلت المطارحات الشعرية يتجاوب صداها بين الصديقين أمداً غير قصير ، فتفصح

عن إخلاص متبادل وتقدير مشترك ، ورواة الأدب يذيعونها فى كل مجلس ، فتتعطر بها الأندية ، وتحلو بترديدها الأسمار ، حتى مات أبو إسحاق ، فجزع عليه الشريف الرضى جزعاً نال منه كل منال ، ورثاه بقصيدة فريدة يعدها بعض النقاد من أبلغ مراثى الشريف إن لم تكن أبلغ ما قال ! ! ثم عاود رثاءه مرة ثانية وثالثة ، فحفظ ديوانه الذائع ثلاث مرثيات خوالد للصديق الراحل ، مع أنه رثى والده الشريف الموسوى بقصيدة واحدة ! فأى وفاء حى عاش فى مهجة الشاعر لصاحبه الفقيد ؟ إن الدنيا لتضيق فى عينيه بعده فيكرر الرثاء مرة ومرة ليستريح ، فما ينعم ببعض ما يريد ، بل يكون مآله كما قال فى إحدى مراثيه :

رثيتك كى أسلوك فازددت لوعة ... لأن المراثى لا تسد المرازيا

وهو بيت صادق لا يقل روعة عن قوله فى مرثاته الأولى :

سلوا من الأبرار جسمك وانثنى ... جسمى يسل عليك فى الأبراد

وقوله فى مرثيته الثالثة :

أمضى وتعطفنى إليك نوازع ... بتنهد كصبابة العشاق

وإن صابئاً ينال هذا التقدير من رئيس دينى وزعيم علوى كالشريف الرضى وأبيه لدليل على أن أبناء الإسلام يعتنقون حكمة الله فى المساواة والعدالة بين الأجناس والأديان دون تفريق . على أن الصابئ كان متشدداً فى اتباع تعاليم الصابئة ، فلم يكن ليتحلل بعض الشيء كما نلحظ فى سير أناس من الأدباء ترهقهم ملزمات الدين فيطلقون لشهواتهم العنان ، وكثيراً ما اشتهروا ببغداد على عهد أبى إسحاق وفيهم شيوخ الدين كالقاضى التنوخى وابن معروف وابن قريعة وأضرابهم ، ولكن الصابئ راعى حدود الدين مراعاة تحسب له لا عليه ، فقد حضر يوماً مائدة الوزير المهلبى فامتنع عن لون محرم من ألوان الطعام لدى الصابئة ، فقال له المهلبى : كل ولا تبرد . فأجاب فى أدب : لا أحب أن أعصى الله فى مأكول ، وذكر بعض مؤرخيه أن عز الدولة بختيار بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول ، وهو مما حرم فى دينه ، فرفضها عن تعفف ، وله شعر جميل نلمس فيه هذه النزعة الدينية المتحرجة ، كأن يقول :

حمتنى لذتى رتب المعالى ... وضننى بالمروءة والوقار
ودين ضاق فيه مجال فتكى ... لخوف عقوبة وحذار نار

ولم يزده هذا التشدد إلا إكباراً فى نفوس المنصفين ، فما قرأنا فيما كتب عنه على كثرته أن أحداً من خلصائه قد ضاق بتشدده ، بل تركوه يؤدى فرائضه الدينية ، ومقدساته الشرعية ، وحسبهم منه أن يجازيهم وفاء بوفاء .

ولا ننكر فى هذا المجال أن أبا إسحاق الصابئ تعرض فى حياته الطويلة — وقد جاوزت التسعين — إلى نكبات سياسية قذفت به فى ظلمات السجن والاعتقال ، ولم يكن لدينه الناشز أثر ما فى اضطهاده ، ولكنها السياسة — لحاها الله — دفعته إلى مناصرة فريق على فريق ، ثم جاءت الريح بما لا يشتهى ، فتم الأمر لخصومه ، فنكلوا بجميع أعدائهم ومنهم أبو إسحاق ؛ بل إننا نذكر أن غريمه الحاقد عضد الدولة قد اكتفى بحبسه واعتقاله ، استجابة لشفاعة بعض ذوى الأدب فى شأنه . على حين قتل من خصومه المسلمين عدداً غير يسير ، ولو كان أثر ما للتعصب الدينى فى نفسه لاهتبل الفرصة وطاح به مع الطائحين .

ولن نختم هذا المقال دون أن نشير إلى أن الكاتب البليغ قد حفظ القرآن الكريم حفظاً تاماً مجوداً ، فارتقى به معارج البيان والسحر ، واتخذه ، مورد إلهامه ومناط احتفائه . أفيعتبر بذلك الآن قوم من المسلمين يرون فى جزالته الفصيحة وأسره القوى ما تضيق به عقولهم الواهنة ، فيحاربون إعجازه الساحر بإسفافهم الشائن وتهافتهم الركيك ! أم يكون الصابئ أكثر منهم احتفالا بروعة الكتاب اعتقاداً بأسلوبه الرصين ؟

يقتربون من الاسلام

لعل حرية تولستوى الفكرية أول سمة تتسم بها شخصيته ، فقد رزق كثير من الكتاب سلامة أسلوبه وروعة إبداعه ، ولكنهم لم يرزقوا هذا الطموح القوى إلى ارتياد المعرفة ، والولوع باكتناه أسرار الحقائق على وجه ينأى عن الترهات الجدلية ، والأباطيل المتوارثة فى الصحف الأثرية دون تمحيص ونقد ! وقد كانت هذه الحرية الفكرية مثار الإعجاب لدى معاصريه من شتى الملل والعقائد والأجناس ، فكثر أنصاره فى كل مكان يقدس الكرامة الفكرية ، ويدعو إلى الاستقلال العقلى فى دراسة العقائد والمذاهب ، حتى رأينا عالماً كبيراً كالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يكتب إليه كتاب المعجب المقدر ، ويعلن فى إعجاب وإكبار ما يراه فى حريته الفكرية حين يقول فى خطابه الشهير إلى المفكر الروسى :

أيها الحكيم الجليل :

(لم نحظ بمعرفة شخصيتك ولكننا لم نحرم التعاون مع روحك ، إذ سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التى هدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه ، وسعياً يبقى به ويرقى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت إلى الدين فجرحت حجب التقاليد ووصلت إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هادياً للعقول كنت حاثاً للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون كان مثالك فى العمل إماماً يقتدى به المسترشدون) .

ويهمنا الآن فى خطاب الأستاذ الإمام ما أشار إليه من جهاد تولستوى فى إزاحة حجب التقاليد والوصول إلى حقيقة التوحيد ، لأن الأديب الروسى العظيم قد درس المسيحية دراسة ناقدة ، ووازن بين ما تراه الكنيسة الرسمية وما وصل إليه شخصياً من دراسة الإنجيل ، فكفر بكثير من المعتقدات ، ونادى بالتوحيد نداء صريحاً لا يقبل التلميح ، وكان بذلك من حيث لا يعلم يعلن حكم الإسلام فى المسيح كما جاء به القرآن وأثبته نبى الإسلام ! ولم يعرف عن تولستوى ، وهو الذى احترم الحقيقة العلمية مجردة من التعصب المغرض ، أنه فى هجومه المفرط على معتقدات الكنيسة فى المسيح عليه السلام ، كان يصدر عن دافع مغرض ، بل كان الحق رائده فى دروب البحث ، فإذا التقى بعد هذا الطواف الجاهد مع الإسلام فى أكثر حقائقه عن المسيح وعن حقيقة التوحيد فهو التقاء يقابله المسلمون بالبشاشة والترحيب !

لقد نشأ تولستوى نشأة مترفة ناعمة ، فقد كان سليل إحدى الأسر الكبيرة المثرية فى بلده ، وقد كان كاتباً نابهاً تردد الدنيا بآثاره ، وينال الحظوة الكريمة من صفوة المثقفين فى عصره ! وكان الذى يراه فى صيته المدوى وأدبه الحافل وأسرته الشهيرة ، وتراثه الجم يحسبه هادئ البال ، قرير الجفن بما بلغ من الشهرة والجاه والأدب فى عالم يهتف باسمه ، ويتحدث عنه أدباؤه حديث الإعجاب والتقدير ، ولكن الرجل الكبير كان مخدوعاً عن نفسه حين اعتقد فى شبابه أنه خلق للقصص الفنى يلج مواجه فى حلبة الروائيين والقصاص ، فإن بذور المفكر المصلح كانت مستترة فى البقاع السحيقة من نفسه ، ومرور الأيام يمدها بعناصر البقاء والنمو حتى تجاوزت الأغوار إلى السطح فى سن الخمسين ، فبدأ الكاتب الكبير يسأل نفسه عن وجوده فى هذا الحياة ؟ وعن مصيره المحتوم فى نهايتها ؟ وقد راعه أن تكون خاتمة الإنسانية على هذا النحو المجهول الفاجع ! وكثير من المفكرين قد أحسوا إحساسه ثم صرفتهم الأيام عن الإيغال فى هذا المنحى الدقيق فقبلوا الحياة على سننها ، ولكن تولستوى كان من الحساسية بحيث شاهد الدنيا بعينه ، وأخذ عليه التفكير ! وقد كتب اعترافاته الشهيرة ليصور حقيقة اضطرابه الخافق فى هذه الأزمة الحالكة وليقول فى أسى وحرقة بالغين :

(هناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج فى أحد السهول ، فلجأ هذا السائح هرباً من الوحش إلى جب ناضب ، ولكنه وجد فى قاع الجب غولا

قد فغر فاه ليلتقمه ، ولما رأى السائح التعس أنه لا يستطيع النزول إلى قاعه مخافة أن يلتهمه الغول فقد أمسك بفرع من النبات انبثق من صدع فى الحائط وتعلق به ، وأحس بالتعب يدب فى يديه شيئاً فشيئاً ، وشعر أنه سوف يسلم نفسه عما قليل لا محالة إلى الهلاك الذى يتربص به من فوقه ومن أسفل منه ، ولكنه لن يزال متعلقاً بالغصن ثم ما لبث أن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وقد دارا حول ذلك الغصن وأخذا يقرضانه وأيقن السائح أن الغصن لن يلبث حتى يقطع فيسقط هو فى فم الغول ، وبينما يرى ذلك ويعلم أنه هالك لا محالة إذ أبصر بقطرات من الشهد على بعض أوراق الغصن وأخـذ يلعقها بلسانه) .

يقول تولستوى : (وهكذا أتعلق أنا بغصن الحياة ، وإنى لأوقن أن غول الموت يتربص بى وأنه سوف يمزقنى كل ممزق ، ولست أستطيع أن أدرك لماذا وقعت فى مثل هذا العذاب ، ولقد حاولت أن ألعق الشهد الذى كانت فيه لى سلوة من قبل ولكنى لم أعد أجد فى الشهد ما يلذنى ، وما برح الفأران الأسود والأبيض ، وهما الليل والنهار يقرضان الغصن الذى تعلقت به ، ورأيت الغول فى وضوح ، ولم يعد للشهد طعمه الحلو وليس أمام ناظرى إلا الغول الذى لا مهرب منه والفأران ، ولن أستطيع أن أدير عينى عن ذلك ، وليس ذلك حديث خرافة وإنما هو الحق الذى لا ينكر والذى يفطن إليه كل إنسان) [١] .

إن عقلا كبيراً يرهقه التفكير فى مصيره لابد أن يتلمس أبواب الهداية فى كل سبيل متى يجد المطمأن والراحة لروحه .

لقد أقبل تولستوى على الفلسفة يتبطن مسائلها ويسبر أغوارها ، ويقف مع كل فيلسوف قديم أو حديث وقفات مطيلة يسأله رأيه فى الحياة والفناء والغيب والروح ، ثم يفيء إلى نفسه فلا يجد لدى عباقرة الفلسفة ما يطمئن ، فالنظريات تتعارض ، والآراء تتصادم ، ولكن الفلسفة فى النهاية تكون واضحة مفهومة حين تبتعد عن مشاكل الحياة المباشرة فى رأى تولستوى ولكنها تنعقد وتتلوى وتغمض حين تصل إلى الصخرة العاتية التى تقف فى وجه الحياة وهى الموت ؟ فما جدواها إذن ؟

ثم يترك الأديب الفلسفة إلى الدين يزور الكنائس ، ويناقش الأساقفة ، ويعكف

(١) تولستوى ، ص ٢٧٣ لمحمود الخفيف .

على الصلاة والصوم ، ويقرأ الكتاب المقدس ، ولكنه بعد ذلك كله يجد أصول عقيدته كما يقررها أساقفة الكنيسة تتعارض مع حرية تفكيره ، فيهتف من أعماقه هتافه الشهير : (اللهم هبني إيماناً قوياً أملأ به قلبي وأهدي إليه غيري) .

لقد قرأ الإنجيل كثيراً ، ثم تعلم العبرية ليقرأه في لغته الأصلية ، ولكنه وجد الأساقفة يفسرون نصوصه كما يشاءون ! ويلزمونه بأفكار وعقائد لا يقول بها صاحب فكر حر متطلع ، وهو لابد مفند هذه الآراء ، ومحطم أصولها الراسخة في أذهان أناس يعتقدون أولا ثم يفهمون الخيالات العائمة كأنها حقائق ثابتة يريد الاعتقاد الموروث ؟

لقد عجز الرجل أن يفهم عقيدة التثليث وأعلن ذلك في كتابه الشهير (نقد للدين القائم على النصوص) ! فكيف يكون الأب والابن وروح القدس إلهاً في عقل تولستوى ، ثم كيف يصير المسيح البشر الآكل الشارب المتنقل إلهاً ؟

وإذا كان كذلك فكيف يصبح قدوة للبشر وهو من جنس إلهي وهم آدميون بشريون ! إن النبي يكون قدوة لإنسان مثله يراه يتعذب ويصبر ويجاهد ويكافح ، وهو ذو طاقة محدودة من عصب ودم ولحم ، فيهتدي بمثاله ويحتذي حذوه ، ولكن كيف يهتدي تولستوى بصبر المسيح وكفاحه والمسيح إله وتولستوى بشر !! ثم ما معنى الفداء ؟ كيف يولد الإنسان مخطئاً دون أن يعمل شيئاً يحسب عليه به ذلك الخطأ ؟ ثم يجيء عيسى فيصلب ليخلص الإنسان من خطأ لم يرتكبه ؟ ولماذا يتحمل تبعة غيره إذا كان هناك خطأ ؟ ثم ما هذا العشاء الرباني الذي يدعو له الأساقفة كل عام في إصرار ويقين ، فيأكل النصارى الخبز ويشربون الخمر ليتحول الخبز والخمر معاً إلى دم يجري في جسم المسيح ؟ كيف يعقل هذا ؟ ثم ما المراد بتعميد الأطفال وقسمة الناس إلى أشقياء وسعداء ؟

إن ذلك كله في منطق تولستوى لا يعد باطلا ونفاقاً فحسب ، بل هو فسوق وكفر بالروح المقدس ، وآفة المصائب أن يقوم بالدعوة إليه المرتزقون باسم المسيح ، المتمتعون بالجاه والمال والأبهة ، وهم يجلسون على كرسي بولس الرسول ! إن المسيحية في خلاصة رأي تولستوى ليست كما صورتها الكنيسة مجرد تعاليم سماوية نائية عن العقل ! ولكنها دين يخضع للتفكير المعتدل ! وكل ما يشذ عن التفكير بعد عن الإنجيل في لبابه الأصيل .

وإذا كان من المناسب هنا أن ننقل بعض أفكار الرجل فى سياقها المطرد فليسمع القراء رأيه فى بولس الرسول الذى خلع على المسيح ما لم يكن له بعد تمهيد يسير تقدم به الأديب الخطير حين قال : (إنه ينبغى لفهم تعاليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفهمها عليـه السلام ، هو أن نبحث فى تلك التفاسـير والشروح الطويلة الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظـلام ، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعاليم المسيح ، بل حمله على محمل آخر ثم مزجه بكثير من تقاليد الفرنسيين وتعاليم العهد القديم ، وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ، وكان يميل إلى المظاهرات الخارجية الدينيـة كالختان وغيره ، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحى فأفسده ، ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما المسيح الأصلى الحقيقى فخسر صـفته الإلهية الكمالية ، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحى التى أولهـا منذ ابتداء العـالم وآخرهـا فى عصرنا الحـالى والمستمسكة بهـا جميـع الكنائس ، وإن أولئـك الشراح والمفسرين يدعون يسوع إلهاً دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعـواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار موسى والزبور وأعمال الرسل ورسائلهم وتآليف آباء الكنيسة ، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله) [١].

هذا رأى تولستوى فى ألوهية المسيح ! يلتقى به التقاء صريحاً مع القرآن حين يقول : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظـالمين من أنصار ٭ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحـد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ٭ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ٭ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون » [٢].

ولعل هذا بعض ما عناه الأستاذ الإمام حين كتب خطابه للفيلسوف الكبير مثنياً عليه ، حين مزق عن الدين حجاب التقاليد ، ووصل به إلى عقيدة التوحيد .

---

(١) محاضرات فى النصرانية ، ص ١٨٩ للأستاذ محمد أبو زهرة .

(٢) سورة المائدة ، الآيات ٧٢ — ٧٥

الضمير العلمي

وسائل البحث العلمي :

أعدت دراسات متنوعة عن وسائل البحث العلمي لتفيد من ينشط إلى الاتجاهات العقلية فى البحث والتحليل ، وقد أشبعت هذه الدراسات ما هدفت إليه ، من إيضاح هذه الوسائل ، حيث أسهبت فى الحديث عن قوة الملاحظة والقدرة على الاستنتاج ، وتصميم التجارب وترتبها ، وتنوع المصادر ، ومعاودة التجاريب ، ووفرة المادة ، ومراعاة الوضوح ، وضرورة التركيز ، مما لابد منه للباحث الجاد ، ولكن الجانب الخلق لدى الباحث العلمي لم يجد حظه لدى كثير من الكاتبين ، إذ مروا عليه مروراً عابراً ، فلم يقفوا طويلا عندما يلزم الباحث العلمى من مراعاة الأمانة حيث ينسب كل رأى لصاحبه ، ومن وجوب الإخلاص حيث لا يخفى بعض ما اهتدى إليه من حقائق تتطلب المناقشة والحوار ، ومن الصدق البالغ حيث يكون الحق وجهته فى البحث ، دون أن يعتقد شيئاً يمليه الهوى ويحاول أن يظهره فى مظهر الحق الصريح ، مع الاعتراف بفضل سابقيه من العلماء ممن وضعوا المقدمات وساروا فى الطريق خطوات كانت مصدر نفعه ، ولعل ذلك كله مما يجوز أن يندرج تحت عنوان الضمير العلمى .

والحق أن موضوع الضمير العلمى كان مصدر لجاج صاخب لدى من يفرقون بين العلم والخلق ، حيث ذهب نفر من الباحثين إلى أن وظيفة العلم أن يحلل ما كان ، خيراً كان أو شراً ، ووظيفة الخلق أن يشير إلى مايجب أن يكون ، وبذلك أصبح العالم فى رأيهم غير مرتبط بنفع الإنسانية فيما يكشف من اختراع ، ويبدع من نظريات ، فتلك وظيفة رجل الأخلاق ، وإذا كانت هذه وجهة نفر من الماديين ، فإن الإسلام ينكرها كل الإنكار ، إذ يجعل الأعمال بالنيات ويثيب كل امرئ على ما نواه ، فلابد من نزاهة الغرض وسلامة الاتجاه والحرص على النفع العام ، إذ لا يمكن أن ينفصل الخلق عن العلم فى منطق الإسلام .

(التقـــدم العــلمى) :

وقد كان التقدم العلمى الظافر فى هذا العصر مصدر إزعاج خطير لمن رأوا نتائج العلم توجه إلى الدمار المبيد فى الحروب الطاحنة ، حتى قام نفر من الدعاة يعلن جنـاية العلم الحديث على البشرية ، ويدعو إلى الرجـوع إلى عهود البسـاطة والتقشف ، لأن ما أتاحه العلم من تقدم حضارى لم يتم للإنسان سعادته ، بل زاده قلقاً وتوتراً ، حيث أصبح الكمالى ضرورياً من أجله ، فهو يحرص عليه حرصاً شديداً ، فإذا تعذر الحصول عليه أصبح موضع لهفة وتطلع ، وقد كان أجدادنا السالفون ينعمون بالضرورى نعمة سابغة ، ويعيشون فى هدوء مطمئن بعيداً عن التطلع الطامع ، والحرص المستوقر ، وما كثرت حوادث الانتحار إلا فى بلاد التقدم المـادى المفرط ، حيث تثقل أعبـاء الحياة على من يريدون التمتع بكل شىء ، ينظرون إليه فى أيدى معارفهم ، أو يقرأون عنه فى الصحف والمجلات ، فإذا أضيف إلى ذلك ما جلبه التقدم العلمى فى الحروب المعاصرة من دمار مبين ، كانت النتيجة فادحة وأصبح الخطر مما يتطلب العلاج .

والحق أن الذين ينظرون هذه النظرة المتشائمة يخلطون بين الوسائل والغايات ، وبين العلل والمعلول ، إذ ليس فى قوانين البحث العلمى ، ما يجعل غازاً من الغازات متحتم البلاء ، فيسخر فى الدمار والتخريب ، ولكن الإنسـان هو الذى ينحرف بالقـانون ليستخلص منه شر النتائج ، والسموم قد تكون دواء إذا أخذت بحذر للقضاء على بعض الميكروبات ، ولكنها تقتل الإنسان قتلا إذا قصد بها الإهلاك ، فالعلم ليس خطراً فى نفسه ، إنما الخطر كل الخطر فى مجافاة العلم للخلق ، إذ لو سيطر الخلق الدينى على الباحث العلمى لمنعه أن يستجيب لبحوثه على اختراع المبيدات الكاسحة للعمران ، ولوقف بعلمه لدى النفع العام حين يجتنب ما يؤدى البشرية من وسائل التدمير والإفناء .

وإذا كانت بذرة الضمير الإنسانى تكمن فى كل نفس فإن هذه البذرة الكامنة قد جعلت بعض من اخترعوا القذائف المدمرة يحسون بقارص الندم ، وفيهم من تعاظمه سوء ما صنع ، فاختلط عقله وتسلمته المصحات العقلية ، ولو كانت الرقابة الخلقيـة قائمة لدى من يصنعون هذه المدمرات ما استجابوا إلى رؤسائهم من الساسة ، هؤلاء الذين يريدون أن يسيطرون على الشعوب بوسائل الفتك ، ويرون فى انتصـار بلادهم عزة قاهرة ، فيرصدون الميزانيات الضخمة لرجال العلم كى يبدعـوا ما يفتك و يدمر ،

ولن يتم هذا التآمر المنكر إلا حين تنفصل السياسة عن الدين ، وحين يصبح رجل العلم آلة فى يد دكتاتور رهيب .

نظرتان مختلفتان :

واجه رجال الدين فى أوربا قضية الخطر العلمى كما واجهها رجال الإسلام فى كتب التراث ، ولا نستطع فى مقال موجز أن نبسط وجهات النظر على نحو فسيح ، ولكننا نشير إلى أن السؤال الحائر : (إلى أى حد يجوز لنا أن نفعل الشر لنحصل منه على الخير) ؟ قد وجد جوابه لدى أسقف (درهام) بإنجلترا (الدكتور هنش) حين ضرب المثل بتشريح الحيوان الحى ، فاستعرض آراء من يذهبون إلى إباحته للحصول على نتائج صحية تفيد الإنسانية ، ومن يذهبون إلى تحريمه باعتباره مصدر ألم مفرط لحيوان برىء حساس ، وانتهى إلى أن الحكم يرجع إلى النتيجة النهائية ، إذ ننظر : هل يأتى التشريح بفائدة عظمى يهون لديها ألم الحيوان الحى ؟ أو أن الفائدة أقل وأضأل من أن يتعذب لها حيوان ضعيف دون مبرر ؟ وإذا أمكن تخدير الحيوان لدى التشريح فهو أولى لدى الأسقف إلا إذا كان التخدير مما يضر بقضية البحث العلمى ، وقد وجد الأسقف الفاضل من عارضه من زملائه ذاهباً إلى أن ألم الحيوان الحى مما يجب ألا يهتم به فى هذا المجال !

فإذا انتقلنا إلى رأى علماء الإسلام فى التشريح ، نجدهم يمنعون منعاً باتاً أن يشرح الحيوان الحى ، إذ للحيوان حرمة الإنسان تماماً ، وتلك نظرة إنسانية يصدر عنها التشريع الإسلامى فى كل اتجاه ، أما الميت ، فالحيوان يؤكل بعد ذبحه ، ولا خلاف فى جواز تشريحه ، أما تشريح الإنسان الميت ، فللفقهاء احتياط بالغ فى شأنه ، عبر عنه الإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم فى فتواه المنشورة بمجلة الأزهر (١) ، إذ استعرض أقوال أئمة المذاهب الأربعة فى شق بطن من ماتت وولدها حى فى بطنها ، حيث أجازوا شق البطن حرصاً على الولد ، لأن الحى أفضل من الميت ، وانتهى من بحثه الفقهى إلى قوله : (والذى يقتضيه النظر الدقيق فى قواعد الشريعة وروحها أنه إذا كانت هناك مصلحة « راجحة » فى شق البطن وتشريح الجثة ، من إثبات حق القتيل قبل المتهم ، أو تبرئة المتهم من تهمة القتل بالسم مثلا ، أنه يجوز الشق والتشريح بعد المحاكمات .

---

(١) مجلة الأزهر السنة التاسعة (رجب ١٣٥٧ هـ) ص ٤٦٨ ، وكان الشيخ مفتياً للديار المصرية فى هذا التاريخ .

هذا الحذر الدقيق فى إثبات حرمة الإنسان حياً وميتاً يسيطر عليه الدافع الخلقى الذى فرضه الإسلام فى تشريعاته الدقيقة ، ولو كان الدافع الخلقى قانوناً مسيطراً على العلماء ما كان العلم التجريبى مصدر خطر كبير .

التكتم العــلمى :

كان المرتقب المنتظر من رجال البحث العلمى أن يكونوا ذوى صلات قوية ، توجب تبادل الزيارات ، وتعاقب اللقاءات ليعرض كل فريق ما استطاع أن يصل إليه فى جامعته من نتائج ، كما يقدم من نماذج دقيقة لصعوبات يجدها فى طريقه ، فقد تكون هذه الصعوبات مما أمكن تذليلها لدى فريق آخر ، ولكن المشاهد أن المؤتمرات العلمية تنعقد فى عواصم الدول المتقدمة بصورة دائمة لا لتكشف الجديد من المخترعات ، بل لتكون ستاراً خادعاً ، وامتحاناً متفرساً ، حيث يتربص كل معسكر بعلماء المعسكر المقابل ، فهم يتبادلون النقاش فى حذر مفرط ، ثم تنتهى اللقاءات ، ويفاجأ الناس باكتشاف جديد ، أعد فى ظل رهيب من الكتمان . فإذا طلب المؤتمرون بحث هذا الاكتشاف حيل بينهم وبين ما يشتهون ، إذ أنه فى المنطق المادى وقف على من اكتشفه ، وعلى الذين يحاولون الوصول إليه أن يبذلوا الجهد دون استعانة بمن انتهوا إلى غايتهم من اكتشافه .

وإذا كان هذا ما نشاهده سافراً دون نقاب ، فما معنى تكرار المؤتمرات العلمية إذا كانت لاتبيح التبادل الحقيقى ؟ وإذا كان التوق السياسى مدعاة الحرص على هذا التكتم البغيض ، فإن هذا التكتم لايقف عند القوة الحربية وحدها ، بل يمتد إلى شتى الميادين ، فالذين يحرزون تقدماً اقتصادياً فى عالم الصناعة يحتكرون السوق العالمية لمدة طويلة ، فترتفع الأسعار ارتفاعاً يعود بالربح على الدولة المكتشفة وحدها ، وأخطر ما يكون ذلك فى مواد العقاقير الطبية حيث لاتتكلف غير الهين اليسير ، ولكن اختفاء سرها يجعلها مصدر ربح خرافى يظل مورداً للدولة المكتشفة حتى يهتدى الباحثون إلى السر العلمى فتهوى القيمة ، وما زلنا نسمع عن دواء يباع عند اكتشافه بخمسة دنانير ثم يهوى إلى نصف دينار .

ولو تركنا الجانب الخلقى ناحية ، ونظرنا إلى الربح المادى وحده فإننا نرى أن إذاعة هذه الأسرار توفر كثيراً من الجهود ، وتدعو الفريق الآخر إلى أن يبرز ماعنده ،

فيتلاقى الجميع على النفع العام ، وذلك أمل لا تبشر الأحداث المشاهدة بتحقيقه فى وقت قريب ، فما زال الشره الطامع محدود الرواق ، ولعل الذين يتبجحون بتقدم الحضارة الأوربية ينسون أن الإسلام يمنع كتمان العلم ، ويعده جريمة نكراء ، إذ فرض الله على ذوى الدراية من العلماء أن يبرزوا ما عندهم للناس ، وللعلم زكاة كالمال .

مثال تاريخى :

تحدث من أرخوا حياة الإمبراطور (فردريك الثانى) أنه كان يترك أمور السياسة إلى شئون العلم ليظهر براعته العلمية التى لا ظل لها من الحقيقة ، وقد دعا رجلين بريئين إلى الغذاء ، وأطعمهما حتى امتلآ ، وبعث بأحدهما لينام ، وبعث بالآخر ليصيد ، وفى المساء أمر بشق بطنيهما حيين ، ليعرف أيهما كان أحسن هضماً ؟ من أكل ونام أو أكل واشتغل ، وقد نافقه علماء بلده ، فأظهروا إعجابهم بيقظته العلمية النادرة ، وأذاعوا عنه أنه أسهم فى تقدم البحوث الطبية إسهاماً حقيقياً ، ولو وجد الإمبراطور مستشاراً أميناً لأعلمه أن كرامة الإنسان محترمة ، وأن من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ، وأن من الوسائل العلمية ما يقوم مقام تجربته الشنيعة دون إجرام .

إن الذين يبحثون عن صلاح المجتمع الإنسانى ، ويحرصون على سلام الشعوب ، لن يشعروا بتقدم حقيقى إذا تخلى العلم عن الخلق ، وعاش العالم بلا ضمير .

التفسير الكيمائى للأخلاق

سراب خادع

« وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » . (قرآن كريم)

من كرامة الباحث إذا تعرض لتقرير رأى علمى ، أن يذكره من كافة وجوهه ، وأن يعرض آراء مخالفيه ، كى يناقض ما يتطلب النقاش ، لاسيما إذا كان هذا الرأى مخالفاً ما يعتقده أكثر الباحثين ، فيكون بذلك قد أرضى نفسه ، وأراح ضميره حيث أبدى للقارئ كل ما يتعلق بموضوعه ، وله بعد أن يذهب حيث يشاء ، ولكن نفراً من المتسرعين يتصدرون المجلات المرموقة اليوم ليعيدوا القول فى شبهات ضعيفة قامت الأدلة على توهينها ، ويتمجدون بأسماء تنتسب إلى المادية الغربية فى مجال الاستشهاد ، دون أن يذكروا أسماء أخرى أسهمت فى إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ونمثل بما كتبه بعض الناس عما يسميه التفسير الكيمائى للأخلاق ، مدعياً أن الإنسان مقهور فى تصرفه مسير تحت دوافعه البيولوجية ، وتفاعله الكيمائى ، دون أن يستطيع الخلاص من هذه الدوافع ، وهو ارتداد مسرف إلى مذهب قديم أظهر الباحثون بطلانه ، ولكنه يرتدى اليوم مسوحاً علمية تظهره فى الرجوع إلى التفسير الكيمائى والدوافع البيولوجى ، ومن حقنا أن نظهر هذا الرأى من وجهته الزائفة التى أغفلها المغرضون .

بعض الشبهات :

يقول أصحاب هذا التفسير الكيمائى : إن الإنسان فى سعيه الدائب على سطح الأرض يستجيب إلى ما بداخله من دوافع مركبة تسيره كما يسير البخار السفينة ، فهو مضطر اضطراراً جبرياً أن يسير وفق هذه الدوافع ، لأنه فى هيئته وسلوكه خاضع للغدد الداخلية فى كيانه الجسمى . فالحب والبغض والنشاط والكسل وكل النوازع

البشرية ليست فى رأيهم إلا استجابة حتمية لإفراز الغدد الصماء ، والمجرم لا يكون مجرماً — لدى هؤلاء — لأنه مدفوع بقواهر خافية من تركيبه الداخلى القاهر ، وهو تركيب ورائى لاحيلة له فيه ، وهذه الدوافع هى التى جعلت العلامة الإيطالى (سيزار لبروز) يجعل المجرم رجلا مريضاً فحسب ، فهو إذن غير مسئول عن جرائره أمام المجتمع ، لأن الجريمة ظاهرة مادية لعلة فسيولوجية تقوم فى تركيب المجرم ، وازدياد بعض العصارات الذرية التى تفرزها الغدد أو نقصها ، مما يحدد سلوك الإنسان وفق ما تدفعه إليه هذه الإفرازات .

هذا لباب ما يقوله أصحاب التفسير الكيمائى للأخلاق ، وهو مضمون عتيق صوره الشاعر القديم حين قال :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

فالمسألة إذن ليست جديدة إلا فى تفسيرها الكيمائى فحسب ، أما نتيجتها الخادعة فقد خاض فيها الخائضون ، ودحضها المنصفون .

منطــق حاسم :

إن أقوى صور المنطق الحاسم هو ما تشاهده بعينك وتلمسه بذاتك دون عناء ، وقد تخدع قليلا ببعض التحليلات المعزوة للعلم الناقص فتميل إليها بعض الميل ، ولكنك أمام الحق الصريح الذى يلوح لعينك ، لاتستطيع أن تنكر أن بعض المجرمين الذين يندفعون للجريمة ، يقلعون عنها نادمين ، ويرون فى ماضيهم عاراً شنيعاً يجب الخلاص منه ، وفيهم من يرحل عن بيئته إلى وطن ليكتب صفحة جديدة خالية من الشرور ، وأكثر هؤلاء لم تصنع لهم عمليات جراحية تستأصل بعض الغدد ، ولم يحقنوا بمادة علمية تزيد بعض الإفرازات أو تنقصها كى يخالفوا اتجاه الجريمة إلى اتجاه لطيف ، فإذا كانت الدوافع البيولوجية أمراً محتوماً لامحيد عنه ، فكيف تخلص المجرم من دوافعه ، وثاب إلى رشده ، وهو فى تركيبه الداخلى لم يزد ولم ينقص عما كان عنه وقت الجريمة ؟

وإذا كنا نرى الحيوانات غير العاقلة تستطيع أن تغير طبائعها ، فتأنس بعد توحش وتنزل نهمها الجائع فى مجال الصيد لتقدم الفريسة إلى صاحبها مختارة عن طوع ، وتركيبها العضوى مماثل للتركيب البشرى ، وتزيد على الإنسان أنها لاتصغى إلى منطق الحكمة ولا تعرف نتائج المستقبل بعين العقل كما يعرفها الإنسان فكيف استطاعت هــذه

العجماوات بقليل من التدريب أن تنسى دوافعها الداخلية ، وأن تخالف نظائرها فى أدغال الغابات ، وأغوار الفلوات ، ثم لا يستطيع الإنسان أن يتغلب على صنعه الخلق بعزيمة نافذة يبعثها دينه الصحيح ، ويدعو إليها مجتمعه الناهض بالثواب والعقاب ، ثم إذا كانت هذه الدوافع ضربة لازب ففيم إنشاء المدارس والمعاهد ؟ وفيم الحث على حسن التربية ونظافة السلوك ! ونحن ندرك أثر التعليم فى ارتفاع المستوى الخلق واجتناب الرذائل .

تطرف واعتدال :

إذا تطرف أصحاب التفسير الكيمائى فذهبوا إلى أنه وحده هو الموجه للسلوك الإنسانى فنحن فى مقابلتهم لانلجأ إلى تطرف مضاد ، فندعى أن هذه الدوافع الجسمية ، وتلك الغرائز النفسية ، لا أثر لها فى توجيه السلوك ، ولكننا نعرف لكل ناحية حقها المعقول ، فنقرر أن الإنسان فى مهب الريح تتجاذبه الطرق المختلفة شمالا ويميناً ، وله نوازعه الهابطة التى تميل به نحو الانحدار ، وطوامحه العالية التى ترتفع به نحو الكمال ، وللدين الصحيح والتربية البصيرة أثرهما الحاسم فى سيطرة اتجاه الخير وانحدار ما يعارضه من اتجاه ، فالإنسان فى هذه الحياة كما يقول العالم السيكلوجى الكبير (أنتونان أميو) يشبه السفينة الضاربة فى وسط المحيط ، تلك التى تتركب من قطع خشبية تتلاصق وتتماسك ، وهى فى محتوياتها قد تكون تامة الأجهزة أو ناقصتها ، وقد تكون بعيدة عن الساحل أو قريبة منه ، ولكنها إذا هبت عليها الريح تجد بداخلها رباناً مفكراً مدبراً يمسك بسكانها ، ويحاذر عن طريق الموج ليصل بها إلى طريق السلامة ، مفكراً فيما حوله ليرصد ما يراه من تقلبات الريح والماء ، هذا الربان الحازم هو الإرادة العاقلة التى تعرف عقبى الشر فتتجنبه خائفة وجلة ، وترقب ثمار الخير فترتجيها تائقة مشتهية ، وإذا فقدت السفينة ربانها فلا سيولة إذن .

وهذا ما يقرره التشريع العادل حين لا يأخذ المجنون بجريرة أو عقاب ، لأن مدبر الكون يعلم أن الإنسان العاقل ذو قدرة على التصرف البصير ، فإذا أطاع النفس الأمارة بالسوء فقد استوجب الجزاء ، والذى يقول مكابراً أنه لا يستطيع أن يتغلب على مزاجه الشخصى لتركيب داخلى ، نسأله لماذا يخشى الوحش الكاسر إذا شاهده من بعد ، ولماذا يحاذر الثعبان حين يعترض طريقه ؟ إنه إذن يتمتع بقدرات تحميه من الخطر ،

ومن هذه القدرات : عقله المدبر ، وإرادته المصممة ! ونحن لانطلب من أحد أكثر مما نطلبه من سائق السيارة ، وربان السفينة ، وقائد الطائرة ، حين يناديهم الواجب أن يكونوا فى مستوى القيادة والإشراف ! أليس الحجم البشرى أهم لدى صاحبه من سفينة أو سيارة تتطلبان الحرص والانتباه ؟

الإمام الغزالى ودعوى التحجر الخلقى :

كان الغزالى رحمه الله من أبرز المعارضين لمن يقولون بتحجر السلوك الإنسانى ، وصلابة اتجاهه ، فهو يعلم أن الهيئة الخلقية الراسخة فى النفس تعدل من حال إلى حال فتكسب من البيئة ما تسوء به بعد أن تحسن أو ما تحسن به بعد أن تسوء ، وقد ندد بمن يغفلون هذه الحقيقة السافرة فقال(١) : (إن بعض من غلبت عليهم البطالة يستثقلون المجاهدة والرياضة وينفرون من الاشتغال بما يزكى النفس وراء دعوى أن الأخلاق ثابتة لايمكن تغييرها ، ولو كان ذلك كذلك لبطلت الوصايا القرآنية والحكم النبوية ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حسنوا أخلاقكم) ، وكيف ينكر هذا فى حق الإنسان العاقل ، وتغيير خلق البهائم ممكن ، إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من الشره إلى القناعة والتأدب ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تفسير للأخلاق) .

والغزالى فى هذا الاتجاه يرد على ابن مسكويه حين ذهب إلى جمود الطبائع وإن لم يصرح باسمه ، وهو مذهب إغريقى مال إليه الفيلسوف المسلم دون دليل ، لأن العيان المحسوس يهدمه ويأتى عليه من القواعد ، ولا أدل فى هذا المجال من الاستشهاد بأقوال من الشعر تنحو منحى القائل :

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

إذ أن الشاعر لايصدر فى قوله عن دراسة مستأنية ، ولكن يخضع لثورات نفسية تجعله يقول بالأمس ما ينكره فى الغد ، ومجال البحث العلمى فى مسائل التربية والأخلاق أضيق من أن يتسع لكل كلام ، فما ظنك بمجال المسئولية والجزاء ..

---

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٣ ص ٤٨ طبعة الحلبى .

هروب إلى التعليل النفسى :

وأعجب ما تقرأ أيضاً التفسير الكيمائى للأخلاق ، محاولتهم الاحتماء بما يتوهمون من التعليل النفسى حين يلتمسون الأعذار للمذنب فى جرائمه بأنه قد وقع تحت (استحواذ نفسى) رهيب ملك عليه آفاق تفكيره ، فهو يفكر فى الجريمة حتى ينتقل من حيز التفكير إلى واقع التنفيذ ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، وفى هذا القول ما يوهم أن الاستحواذ أمر لا مفر منه حين ينشب أظافره فى روح صاحبه ، ولكن الناس درجات متفاوتة ، فمنهم من يملك تلقائياً زمام نفسه فيستطيع التأنى على هواجس الشر ، ومنهم من يحتاج إلى علاج نفسى حتى يسيطر على الزمام ، وما أكثر هؤلاء وأولئك ، والقليل من يرين تحت كابوس الاستحواذ ، والله أدرى بحالته ،وهو يعفو عن كثير ، وحين تقرر ذلك لا ننكر أن النفس تحتاج إلى جهاد شاق كى تستغنى على جواذب الهبوط ، ولكننا نعترف أن هذا الجهاد يؤتى ثماره الطيبة فى أحيان كثيرة ، بحيث تنتصر الإرادة الحرة على التخاذل الموبق ، وإذا كان جهاد النفس حرباً يحتاج إلى أسلحة من الصبر والعزيمة والإيمان ، فإن الانتصار فى هذه الحرب الفردى أمر مشاهد ملموس ، وللمنتصر لذة بهيجة تسعده بالاطمئنان حين يثق بقدراته النفسية على الانتصار إذ ليست الهزيمة حتماً مفروضاً كما يتوهم الواهمون ، وإن إشراق النفس بالأمل خير من إظلامها باليأس ، فرحمة الله قريبة من المحسنين .

افتراء صارخ :

الانتحار الجماعى والدين

جريمة مروعة :

أقدم القس (جيم جونس) زعيم طائفة معبد الشعب على جريمته المروعة فى غابات (غويانا) سنة ١٩٧٨ ، فقتل بالسم مئات الأطفال ، وربط عشرات الرجال فى السلال ، كيلا يفروا من الموت حين تقدم لهم كؤوس الفناء مما أفاضت الأنباء فى سرده إفاضة كانت مبعث الألم الجازع ، والدهشة البالغة ، وما كان لنا أن نعيد ذكرى هذه الجريمة المستنكرة فى هذا المقال ، لولا ما قرأته عن محاولة سفه لبعض المغرضين تريد أن تجعل دين الله مصدر هذا السفه المجنون ، وترى أن الإخلاص الدينى لدى أصحابه يلغى عقولهم ، فيجعلهم ينقادون بإيحاء خادع إلى رئيس متسلط ذى مقدرة بهلوانية على السيطرة القادرة ، فيستغل عاطفة الدين استغلالا ، يجعلهم رهن إشارته ، فيرمى بهم إلى المهالك وهم طائعون مستعذبون ، وزاد الكاتب المشتط ، فقال : ولهذه الحادثة نظائر فى تاريخ الإسلام ، لأنها تذكرنا بالمقنع الخراسانى وما صنعه بمعشره فى العهد الأول لبنى العباس ، مما يوضح أثر التهوس الدينى !! هكذا قال .

حقد أسود :

ويظهر أثر الحقد الأسود على الإسلام فيما قال هذا الآفك ، لأن الجريمة قد قام بها قس مسيحى لا تنسب إلى الإسلام فى قليل أو كثير ، فيجب أولا أن تكون لدى أذيال الشيوعيين باباً واسعاً لهدم الدين بعامة ، ويجب أن تبذل الجهود الفكرية المضنية لجر الإسلام إلى الاتهام ، وإن وقعت الواقعة فى غير دياره وعلى أيدى مخالفيه ، يجب أن تبذل الجهود الفكرية بحثاً عن حادثة مشابهة ليقرن الإسلام بالمسيحية فى جريمة لا صلة لها بالدين الصحيح ، ويجب أن يفحص الدارسون فى صحائف التاريخ ليجدوا

باطلا مزيفاً يحاولون أن يشوهوا به وجه الإسلام ، وهنا تستريح القلوب الحاقدة لأنها وجدت منفذاً للتنفيس عن شررهم الملتهب فى الصدور ، وهى تعلم أنها تلفق وتزور وتحتال ، لأنها لم تجد الاتهام الصحيح ، بل قامت بالاحتيال الدنىء لتجعل الباطل حقاً ، والحق باطلا .

الدين والجريمة الجماعية :

لقد كان الأب (جيم جونس) زعيم هذه الطائفة خارجاً عن تعاليم دينه ، حين دفع بمئات الأرواح إلى الإبادة العامة ، لأسباب يحار العقل فى فهمها ، لأن جميع الأحداث لم تذكر ، وإنما ذكرت الحادثة المروعة بعيدة عن جذورها الأصيلة ، تلك التى تكشف أسرار هذه الجماعة ، أو بالدقة أسرار القائمين عليها ، وبأى أسلوب خاطبوا السذج الأغرار حتى قذفوا بهم إلى سوء المصير ، ومهما قيل عن ذكاء (جيم جونس) وعن قوة سيطرته على الأتباع فهو رجل فاسد الطوية ، دنىء العناصر ، وغد السلوك ، فليس الدين زعامة متغطرسة ذات أمر مهلك وبطش مبيد ، ولكنه قبل كل شىء سلوك خلقى يتجه وجهة الحق والخير والجمال ، ويأمر بالرحمة والعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ! وأى بغى أقسى وأفجع من إزهاق الأرواح البريئة بتأثير خادع . وإذا صدقت الأنباء القائلة بأن القس كان قد أعد العدة للهرب بالأموال بعد حدوث الفاجعة ، لولا أن الله قد أحبط كيده فقد عرفت بعض البواعث ، ونحن هنا نقتصر على إيضاح موقف الدين من هذا الجرم الرهيب .

حقيقة الإخلاص الدينى :

إن القول بأن الإخلاص الدينى يلغى منافذ الفكر هواء باطل ، يعرف مروجوه أنفسهم أنهم مزورون مضللون ، لأن الدين الحق يدعو إلى التدبر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، كما يفسح النظر الثاقب لتأمل أسرار الحياة ومظاهر القوة القادرة للخالق البارئ المصور ، حتى يكون الإيمان به وطيد الدعائم ، لا تزعزعه الشبهات ، ولا تنوشه الأوهام ، وإذا كان الاستهواء الجماعى يرتكز على اللعب بالعواطف ، والعبث بالمشاعر وفق دراسات سيكلوجية تبيح لأصحابها أن يفهموا منازع النفوس وأهواء البشر ، إذا كان الاستهواء الجماعى كذلك فإن الدين الصحيح بمنأى عنه بعيد ، حيث يلزم كل فرد بالتفكير المستقل فيما بينه وبين نفسه ، وفى القرآن

الكريم معجزة بالغة الدلالة على الاستقلال الفردى فى التفكير ، ومجانبة الاستهواء الجماعى ، والدعوة إلى التعقل المطمئن بعيداً عن سيطرة الرأى العام ، مما يكفى لهدم ما يلصق بالدين الصحيح من استهواء وإيحاء .

نص محكم صريح :

يقول الله عز وجل فى محكم كتابه : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد »(١) .

ومعنى هذا النص الصريح أن الجموع المحتشدة لا تستطيع التبصر العاقل ، ولكنها تنقاد للعاطفة ، وتخضع لتأثير شخص يتكلم بلباقة ، ويبدى من الثقة والطموح ما يرفعه فى عيون ذويه ، فيسلمون له القياد عن طوع . لذلك أمر الله عز وجل نبيه الكريم ، أن يقول لأعداء الدعوة الإسلامية من المشركين ما معناه : عندى لكم نصيحة واحدة أعظكم بها ، هى ألا تخضعوا لتأثير جماعى ، بل ينفرد كل إنسان بنفسه ويفكر — وحده — تارة فى صاحب هذه الدعوة أهو مجنون كما يقول أعداؤه ويصدقهم العامة عن استهواء خادع ؟ وهل فى سلوكه قديماً وحديثاً ما يدل على نذق متسرع أو شطط جامح ، ولهذا الذى يخلو بنفسه ليفكر منفرداً أن يراجع ذاكرته فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقد شهد نشأته ومولده وحياته قبل البعثة وبعدها حتى ينتهى لرأى مستقل دون تأثير ، فإذا أحب أن يسترشد بغيره فليتخذ — تارة ثانية — زميلا عاقلا يتفاهم معه بعيداً عن الاستهواء الجماعى ، وسيدور النقاش العاقل البصير فى حدود آمنة بين اثنين ينشدان الحقيقة لا بين جماعة يستهويها مغرور خادع بمخرقته الكاذبة ؛ هذا هو لباب المعنى المقصود من قول الله عز وجل : « أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

والقارئ المنصف يدرك أن الدين الإسلامى بهذا النص القرآنى الصريح يحذر من الاستهواء الجماعى قبل أن يقف علماء الاجتماع على حقيقته بأكثر من اثنى عشر قرناً ! فكيف يقول هؤلاء المحللون أن الاستهواء الدينى مسئول عن هذه المأساة الفادحة ! وأى دين سماوى يقبل تسيير الجموع فى طاعة متجبر نزق يملك تأثيراً خادعاً يضل به السبيل .

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٤٦

عـــوامل قاسية :

إذا أدركنا أن الدين الصحيح برىء من هذه المأساة ، وجب أن نبحث عن أسبابها المعقولة فى واقع المجتمع المعاصر ، الذى تحولت فيه آلاف الكماليات إلى ضرورات محتومة ، فأصبح الفرد العادى مرهقاً أشد الإرهاق بماتطلبه الأوضاع الحديثة من نفقات باهظة ليست فى طوقه والتزامات قاسية فى استيفاء مرفهات المأكل والمسكن والملبس وشتى ضروب الاستمتاع الحضارى ، فإذا آثر التواضع وقنع بالكفاف ، وجد من يحتقرونه ويزدرونه ويرمونه بالتأخر والتقتير ، ولو كان الدين قائماً فى نفوس الناس على وجهه الصحيح ، لكان داعية القناعة والاعتدال ، ومثار الطمأنينة والأمن ، وفاتحة الرجاء والآمال فى عون الله وتدبيره ، فالدين الصحيح نصير مسعف ، ومساعد مخلص لو اتبع الناس صراطه القويم .

وكم رأينا رأى العيان من اشتدت ضائقته ، وسدت منافذ الطمأنينة فى وجهه ، ووجدمن مجتمعه صوت عذاب لا يرحم ، فلا يسعفه غير الأمل فى معونة الله وارتقاب الفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر ، إذ أن الحياة لا تدوم على حال ، ولو كان زعيم المنتحرين رجل دين بمعناه الصحيح لغرس فى نفوس أتباعه ثقة مطلقة فى الله ، وأملا ساطعاً فى معونته ، ولكنه أفقدهم الثقة والأمل ، فضاقوا بالحياة واعتزلوا الناس معه فى بطون الغابات ، ثم ساقهم إلى انتحار جماعى رهيب ، والرجل ليس ذا موهبة خارقة فى سيطرته هذه كما قال بعض دارسيه ، لأن السيطرة على السذج مما تتاح بأيسر الجهد ، وقد انكشفت حقيقته لبعضهم ، فآثروا الفرار هروباً من سيطرته ، وتأكد ذلك ، فدبر لهم مكيدة السم القاتل ، فاحتسوه جاهلين أنه الموت الزؤام ، وقد قيد الأطفال بالحبال ليقعوا صرعى دون فكاك ! فأى إجرام هذا ؟

المقنع الخراســانى :

حاول المغرضون أن يسيئوا للإسلام بالإلماع إلى حادثة المقنع الخراسانى ، وهذا الإله الدعى ليس مسلماً وأتباعه غير مسلمين ! وقد هيأت الدولة الإسلامية جيوشها لمحاربتهم ، إذ خرجوا على الإسلام كافرين ! فكيف تكون المأساة إسلامية وأصحابها كافرون ! وكيف تكون دليلا على أثر الدين فى الاستهواء ؟

أمور يضحك السفهاء منها ــــ ويبكى من عواقبها اللبيب

لقد ظهر هذا الذى سمى نفسه بالمقنع فى عهد المهدى العباسى ، وكان رجلا مشوه الخلقة قبيحها ، أعور قصيراً ، ادعى الألوهية فى بلاد ما وراء النهر ، وزعم أنه بدر يطلع فى السماء ، إذ أنبط بئراً واسعة فى بعض الجبال ، وطرح بها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاع الزئبق يظهر فى السماء كأنه بدر ، فيوهم الناس أن الشعاع هو قناعه الفضى الذى يضعه على وجهه ، فأغوى الناس وفتن العامة هناك ، وإليه أشار أبو العلاء فى قوله :

أفق إنما البدر المقنع رأسه ضلال وغى مثل بدر المقنع

ولما قوى هذا الدجال انضم إليه نفر من أهالى بخارى وسمرقند ، إذ أسقط عنهم الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ودعا إلى الشيوعية فى النساء والأموال ، وكأنه أعاد تعاليم مزدك بعد أن قضى عليها الإسلام ، ثم اعتصم بقلعة حصينة فى مدينة تسمى بكش واضطر المهدى الخليفة العباسى أن يستأصل شر هذا الإباحى المخرق ، فأرسل جيشاً بقيادة معاذ بن مسلم ، فشتت شمله ، ولما تأكد من هزيمته أشعل النار فى القلعة ، وجمع نساءه وأطفاله وسقاهم السم ، فماتوا ومات معهم ...

هذه خلاصة ما كان من أمر هذا الضال .

دعوة إلى النظر :

وللقارئ أن يتأمل ليعجب : يعجب حين يرى جريمة أمريكية دبرها قس مسيحى فى القرن العشرين ، وتكون موضع الدهشة الجازعة ، فيأتى من يحاولون إلصاقها بالدين ! ثم يجتهدون ليجعلوا للإسلام منها نصيباً ، مستدلين بحادثة لم يكن أصحابها مسلمين ، بل كانوا ممن حاربهم الإسلام ليرجعوا إلى الصراط القويم ، « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

الثرثرة الجوفاء

يلاحظ الذى يتسمع أحاديث العامة فى مجالسهم المتعددة تفاهة ما يتعرضون إليه من نواح مختلفة ، فهم يقطعون الوقت الطويل فى ثرثرة جوفاء لا تملأ فراغاً أو تشبع عاطفة ، وقد يعذرون فى ذلك حيث لم تتح لهم التربية الناضجة التى تتجاوز السطح البارز إلى الأعماق الدفينة . ولكن المؤسف حقاً أن تكون أحاديث الخاصة من المثقفين فى أكثر أوقاتها على غرار أحاديث العامة ، تفاهة موضوع ولجاجة حوار دون أن تجد فروقاً واضحة بين الفريقين . فتظل تسمع وتسمع متضايقاً متضجراً ، وقد يلجئك السأم الممل إلى الفرار السريع دون تريث وإبطاء .

ومعلوم أن الناس يتزاورون ويتجمعون فى مناسبات كثيرة ترويحاً للنفس فى لقاء مؤنس وسمر مريح ، وفى مطارحة الأحاديث تتكشف نواح هامة يجدر التنبيه إليها والاستفادة من نتائجها ، إذ أن الجدب الموحش ظاهرة بارزة تسم هذه الاجتماعات بطابعها العقيم ، ولا بد لنا من نظرة فاحصة نزن بها ما ننفق من أوقات وما نندفع إليه من لجاجات .

وأنا أعلم جيداً أن الترويح عن النفس هدف مقصود من التزاور والتجمع ، فليس المجال متاحاً للمناقشة العلمية ، ولن يعقل أن تكون أحاديث الأصدقاء دروساً هامة فى بعض العلوم والفنون ، ولو أنها كانت كذلك – فى نطاقها المنهجى الرتيب – لأصبحت مدعاة السأم والنفور ، فنواجه منها على دسامتها النافعة ما نواجهه الآن من الثرثرة التافهة على هزالها المريض ، ونكون بذلك قد استشفينا من داء بداء ، فالسأم والملال نتيجة واحدة فى الحالتين ، وأظنك بعد ذلك كيف يدور الحديث وعلى أى وضع يكون ؟

إن مشارب الناس متعددة غير متحدة ، فلديهم – على اختلاف طبقاتهم – تباين عجيب يدفع إلى الدهشة والتساؤل ، فهذا مغتاب جرىء لا يكف عن انتقاص معارفه وتتبع عوراتهم ثم هو يفرض عليك حديثه الآسن الكريه دون خجل أو حياء ، وذلك

ناقد يتصدى للمعارضة والجدل فى أبسط ما ينبغى أن يتفق عليه من الأمور دون أن تكون له وجهة نظر غير اللجاجة والمراء ، وذاك متحدث لا يفارق طفولته فى رجولته ، فتظل أحاديثه الطويلة تدور حول نفسه وأهله ، فإذا شاهد تبرماً من سامعه عده إهانة تؤول فى اعتقاده إلى حقد وضغينة ، وتترك فى سويدائه شجوناً سوداء تكدر عليه صفاءه ، وهؤلاء وأمثالهم يجدون فى سمر المحادثة ترويحاً عن خوالجهم المتوثبة ، فكيف تنظم أحاديث الناس مع هذه الأنماط المتنافرة حتى تعود على السامع والقائل معاً بالفائدة والاستمتاع ؟

أعتقد أن تنازل الإنسان عن أنانيته الملحة نجاح كبير لمجلسه ، إذ أن هناك حباً كامناً للسيطرة على النفوس ، يتطلب المنافذ الواسعة للوثوب فى كل مناسبة تحين ، والحديث منفذ متسع يطفر منه المتحدث فيفسح المجال لرغباته ونزعاته ، فما يكاد يسمع كلمة عابرة عن شىء ما ، حتى يندفع فى الحديث عنه دون أن تتحدد فى رأسه أفكاره وعناصره ، وقد يتطرق منه إلى موضوع آخر يلم بنواحيه دون أن تكون هناك علاقة واضحة أو صلة ماسة ، فيظل يبدئ ويعيد فى حديث بعيد عن المشاعر منبت الصلة بالسامعين ، وفيهم بلا ريب من تتملكه شهوة الثرثرة كصاحبه فيضيق به ذرعاً ، إذ سيطر على أصحابه بهرائه الغث دون أن يترك له مجالا يرضى منازعه ، وقد يتلمس السبيل إلى معارضته فيفتح باب المهاترة والادعاء ، وإذا جنح إلى السلامة تلمس البادرة العاجلة فاندفع هو الآخر بذكر ما يتواثب فى نفسه من أوهام ، وهكذا يتصل الحديث فى غير طائل ، وكأن كابوساً ثقيلا قد ران على السامعين ، فهم يجثمون تحته فى ضيق مقلق ، وما يكادون يفترقون حتى يتنسموا بعض الراحة مما يكابدون ، وكأنهم كانوا يواصلون كفاحاً مقيتاً يتطلب بعد انقضائه كثيراً من التسلية والترويح ، ولو تغافل كل إنسان عن أنانيته قليلا لرحم سامعيه من هم ناصب ولغو مرير .

لابد إذن من علاج ناجع لهذه الثرثرة البغيضة ، ولن تسحق الأنانية من الناس فى يوم وليلة حتى نظفر بالشفاء السريع ، ومكافحة الداء فى هذا المرض الكريه تقع على السامع الحصيف ، فهو الذى يستطيع أن يوجه الحديث وجهة صالحة دون تصادم سافر ، فقد يسأل سؤالا لطيفاً يرمز إلى الإيجاز المقتضب فى غير مواجهة ، وقد يخرج بالحديث حيناً آخر من نطاقه الشخصى إلى مدى فسيح عام نتعلق بمشكلة قومية أو حادثة مشتركة تشغل الجمهور ، وسيشعر الثرثار لا محالة ببعض الضيق من انقطاع تياره

الخاص ، ولكن الابتسامة المصطنعة والرفق الشامل والبشاشة المتصلة ، كل أولئك قد يهون من شجونه ، بينما يتلقى درساً عملياً يكشف عن شذوذ الأنانى ، فلا يعود إلى اللغو السقيم ، كيلا يلدغ من جحر مرتين ، وبذلك يتعلم الناس شيئاً فشيئاً آداب الحديث .

وقد يكون فى بعض المجالس شخصية مرموقة تسيطر بمكانتها على المجتمعين ، وتتجه لها الأنظار والأسماع ، وإذ ذاك يجب أن يلقى عليها العبء — إن عد ذلك عبئاً — فى توجيه السمر وتلوين الحديث ، ومتى سلم صاحب هذه الشخصية من الأنانية الأليمة فقد ظفر المجلس بكسب مفيد ، إنه يستطيع أن ينتقل بالحديث إلى غير وجهته ، إذا أحس بعض اللجاجة والفضول ، كما يمكنه أن يرتفع بمستواه إلى حد تسيغه الأفهام ولا ترفضه ، وقد يكون من اللائق أن يفسح بعض الشىء لغيره ، مكتفياً بالتعليق المقنع ، فإذا تم ذلك شعر الحاضرون براحة المستفيد الذى تشبعت روحه وامتلأت نفسه من شراب لذيذ لم يتطلب عنتاً فى الإعداد والتهيئة ، ويرجع إلى السمر لذاذاته الخالصة وأثره الحميد .

وقد يظن بعض الناس أن السمر بالمجالس لهو خالص لا سبيل إلى تقييده بأوضاع أو اتسامه بتقاليد ، وربما كانت الفكاهة المضحكة حينئذ إحدى مميزاته ، وهذا صحيح إن استقام على نهجه القويم ، ولكننا نجد الفضوليين يجنحون به إلى الثرثرة والتشدق حتى يعود سخيفاً مقيتاً وهراء مشيناً ، بل كثيراً ما يخطئ المتسامرون معنى الفكاهة فيظنونها فى التسفل اللفظى والولوع بنوادر الرعاع ومضحكات الطغام مما لا يجب أن يتكشف الحديث عنه فى مجتمع ما ، ونحن لا نريد أن نضيق على الناس منافذ الترويح ، ولكننا نحذر من الانكشاف الفاضح الذى يبعث على الاشمئزاز لدى الضمائر الحية ، فلا تتحمل الإغضاء عنه بحال ، والواقع أن الإنسان اللبق يستطيع أن يعبر عن أدق الأمور الحرجة بأسلوب مقنع لا يحرج سمعاً أو ينحط بقائل ، وفى اللغة العربية من الكفايات الطريفة ما تتضاءل أمامه الحقيقة السافرة ، فالتبدل فى أكثر وجوهه يرجع إلى انحطاط اللفظ ، وضيق التعبير أكثر مما يرجع إلى الفكرة الهابطة والمعنى الجارح ، ومتى لاحظ المتسامرون ذلك فلهم أن يتحدثوا كما يشاءون دون مؤاخذة وانتقاص ، على ألا يكون تندرهم على حساب فرد آخر فيخرج بهم الحديث من الفكاهة العذبة إلى النميمة والاغتياب .

ويدهش من يطالع حيوات كثير من عظماء التاريخ وقادة الفكر فى الأمم، إذ يجد أن ندوات المجالس قد حملت فى طياتها بذور تكوينهم وعناصر شخصياتهم ، فقدأتاحت لهم تفهم النفسيات المعقدة وملافاة الاحتدام الجدلى ، كما لقنهم الاحتكاك الخطابى أساليب المرونة والمداراة ، فتكاملت ذواتهم الإنسانية تكاملا ناضجاً يقوم على سبر الأغوار وإظهار الدوافع ، بل إن الفائدة العلمية وحدها ببعض المجالس النافعة قد تغنى غناء مدرسة ذات أساتذة ومرشدين ، ونحن نعلم أن مجالس الأستاذ الإمام محمد عبده قد خرجت وحدها شاعر النيل حافظ إبراهيم ، فكان يسمع باسم الكتاب لأول مرة من متحدث فاضل فى ندوة الإمام ، فيبادر إلى تصفحه واستيعابه ، ويرى فى مصاولة العقول غذاء دسماً يغنى غناء الدراسة الشخصية ، بل ربما فاقها فى بعض أحواله ، إذ أن المتحدث من أفاضل النابهين يذكر دائماً الرائع المنتخب من أفكاره ، ومعارفه ، فلا يتحف رفقاءه بغير الدسم المفيد ، فى حين أنك تدرس الكتاب من الكتب فتجده تارة شهياً نافعاً ، وتارة أخرى يخلف ظنك به فيطالعك بالتافه الممجوج ، وتتحسر حينئذ على الوقت المبذول فى استيعابه والمال المعطى فى شرائه .

وإذا كانت الندوات تضم أشتاتاً مختلفة من الناس فإنها تتيح بذلك معارف متنوعة، فإذا اجتمع المهندس والطبيب والقاضى والمدرس فى مجلس واحد ، وامتد بساط الحديث ، فيتحدث كل بما يكشف عن ثقافته ويبرز عن مناحيه ، ولن نزعم أن كلا من هؤلاء سيتحدث حديثاً علمياً عن مهنته الخاصة ، فذلك ما لا يكون بحال ، ولكن وجهات النظر دائماً تتكون من ثقافة الإنسان ، وقد يتلاقى الجميع لدى فكرة معينة ولكن فلسفتها الخاصة وتعليلها المنطقى يختلف لدى كل متحدث وفق منازعه العلمية واطلاعاته الشخصية ، وفى ذلك كله تلقيح للذهن ، وارتشاف من منابع الحكمة ، لو قدرت المجالس قدرها فربأ جلساؤها بأنفسهم عن السفاسف الوقتية وذكروا نعم الله على العقول والأذهان ، وفى الدعابة التى تتخلل الحديث ، وفى سمات المتحدث المهذب وفى التندر بالظواهر القلقة فى غير تجن ولا إسراف ، فى ذلك كله ما يحيل الندوة إلى أمسية حافلة فاتنة، وهناك شعور نفسى بالرضا والاغتباط يغمر الإنسان حين يرتفع بحديثه إلى مستوى ثقافى حميد ، فيلمس تفوقه الذهنى ويشهد إعجاب سامعه وتقديره ، وفى ذلك إرضاء لبعض المنازع الكامنة فى أطوائه مهما حاول التنصل منها ، ومهما

استترت عنه فخدعته إلى حد ما ، ولكنها لم تنعدم انعداماً يحتم علينا أن نتجاهلها أو نتضايق من إعلانها ، إذ أن الإنسان هو الإنسان .

وإذا كان ارتقاء الحديث يتيح خيراً كثيراً للسامعين ، فإنه من ناحية أخرى يدفع شراً مستطيراً تنجم بوارقه بين الحين والحين ، فتفاهة الموضوع تجعل من اللجوج الملحاح ثرثاراً كثير التخبط والسقطات ، وهو لضيق نظره يتعرض للناس مصرحاً بالأسماء مستدلا بالوقائع ، ولابد من نقد يزيد ويتسع حتى يصبح سباباً ، فإن لم يبلغ ذلك فهو تعريض مفصح لا يعدم من يحمله إلى صاحبه المنقود فيؤجج الضغائن ويثير المواجد ، ورب كلمة عاثرة قذف بها قائلها فى غير تدبر عاقل فتفتحت أبواب التطاحن والشجار بل إن كثيراً من الحروب المدمرة فى تاريخ البشرية كانت نتيجة لحديث تبودل وثرثرة هذيها صاحبها دون اكتراث ، فعادت على الأمم والأفراد بالويل والثبور .

ومن هنا دعا الإسلام إلى النجوى الصالحة والكلمة الطيبة ، فقال الله عز وجل : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »(١) . وروى البيهقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض ، وإن الإنسان ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه) . ولكبار المفكرين من ذلك نفثات رائعة لا يسعها هذا المجال .

إن من احتقار المواهب الإنسانية أن يفيض عقلاء القوم فى حديث ممرور لا يجلب غير الحنق والضيق ، وقد تكون التفاهة معرة للجهلاء والإقدام ، ولكنها للمثقفين كارثة يفر فيها الصبر ويند عنها العزاء ، فليت الذين أوتوا نصيباً من المعرفة يتركون هراءهم الآن إلى سمر ينعش الأرواح ويسمو بالأخلاق ! !

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤

صدق الحديث

كان عصر النبوة على قصر مداه – إذا قيس بما تلاه من العصور – حافلا بشتى المواقف الصالحة للاحتذاء ، وكأن الله عز وجل أراد به أن يكون مجال العبرة للمسلمين فى شتى الأحقاب ، وملتمس الهداية للحائرين ، يسيرون على ضوئه ويعشون إلى ناره . وهذا بعض ما يفهم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خير القرون قرنى) ، لذلك كان من تيسير الله عز وجل ألا تزال تشع العظمة منه على الناس بأنوارها الباهرة فما من موقف لصحابى كريم إلا وهو مجال طيب لتأمل المهتدين ، أما رسول الله ، أشرف الخلق ، فناهيك بمواقفه .

لقد تحدث الأخلاقيون عن ضرورة الصدق ، وعدّوه شرطاً هاماً لصلاح المجتمع وهبوا يكتبون الصفحات فى ضرورته ، ثم حلا لهم أن يضربوا الأمثلة من واقع التاريخ ولكل فى ذلك وجهة يهدف إليها ..

ولكن رجال الأخلاق من أبناء الإسلام لا يجدون فى مجال الاستشهاد أعظم تأثيراً ولا أقوى نفاذاً من عهد النبوة الكريم ، لأن رجاله رضى الله عنهم قد شاهدوا مشرق الوحى ، ونعموا بصاحب الرسالة ، فرأوا الصدق المجسد إنساناً يتكلم ورجلا يعمل ونبياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فكان هذا القرب القريب من رسول الله قوة نفسية ترتفع بأرواحهم ، وتسمو بمعاملاتهم ، حتى صار الواحد منهم كتاباً مفتوحاً ناصعاً يقرأ فيفيد ..

لقد سجلت كتب العصر سيرة بلال رضى الله عنه بما ذاع واشتهر لدى الناس ، بحيث أصبحت حياة هذا الإنسان الكريم مما تستحيل على النسيان ، ولن أشير هنا إلى صبره واحتماله وما لاقى من الأذى فى سبيل الله مما ينبئ عن إيمان قوى تتزلزل الراسيات ويستقر ، فكل ذلك مستفيض مشتهر ، ولكنى أنقل شيئاً من حديثه لا أظن الكثيرين ممن درسوا سيرة بلال قد ألموا به ، وهو على وجازته مما يبعث القدوة ويدعو إلى التقدير .

روت كتب التاريخ فقالت : (خطب بلال رضى الله عنه لأخيه خالد بن رباح امرأة من بنى حسل من قريش ، فقال بلال وهو يقدم نفسه وأخاه لمن يريد مصاهرتهم : (نحن من عرفتم يا قوم ! كنا عبدين فأعتقنا الله ، وكنا ضالين فهدانا الله ، وكنا فقيرين فأغنانا الله ! ... وأنا أخطب إلى خالد أخى فلانة منكم ، وهى ذات حسب ودين ومروءة ، فإن تنكحوه فالحمد لله ، وإن تردوه فالله أكبر !) .

سمع القوم وسكتوا قليلا ، ثم أقبل بعضهم على بعض يقولون : (هو بلال) وليس مثله من يدفع ! .. ثم أجمعوا على قبول الخاطب ، فخرج بلال وأخوه وقد قضيا وطرهما ، ولكن خالد قد وجد لحديث أخيه بعض الألم فقال له : (يغفر الله لك يا بلال ، ألا ذكرت سوابقنا وشواهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) .. فصاح بلال : (مه يا خالد ، صدقنا فنفعنا صدق الحديث) .

فى هذه الأسطر القليلة ما يشير إلى اختلاف وجهتى النظر بين بلال وأخيه خالد ، فقد كان من رأى الخاطب الراغب أن يتحدث أخوه للقوم عن مآثرهما فى الإسلام من سبق للدين الجديد ، وجهاد فى سبيل الله ، وإحراز لثقة نبى الإسلام ، فذلك مما يرتفع به قطعاً على كثير من السادة ! وهذا ما يوحى به الموقف فى رأى خالد ، إذ أن المقام مقام قبول أو رفض ، ولن يتيسر القبول إلا بالتحدث عن مآثر السبق ، ومواقف الجهاد ، وموضع الحظوة من رسول الله ! .. وذلك مسلك ينتهجه الخاطبون فى معرض التفاضل والموازنة .. ثم أن بلالا رضى الله عنه لو وافق رغبة أخيه وسلك المسلك الذى يريده فى اتجاه الحديث ما خالف الواقع الوضىء فى شىء ، فتاريخه عامر بالتضحية ، ملىء بالنضال ، فعلام يترك هذه المحاسن الباهرة ؟ .. وكيف يميل بالحديث إلى جانب متواضع ، لا يثقل كفة الميزان ثقلا يميل بأخيه إلى الرجحان ..؟ .

ولكن بلالا رضى الله عنه كان أبعد نظراً وأصوب اتجاهاً من أخيه ، فهو يعلم أن المصاهرة تقتضى المكاشفة الصريحة والصدق الصحيح ، والحديث عن جهاده فى الإسلام لا يمحو تاريخه من الرق فى ذاكرة الناس ، فقد يكون فيمن يتقدم إلى الخطبة لديهم من بنى الحسل من لا تزال نعرة الجاهلية تعصف برأسه ، فيرى تقدير الناس على غير ما هدى إليه الإسلام ، ثم إنه — لا شك — يعرف أن جهاده فى سبيل الله ليس من الخفاء بحيث يتحدث به ، فهو مشتهر ذائع ، فلابد إذن أن يواجه الموقف من أعسر أبوابه لينتظر ما سيكون .

وقد كان الصحابى الجليل لبقاً فى قوله : (وإن تردوه فالله أكبر) ، إذ أنه عرض فى هذه العبارة الدقيقة الموجزة رأى الإسلام الذى يدينون به ، ومعناه الصريح : إنكم إن ترفعتم علينا ورأيتم أنفسكم أكبر وأعظم من أخى ، فالله عز وجل أكبر منكم ومن كل كبير ، فإياكم والكبرياء ! . وهذا بعض ما جعل بنى الحسل يتلاحظون متسائلين عند سماع هذا الكلام ، ثم يقبل بعضهم على بعض وهم يقولون : هو بلال وليس مثله من يدفع ..! .

فانظر إلى أثر الإسلام فى إزالة الفوارق الجاهلية وتعميم الأخوة الإسلامية فى دين صار أبناؤه سواسية كأسنان المشط ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم إذ لا فضل لعربى على عجمى إلا بتقوى الله ، ولك أن تسأل : أكان بلال — لولا الإسلام — ممن يجرؤ على أن يتقدم إلى حرة قرشية فيخطبها لأخيه مهما أعتق وتحرر ، أما والله لو جرؤ على ذلك فى مجتمع جاهلى لبرقت أسنة وسالت دماء ..! .

ولنا أن نقف عند قول خالد لأخيه : يغفر الله لك ، ألا ذكرت سوابقنا وشواهدنا ؟ فإن طلب المغفرة يصور ما يراه خالد من نشاز أخيه فى هذا الموقف ، حيث سكت عن الفضائل اللائحة فلم يشر إليها فى شىء ، وقد أدرك بلال رضى الله عنه ما يعتمل فى نفس صاحبه ، فقال مسكناً إياه : مه ، صدقت فأنكحك الصدق ، لأن الصحابى الجليل رضى الله عنه يرى الخير كل الخير فى هذا الخلق النبيل حتى لو لم يتحقق ما ينشده من تزويج ، فقد يكون هذا خيراً لايدريه ، إذ كثيراً ما تمنى الإنسان الشىء دون أن يفطن إلى ما سيجلبه عليه من شرور ، وقد رأى بلال بعد خروجه أنه صدق فنفعه الصدق وحده ، وفى هذا اعتبار ..

هذا موقف من مواقف الصدق نقرنه بموقف آخر لعربى صريح ، وقد كان يرى الصدق من خصائص الرجولة التى لاتفارقها بحال ، فهو يتفرس فى وجه صاحبه ليسمع منه وقد ظهرت من ملامحه دلائل تنطق بالصدق ، وإذ ذاك لامجال لمناقشته حتى فى أدق المسائل وأحرج المواقف ، إذ لا يناقش إلا كاذب محتال ، أما العربى الأصيل فصادق يقوم بأعباء الرجولة الحق ، حين يتخذ الصدق سمة لاتفارق وخاصية لاتزول ، ويزيد هذا الموقف بهاء وروعة ، وجميل عظة أنه مع رسول الله ، وهو الصادق الأمين.

ننقل عن صحيحى البخارى ومسلم مثالا فذاً لهذا الاعتقاد الحاسم فى حتمية الصدق ،

إذ لا معدى منه فى الحديث ، وهو مثال رائع يتضح فى موقف أعرابى صادق من سعد بن بكر ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله واستمع إليه ، ثم أعلن إسلامه غير ناكص ، إذ وثق بصاحبه وثوق من يعتقد أن الصدق طبيعة الرجل القائد ، فما عنه محيد .

لقد أخذت كتب رسول الله فى السنة التاسعة من الهجرة تتطاير إلى أكثر الأصقاع العربية فى شبه الجزيرة لتدعو الناس إلى كلمة الله ، وقد جاء خبرها إلى ضمامة بن ثعلبة أحد سادات بنى سعد بن بكر ، ففكر وتأمل ، ثم رأى أن يرحل بنفسه إلى المدينة المنورة ليقف شخصياً على خبر الدعوة الجديدة ويرى صاحبها الكريم ، فاقتعد راحلته ومضى بها وحده يصل الليل بالنهار حتى أناخ بباب المسجد النبوى الشريف ، فعقل بعيره ، ونظر إلى جماعة من المسلمين يتحدثون ، فتقدم إليهم دون تلكؤ وصاح فى قوة : ياقوم ، أيكم محمد رسول الله ؟

فنهض أحد الصحابة وأشار إلى سيد المجلس ، وكان صلى الله عليه وسلم يجلس متكئاً ووجهه يتلألأ كالقمر الأزهر ، فدنا منه ضمامة بن ثعلبة ، وسأل فى اهتمام : أأنت ابن عبد المطلب ؟ .

فرد الرسول بالإيجاب ...

فاندفع ضمامة يقول : إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد على فى نفسك ...

فقال رسول الله مبتسماً : سل ما بدا لك ...

فقال ضمامة : أسألك بربك ورب من قبلك : آلله أرسلك للناس كلهم ؟

قال رسول الله : اللهم نعم ..

فقال ضمامة : أسألك بربك ورب من قبلك : آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟ .

فقال رسول الله : اللهم نعم ..

فقال ضمامة : أنشدك بالله تعالى : آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على الفقراء ؟ .

فقال رسول الله : اللهم نعم ..

فصاح ضمامة : لقد آمنت إذن بما جئت به ، وأنا ضمامة بن ثعلبة أخو سعد بن بكر ..

نقرأ هذا الحوار فى كتب السنة المطهرة فنقف على شىء كبير فى مغزاه .. فضمامة قد اعتقد أن الصدق حتم مفروض على كل إنسان ينتسب للكمال ، وقد جاءته أنباء الدعوة المحمدية فى باديته البعيدة ، فألم بأحوالها حائراً غير متيقن ، ثم رأى أن يخبر الأمر بنفسه فلا يصغى لأحد حتى يقابل الرسول ويناقش ويسمع ويرى ثم يصدر الحكم ، فأسرع بالرحلة إلى المدينة وهو فى طريقه المديد لا ينى يفكر فى أمر هذا الدين الجديد ، إذ صار شغله الشاغل ، وهمه الوحيد ، وكانت فى الأعرابى السعدى فراسة حصيفة ، فأخذ يتأمل وجه رسول الله ليأخذ من مظهره الواضح ما ينبئ عن مخبره الشريف ، حتى امتلأت عيناه من نوره ، تقدم يسأله عن ربه راصداً ملامحه ، متأملا قسماته ، متابعاً إجاباته ... وقد أخذ من ذلك كله ما تيقن به صدق رسول الله ، فهو إذن نبى ، إذ لا يمكن لمثله أن يكذب على الناس ، وأولى به ثم أولى ألا يكذب على الله ، وكان لابد أن يعلن إسلامه حين اقتنع فبسط يده ليبايع ، ثم تولى ...

إن العناصر الممتازة التى تصورها ضمامة فى كل إنسان يرتفع بصفاته إلى مستوى الأحرار قد قربت المسافة وشيكاً بينه وبين الإسلام ، فلئن كان هذا الأعرابى الحر يرى الكذب سبة شنعاء ، وخطيئة نكراء ، فقد رأى بفراسته الصادقة أن محمداً صلى الله عليه وسلم ممن يقدسون الصدق فلا يكذبون ، والأمانة فلا يخونون ، وجاء إسلامه نتيجة حاسمة لتقديره التام لتبعات الرجل الحق ، والقائد المثل .

وليت شعرى إذا انتشر مبدأ ضمامة — وهو فى صميمه مبدأ الإسلام — فحرص الناس على الصدق وعدوه رأس الفضائل ، وتجنبوا الكذب وعدوه أس الرذائل ، أقول : إذا انتشر مبدأ ضمامة ... أما تتحقق المدينة الفاضلة فى المجتمع البشرى فنحيا جميعاً فى سعادة ونور لا كما نحيا الآن فى تعاسة وظلام ، ونعيش بين ملائكة مطهرين لا كما نعيش بين ذئاب وضباع ... ؟ ! .

وتسألنى عما تم بعد رحيل ضمامة إلى قومه ، لقد روى الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جمع أعيان قبيلته ، فحمد الله وأثنى عليه ومدح رسوله وعظمه وحبذ الإسلام وفضح اللات والعزى ، فما أمسى فى قبيلته رجل أو امرأة إلا أسلم حتى قال ابن عباس : ما سمعنا بوافد كان أفضل من ضمامة بن ثعلبة .

هذا هو ضمامة ، وذاك هو بلال ، فما أشد حاجتنا اليوم إلى من يقتفى أثرهما فى أمانة القول وصدق الحديث ، ولهما بعد فى تاريخ المسلمين أشباه وأمثال .

انتفاع المسلم بوقته

أكثر ما يجنى على الذكاء أن يكون صاحبه ضعيف الخلق خائر العزم ، فلا يستطيع أن يجنى ثمرة عقله الثاقب ، أو يستغل ثروة فهمه الصائب ، ولو رزق صاحب الذكاء خلقاً قوياً ، وعزماً صحيحاً ، لترك — فى ميدان العمل الجاد — ما يسعد أمته ، ويرفع ذكره ، بدل أن تضيع موهبته بدداً فى الحياة ، فلا تعود بنفع شخصى على ذاته ، أو بفائدة مثمرة على ذويه ..

وأقول فى ميدان العمل الجاد ، وأعنى به ما رجع بالسعادة على الإنسانية فى أى فرع من فروع الحياة ذات الغصون المتشعبة فى شتى الجهات ، لأنى أعرف وأقرأ عن كثير من ذوى الذكاء النفاذ ، والمهارة المدربة ، ما يشعل صدر الغيور بالحسرة حين يعلم أنهم يقضون الوقت عاملين دائبين ، ولكن فيما يثير الضغائن ، ويورث الأحقاد ، فإذا كتبوا أو ألفوا أثاروا الفتن وأحيوا الشبهات ، وبحثوا عن وسائل الشقاق والتدابر ، وإذا احتالوا ففى إزعاج النفوس وضياع الحق وتثبيت الباطل ، وكأن التكاسل وضياع الوقت أجدر بهؤلاء من ملء زمانهم فيما يتعس ويشقى ! وكنا نرجو — مع تقدم الحضارة وازدهار العلم — أن تتقدم الأخلاق والفضائل ، ولكنها — كما قال أحد القادة من المفكرين — حضارة بلا أخلاق .

لنترك هؤلاء فى غيهم يعمهون ، ونعود إلى من ينتظر منهم الخير إذا ملأوا أوقات فراغهم فيما يفيد ، فنعلن أن ما يؤتى صاحب الذكاء من ناحية تكاسله المفرط ، إذ يستسلم إلى الراحة الساكنة ، فيمر عليه الوقت الطويل دون أن ينفقه فى قراءة منتجة أو تجارة مثمرة أو صناعة رابحة ، بل يكفر بموهبته كفراناً يجعلها ضائعة الأثر فى قومه ، فكأنه تجرد منها تجرداً يلحقه بالسذج الغافلين ، وهؤلاء معذورون إذا ضاع الوقت لديهم هباء ، ولكن ما عذره هو ؟ ..

وإنك لترى عجباً فى الحياة ، إذ تشاهد من معارفك رجلا محدود الذكاء ،

متوسط الموهبة ، ولكنه يشحذ عزيمته ويستجمع قوته ، فى عمل دائب متواصل ، فلا يكاد يستسلم للراحة إلا قدر ما يهدأ باله ، ويستجمع نشاطه حتى إذا أخذ قسطه من الجمام هب إلى عمله مثابراً دؤوباً ، ويمضى الوقت فإذا إنتاجه المتصل - على قدرته المتوسطة - يرفع من قدره ، وإذا ذكره بالخير يشيع فى قومه ، وإذا مكانته فوق مكانة من يفوقونه ذكاء وبصيرة ، وتبحث عن السر فى ذلك فتراه كسب الوقت فيما يفيد ، وترك الدعة المتطاولة فى غير عمل ، لأن الحياة لا تعطى - فى الأعم الأغلب - غير من يواصل السبح الدائب فى الخضم الهائج حتى يصل إلى المرفأ البعيد، مستجمعاً عزيمته الغالية ، مستصرخاً صبره المديد ..

يقول الناس كثيراً : إن الوقت من ذهب ، وهو قول راشد أوجزته جملة صغيرة كادت تفقد مدلولها لدى كثير من الناس ، إذ لم تعد تلهب عزيمة ، أو تشحذ همة ، لأن اشتهارها الذائع قد أخمد أثرها فى النفوس ، وكأن تكرارها المتواصل على ألسنة الناصحين من الآباء والمتعلمين جعلها لا تقدم شيئاً ذا بال ، وكان من جراء ذلك أن ساد الكسل جماعات كثيرة يرجى منها الخير إذا نشطت للعمل ، ونفضت عنها غبار الدعة والاسترخاء .

وإذا كانت إضاعة الوقت مذمة تلحق الكسالى جميعاً دون استثناء ، فإنها بين أهل الثقافة والعلم أشد معابة ، وأفدح خطراً ، فإذا جاز لك أن تؤنب العامل الكسول ، أو التاجر الخامل ، أو الزارع المتواكل ، حين يتراخون عن أداء عملهم الملزم ، فإن المثقف المستنير أشد استحقاقاً للملامة والتثريب إذا اجتر وقته الطويل اجترارا فيما لا غناء فيه ، وأنا أعرف من أساتذة الجامعة دون أن أسمى أحداً - فالحديث موضوعى لا ذاتى - من قضى أكثر من عشرين عاماً ، يدرس مادة معينة ، لفرقة واحدة ، ذات منهج لم يمسه تعديل على توالى السنين ، وقد قضى هذه السنين العشرين يملى مذكرة واحدة هى كل حصاده التأليفى فى دنياه ، وهى بعد لا تجمع غير المشترك المعلوم من القضايا المشتهرة فى مادته ، حتى ليغنى عنها أى كتاب يؤلفه غير أستاذ متخصص ، فأى فراغ قاحل يعيشه أمثال هؤلاء ؟ ولعمرى كيف يجوز فى منطق العقل أن يقضى الإنسان المثقف وهو فى مستوى الأستاذية الجامعية سبعين عاماً من حياته ثم يعبرها إلى الراحة الدائمة دون أثر واضح ، وكأنه عاش سبعين يوماً ، لاسبعين عاماً !

وقد تقول لى إن التأليف العلمى وحده ليس كل شىء فى حياة العالم والأستاذ ، فهناك من يؤلفون الرجال لا الكتب ، مثل جمال الدين الأفغانى وحسن البنا وعبد الرحمن الكواكبى وأمثالهم ، وأنا لا أخالفك فى شىء مما أقول ، ولكنى أجزم أن من يرتضى أن يكرر مذكرة واحدة طيلة حياته الجامعية ، لايستطيع أن يكوِّن طالباً ممتازاً يخلق فيه عزيمة واثبة ، وطموحاً مشرئباً ، واستشرافاً إلى آفاق التجديد ، إذ أن فاقد الشىء لا يعطيه ..

أترك ذلك متنقلا إلى وجهة مقابلة ، فقد فهم قوم آخرون ، يقفون من الفريق الأول موقف النقيض من النقيض ، أن الانتفاع بالوقت فى مضمار التأليف العلمى هو الإكثار من الحشد المتصل فى كل مادة أو فرع ، دون مراعاة للتخصص ، فلا يكاد يمر العام الواحد حتى ترى للمؤلف منهم ثلاثة كتب أو أربعة وتقرؤها جميعاً فلا تجد إضافة جديدة ، وهذا شىء طبيعى ، لأن البحث الأدبى أو التأليف العلمى عمل وعر شاق لا يعطى ثماره دون أن ينقضى الزمن الطبيعى لغرس البذرة ، موالاة الأرض الطيبة بالرى والتسميد ، ومواصلة التعرض للحرارة والهواء ، حتى تنمو السيقان وتمتد الفروع وتكتسى الأغصان ، فإذا لم تنقض المدة الطبيعية فلا ثمرة على الإطلاق !

وقد كنت أناقش من يفعلون ذلك فأحتج بأن الطبرى رحمه الله — كما روى الذهبى فى تذكرة الحفاظ — قد قال لأصحابه : هل تنشطون لتاريخ العالم ! فقالوا : كم يجىء ؟ فذكر نحواً من ثلاثين ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فقال : إنا لله ، ماتت الهمم ، فأملاه فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ! وحين أراد رضى الله عنه أن يكتب التفسير قال لهم ذلك ، فاستهولوا الأمر ، فكتب التفسير فى نحو ما كتب التاريخ ! قالوا ولو حسبت أيام ابن جرير الطبرى التى قضاها فى حياته ثم قسمت على عدد الصفحات التى كتبها فى فروع العلم لصار لكل يوم أربعة عشرة ورقة ! .

هكذا كان الطبرى فى عصره ، وهكذا يتترس به من يجمعون ويغشون دون تجديد ، وللطبرى زملاء صنعوا صنعه ، وأكثروا إكثاره ، ولكن الذين يتخذونهم مثلا لشغل الوقت فى الجمع والتسويد ، يغفلون عن شىء هام عجبت لهم كيف يغفلونه وهو أن مفهوم التأليف فى عصور السابقين غير مفهومه فى هذا العصر ، فقد كان المؤلف الموسوعى من هؤلاء يعمد إلى جمع الروايات المختلفة ، والأقوال المتعارضة

دون ترجيح فى أكثر الأحيان ، وفى هذه الروايات المسطورة ما يجزم العقل بخطئه بداهة دون فحص ، لأن منهج التأليف إذ ذاك كان لايخرج عن المدلول اللغوى الأول لكلمة التأليف ، فهو جمع وتتبع واستقصاء ، حتى لتقرأ فى الحادثة الواحدة بضع روايات مختلفة يلطم بعضها بعضاً ، وهى بذلك تقدم مادة البحث العلمى لمن يريد أن يكتب الآن ، فكأن مفهوم الأمانة العلمية لدى السابقين قد دفعهم إلى تسطير شتى الروايات ، وقد ينصون على فساد بعض ما يخطون ، ولكن ذلك ليس عاماً فيما يجمعون !

هذه الطريقة الجامعة قد خدمت التراث التاريخى حين قدمت كل ما يروى ويقال وحين أسندت كل لراويه ضعيفاً كان أو قوياً ! ولكنها مرحلة قد انتهت من زمن بعيد لتخلفها مرحلة الموازنة والترجيح ، والبحث عن العلل والأسباب ، ولو أن ابن خلدون قد وجد صداه القوى فى عصره لأنشأ مدرسة تكتب العلم على نمط جديد ، ولكنه قد تقدم زمانه بقرون ، فلم يقدره حق قدره سوى أعلامنا المعاصرين .

فالاحتجاج بالإمام الطبرى وأمثاله يغفل فارق الزمن والهدف واختلاف النظر ، بل يتجاهل المفهوم المعاصر للبحث العلمى تجاهلا لا ندرى متى نقضى عليه ! والانتفاع بالوقت على وجهه الصائب لا يكون إلا بالعمل المثمر الجاد ، ولكن يكون بالنظر الكمى وحده دون تقدير للكيف ، وفى اعتقادى أن من يؤلف كتاباً واحداً يتضمن الجديد المستنبط — خطأ كان أو صواباً — أفضل ممن يردد آراء السابقين فى عشرة كتب مختلفة الأسماء ! وأضرب المثل لذلك بكتاب (إحياء النحو) للأستاذ إبراهيم مصطفى رحمه الله ، فقد خط منهجاً ودعا إلى طريقته ، وقد يكون الرجل مسبوقاً دون أن يعلم بمن وافقه فى منحاه ، وقد يكون الرجل قد أخطأ عدة أخطاء قام بتصحيحها عالم آخر فى كتاب مخلص ينقد (إحياء النحو) نقداً موضوعياً لا غبار عليه بحال ! قد يكون ذلك كله ، ولكننا لا ننكر أن الكتاب وليد جهد مبتكر ، وأساس حركة نقدية مثمرة ! وهو ليس كتاباً تقليدياً يمليه مؤلفه أو يقرره عشرين عاماً على تلاميذه ، دون أن يكون من فصوله ما يدل على جدة الاستنباط ، وقوة التخريج ، ووضوح المفهوم .

لقد تقدم الغرب اليوم على الشرق فى أكثر فنون الحياة العملية ، وأن تقدمه الصناعى ، وازدهاره الحضارى ، وتفوقه العلمى ، لحقيقة واقعة لا يمترى فيها أحد ، وهى فى لبابها الأصيل ترجع إلى الانتفاع بالوقت ، وتهيئة الدوافع إلى الإنتاج المثمر ،

على حين يرجع خمول الشرق فى أكثر بلاده المتسعة إلى الإفراط فى الكسل ، والركون إلى البطالة . وقد يكون الاستعمار الغربى أحد الأسباب المهيئة لهذا الخمول المظلم بما ثبط من همم ، وأوصد من أبواب ، واضطهد من رجال ، ولكن العزيمة الصادقة تقاوم الصعاب وترتفع عليها ، لأن الحياة عقيدة وجهاد .

ومن العجيب أن يخلد إلى التكاسل نفر يشيع فيهم المثل القائل (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك) ودينهم من فوق ذلك كله ينادى كل إنسان أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً ، وتاريخهم السالف ينطق بالحركة المثمرة والسعى فى جنبات الأرض حتى استطاعوا فى ثمانين عاماً أن يعمروا من المساحة الكونية ما لم تعمره الدولة الرومانية فى ثمانية قرون ، فنشروا لواء الحضارة فى زمن سادت فيه الهمجية ، وهى سابقة تاريخية تؤذن بأخرى مثيلة لها ، إذا صدقت الهمم ، وطرح الخاملون عنهم رداء الكسل المميت ! .

وإذا كان لكل عمل خطره المتوقع ، وانحراف فهمه عن الجادة ، فقد فهم بعض الناس أن الدعوة إلى كسب الوقت تعنى عدم الراحة ، ومواصلة الكدح دون اطمئنان ، وهذا فهم ضرير لا يتجه إلى النظر السديد ، لأن الراحة المنشطة والفراغ المريح ضرورة ملزمة للعمل الجاد، ولكننا نعرف أن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى ، وقد كنت أحسب أن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا تناقش ، ولكننى رأيت نفراً من الكاتبين عن استثمار الوقت يستدلون على وجهتهم بما لا يصلح أن يستدل به ، فقد قرأت بحثاً رصيناً فى هذا الموضوع أوفاه كاتبه الفاضل حقه من وجهة نظره ، وأخذ فى الاستدلال على مذهبه بما يصلح أن يكون موضعاً للنقاش ، فهو ينقل مثلا قول الإمام أبى الوفاء ابن عقيل الحنبلى عن نفسه (وأنا أقصر بغاية جهدى أوقات أكلى حتى أختار سف الكعك ، وتحسيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توفراً على مطالعة ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه ، وأن أجل تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت ، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص فالتكاليف كثيرة) ... كما ينقل أن عامر بن عبد قيس أحد التابعين وقف أمامه رجل ليكلمه فأعرض عنه ، وقال له : أمسك الشمس ، بمعنى أن الزمن متحرك وأن الشمس دائرة لا تقف ، فكيف أنتظر حتى أحدثك) ..

هذان القولان معترض عليهما ، لا يتخذان حجة للإقناع ، فابن عقيل رحمه الله ، — على إمامته وجلال قدره — لا يصح أن يقتدى به أحد حين يسف الكعك ويخلطه بالماء ليوفر وقت المضغ ، ويفرغ للمطالعة ، لأن نوع الغذاء المفيد وطريقة تناوله ، وكسب الراحة الكافية للهضم الصحى ، كل ذلك ضرورة لا يصح بدونها الجسم ، ومن يتعجل البلع والهضم ويذللهما بالماء لينشط إلى القراءة والكتابة دون راحة ما فقد أسرع بعطب معدته ! ولن يفعل ذلك إنسان بصير عاش أكثر من ثمانين عاماً كابن عقيل رحمه الله إلا استثناء فى بعض المرات على سبيل الضرورة ، أما أن يكون قوله سنناً يحتذى ، فليس مما نراه ..

أما عامر بن عبد قيس ، فلا يعقل أن يعترضه إنسان ليخاطبه فيعرض عنه ويقول له أمسك الشمس ، إلا إذا كان يرى بتجربته أن محدثه ثرثار لجوج خاطبه كثيراً فى غير طائل حتى ضاق ، وقال له فى تبرم : (أمسك الشمس) ، أما أن يكون هذا دأبه الدائم فإن الخلق الإسلامى يحول دون هذا الرفض الجارح ، لأن لكل إنسان حريته الدافعة إلى المجاملة والبشاشة وحسن اللقاء ! وهذا ما لا يجهله تابعى زاهد مثل عامر ابن قيس .

ولعلنا بعد ذلك نقدر قيمة الوقت الصحيحة المعتدلة ، فلا نقع فى إفراط أو تفريط .

وجادلهم بالتى هى أحسن

من المشاهد لدينا فى المعارك العلمية أن أكثرها لا يكاد يصل بالقارئ إلى رأى حاسم ، فقد يدور الخلاف بين طائفة من العلماء حول مسألة علمية دقيقة ، فتدور الرحى شهوراً تبلغ العام فى الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، ثم تجمع البحوث فى كتب ، وتطبع الكتب عدة مرات ، وتصبح آراء الفريقين معلومة مشتهرة ، بل تحتاج بعد هذا المدى المتطاول إلى من يثير الحرب خدعة فى موضوع الخلاف ، وإذ ذاك تهدأ العاصفة هدوءاً يظن صاحب العقل المتزن أن لا ضجة بعده ولا ضوضاء ، فقد وضحت الأدلة ، وعلى القارئ المدرك أن ينحاز إلى أى فريق يراه أكثر صواباً من سواه .

ولكنك تفاجأ بعد حقبة يسيرة باشتداد النزاع حول الموضوع نفسه على أيدى أناس آخرين ، وكل فريق يعيد ما سبق من الأدلة والبراهين ، وكأن المسألة طريفة لم تكن مجال النزاع ذات يوم ، والعجيب أن المعركة الثانية لا تضيف جديداً فى النظر العلمى إلى ما تمخضت عنه المعركة الأولى ، بل أعادت ما كان كما كان مع اختلاف الأسماء التى تتحدث فقط ، وظهور أصحابها بمظهر ذوى الجدل الصائب ، والاطلاع المتبحر ، ولن أكثر من الشواهد على هذا اللجاج ، ولكنى أقتصر على مثال واحد ، تقاس عليه عشرات الأمثلة ليكون فى ذلك عظة للمعتبرين .

عندما قدم المغفور له الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى رحمه الله مشروعه الخاص بترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية قامت معارك حامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين ، على صفحات الأهرام وكوكب الشرق والبلاغ والمقطم ، ثم مجلة الأزهر التى لم تكتف ببحوث العلماء ، بل أصدر رئيس تحريرها العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى رحمه الله ، كتاباً خاصاً بالموضوع ، وزعه على المشتركين بالمجلة كنقد علمى عام لما قيل ، ثم جمعت هذه البحوث فى كتب خاصة تحمل أسماء الأساتذة محمد مصطفى المراغى ومحمد سليمان ومحمد مصطفى الشاطر وعبد الرحمن الجزيرى إلى مقالات طويلة لمحمود شلتوت ، والحجوى المغربى والخضر حسين ومحب الدين الخطيب

ومن لا أستطيع أن أتذكره لبعد الزمن ، وانقطاع المراجع ، وهدأت العاصفة بعد أن عرفت وجهة من يقولون بترجمة المعانى ، ومن لا يقولون بالترجمة إطلاقاً .

وقد ظننت أن المسألة أصبحت من الوضوح بحيث لا تكون مدعاة جدل مستأنف ولكننا بعد سنوات نجد المسألة تناقش لا لتذكر بما كان فيرجع الناس إلى ما دوّن فى القديم ، بل لتعيد النقاش مكرراً مردداً ، وكأن المسألة من الجدة والطرافة بحيث تطلب الفحص والنقاش ! والطريف فى المعركة الثانية — من وجهة نظرى الخاصة — أن أصحابها ناقلون مرددون ، وقد تحاشوا ذكر السابقين ، ليظن غير المطلع أنهم يأتون بالجديد .. وهم ناقلون ! . ما سر هذه الظاهرة العجيبة فى دنيا العلم والأدب ؟

وما سر الوقوف موقف المتعارض المتناحر ، وفى المستطاع لو خلصت الضمائر ، وصفت الطبائع أن يلتقى المتنازعان فى وسط الطريق ، وكيف نستطيع أن نتخلى عن معوقات البحث العلمى بما يساعد على تجلية الحق ، وانحسام النقاش فى حيز معقول ووقت قريب ! إن السبب الأصيل لاتساع الشقة بين المتجادلين — وأكثرهم من كبار العلماء — هو التماس وجوه الخلاف فى كل لفظ يحتمل الخلاف ، ولو على سبيل التأويل من طرف بعيد ، مع إغفال وجوه الاتفاق فى كل فكرة تدعو إلى التقارب مهما ظهرت محجتها الواضحة ، إذ أن بعض الناس يعدون التراجع انهزاماً ، فهم ينقلون المسألة من الموضوعية الواسعة إلى الذاتية الضيقة ، ومتى اعتقد المجادل أن الأمر فى المسألة يتعلق بذاته لا بموضوعه ، فقد تعذر الوفاق ، وانفرجت مسافة الخلاف .

هو إذن داء قديم قد أعضل ، وإننا لنقرأ عنه فى كتب السابقين ما يدهش ويروع فوق ما نشهد الآن فى نقاش المحدثين مما يؤلم ويسيء ، وإذا أردت اعترافاً حقيقياً يدل على ذلك التطاحن الشخصى ، فاستمع إلى أبى حيان التوحيدى إذ يقول : (سمعت الشيخ أبا حامد الإسفراييني يقول لطاهر العباداني : لا تعلق كثيراً لما تسمع منى فى مجالس الجدل ، فإن الكلام يجرى فيها على ختل الخصم ، ومغالطته ودفعه ومغالبته ، فلسنا نتكلم لوجه الله عز وجل خالصاً ، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا فى الكلام ، وإن كنا فى كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى فإننا مع ذلك نطمع فى فضل الله وسعة رحمته) .

هذا اعتراف من إمام كبير ، هو رأس الشافعية فى عصره ، وهو يدل على شجاعة نادرة حيث انتصر صاحبه على نفسه فى ساعة من ساعات الإخلاص النزيه ، فقال :

إن نقاشه فى مجالس المناظرة لا يهدف إلى تجلية الحقائق ، قدر ما يهدف إلى مراوغة الخصم ومغالبته ، كأن المسألة ليست مسألة حقائق مدعمة بالأسانيد ، ولكنها حومة من حومات المصارعة بين أبطال دربوا على الملاكمة البدنية ليقول كل واحد منهم : أنا ها هنا أتصدر الميدان ! ثم تزيد عظمة الرجل حين يصرح أنه لا يتكلم لوجه الله خالصاً ولو أراد ذلك لكان خطوه إلى الصمت أسرع من تطاوله إلى الكلام ، ومعنى ذلك أن وجوه الاتفاق تتقارب ، وفى الاستطاعة كل الاستطاعة ، أن يصل إليها المتناقشان من أقرب وقت ، لو صفت السرائر وخلصت الضمائر ، ولكن الذاتية تتغلب فتعصف بكل تقارب نزيه !

على أن كلام الشيخ أبى حامد الإسفراييني لم ينته دون تعقيب ، بل وجد من علماء الأمة من يعتذر عنه ، ويتلمس الحجج الزائفة للجاج الطويل والخصام المغرض ، إذ نجد تاج الدين السبكى ينقل كلام أبى حامد بنصه ليعقب على قوله السابق (فإننا مع ذلك نطمع فى فضل الله وسعة رحمته) بما نصه : (هو طمع قريب فإن ما يقع من المغالطات والمغالبات فى مجلس النظر يحصل به من تعليم إقامة الحجة ، ونشر العلم ، وبعث الهمم على طلبه ، ما يعظم فى نظر أهل الحق ، وتقل عنده قلة الخلوص ، وتعود بركة فائدتها وانتشارها على عدم الخلوص ، فقرب من الإخلاص إن شاء الله) .

والذى يقرن تعقيب السبكى باعتراف أبى حامد يعجب عجباً زائداً من اختلاف وجهتى الرجلين ، فقد أحسن أبو حامد كل الإحسان حين انتصر على نفسه فجهر بأن كلامه فى مجالس النقاش يجرى على ختل الخصم وحده ، وحب الانتصار عليه دون تقيد بالحقائق ، كما أحسن حين اعترف بأن الصمت عند وضوح الحقائق أجدر وأولى من لجاج مغرض يفضى إلى غضب الله . وهو اعتراف أمين من نفس لوامة عليها أن تغلو فى اللجاج ولوعاً بالانتصار الزائف فى حلقات الجدال ، وما يقدر على التصريح بذلك غير عالم قوى يجد أن الحق أقوى من أن يكتم .

أما تاج الدين السبكى فقد أساء إلى الحق حين أخذ يتحمل الأعذار لمن يغالط فى ساحات الجدل ويثير الغبار على وجوه الحقائق ، زاعماً أن هذا اللجاج المتطاول ، يعلم الناس إقامة الحجة ، ومرونة اللسان ، وتيقظ الانتباه ، كما يبعث على نشر العلم ، ويبعث الهمة فى طلبة ! ومثل السبكى فى وجهة نظره تلك ، مثل من يمرض الجسوم

بأدوائها المضنية — والقاتلة أحياناً — ليبحث لها عن علاج يقيها الداء ، وكان فى الوقاية من هذه الأمراض المستعصية العلاج ، ما يصرف البحث إلى وجهة أخرى تنفع ولا تضر ، وتصح ولا تعلّ . ولكنه التمحل البعيد ، والشطط الجموح .

ولا نزعم أن المتجادلين فى المسائل العلمية كلهم ينحون المنحى الشخصى فى حب التغلب ، وإرادة التفوق ، فنحن نعرف عن كبار الأئمة من حب الحق والبحث عنه من شتى الوجوه ما لا ينكره عنيد ملحاح ، وإن أحدهم ليعترف على رؤوس الأشهاد بأن كلامه فى رأيه الشخصى صواب يحتمل الخطأ ، وكلام مجادله فى رأيه الشخصى كذلك خطأ يحتمل الصواب ، وقد سرت قولة الإمام مالك بين المنصفين من العلماء سريان الضوء اللامع إذ أعلن أن كل عالم يؤخذ منه ويرد ما عدا صاحب هذه الحجرة ، مشيراً إلى مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحرم المدنى . حيث كان الإمام مالك رضى الله عنه يتصدر للتدريس ، وهو شعور إنسانى يدل على الإنصاف والثناء على صاحب الحق أياً كان منحاه ، ثم هو إحساس نبيل عبر عنه الشاعر العربى أطيب تعبير حين قال :

على أننى أطرى الحسام إذا مضى ... وإن كان يوم الروع غيرى حامله

وآسى على جيحون إن قل ماؤه ... وإن كان ذوداً غير ذودى ناهله

وإذا كان من الفقهاء من يخشعون للحق فيتبعونه فى ساحات النقاش ، ومن تضيق صدورهم بالإنصاف فيخوضون فى اللجاج ، فإن غير الفقهاء كذلك من الأدباء والمؤرخين وعلماء اللغة واللسان ، ففى تواريخهم المدونة فى كتب الطبقات ما ينبئ عن وجود المعتدل أو المتطرف ، وما كان وما اشتهر عن مناظرات الخوارزمى مع الهمذانى ، والكسائى مع سيبويه ، والمتنبى مع الحاتمى ، إلا مثالا للتطاول الذى لا يقصد مقصد الحق ، كما كان ما اشتهر من مطارحات الليث بن سعد مع مالك بن أنس والشافعى مع محمد بن الحسن ، إلا مثالا للجدل الهادف ، والبحث المتزن ، وسنلم بمثالين يدل أحدهما على الشطط الجامح ، وثانيهما على الإنصاف الحميد ، ليعرف من لم يعرف أن الأيام تمر بالنقاش الملتحم ويبقى الحكم عليه مدوناً مقروءاً ، فيذهب المحسن بإحسانه ، ويهوى المسىء إلى حيث لا يظفر بعطف قارئ مستنير .

أما المثال الطيب فهو ما روى عن أبى بكر الأنبارى ، إذ حدث عنه أبو الحسن الدارقطنى فقال : حضرت أبا بكر الأنبارى رحمه الله فى مجلس إملائه يوم الجمعة ،

فصحف اسماً أورده فى إسناد حديث . أما كان — شك من الراوى أبى الحسن — حيان بالياء ، فقال الأنبارى حبان بالباء أو العكس ، قال أبو الحسن : فأعظمت أن ينقل عن أبى بكر فى فضله وعلمه وجلاله وهم ، وهبت أن أوقفه على ذلك ، فلما انقضى الإملاء تقدمت إلى المستملى ، وذكرت ما دار بخاطرى وعرفته صواب القول لينقله إلى أبى بكر ، ثم حضرت الجمعة الثانية ، فسمعت أبا بكر ينادى تلميذه المستملى ويقول له بصوت يسمعه جميع الطلاب فى حلقة الدرس ، عرف الجماعة أنا صحفنا الاسم الفلانى حين أملينا الحديث فى الجمعة الماضية ، ونبهنا فلان — وأشار إلىّ — إلى الصواب ، وقد رجعنا إلى ما نثق من المصادر ، فوجدنا الشاب على حق فيما قال !

فإذا تركنا أبابكر الأنبارى إلى العالم اللغوى المعروف بابن الأعرابى فإننا ننقل عنه هذا الخبر : قال محمد بن عمر الجرجانى صحف ابن الأعرابى فى شعر الكميت وأنا حاضر ، فأنشد:

فبانوا من بنى أسد عليهم نجار من خزيمة ذى القبول

فقرأها بالنون فى بانوا ، وهى باتوا بالتاء ، فقلت له : إنما هى باتوا ، فلوى شدقه ، فقلت : إن بعد هذا البيت يقول الكميت :

وقالوا بالأيا من متاهم فيا بعد المبيت من المقيل

فقال : لا يلتفت إلى هذا .

وبمقارنة موقف أبى بكر الأنبارى بابن الأعرابى ، نجد الإنصاف المتواضع عند الأول ، والشطط المعتسف عند الثانى ، لأن قول الشاعر (وقالوا) فى البيت الثانى من القيلولة ، فيدل على أن قوله فى البيت الأول (فباتوا) من البيات لا من البين ، وهو دليل لا يدفع ، وها قد مضى الزمن المتطاول على المشهدين المختلفين ، ولكننا نسجل للمنصف إنصافه ونتخذه موضعاً للأسوة ، ونحصى المشتط جموحه ، ونراه موضع نقد لا تحمد معه أسوة واقتداء .

هذا وموضع النقاش فى الموقفين المتباعدين لا يخرج عن لفظ فى حديث أو كلمة فى بيت ، فكيف به إذا كان موضوعاً بعيد المرمى ، مشتبه المسلك ، متعدد الأطراف كموضوع الترجمة لمعانى القرآن ، أو ما يقاربه من مبهمات الرأى ، وملتبسات التخريج .

إن الجدال بالتى هى أحسن واجب محتوم ، وما نظن كلمة موجزة كهذه الكلمة تفيه حقه من التجلية والتوضيح ، ولكننا نرجىء البقية إلى حين .

بين الحلم والتحلم

نحتاج فى مواقفنا الكثيرة إلى ضبط النفس ، وشدة التماسك ويسر التناول ، وتلك عناصر تندرج فيما يعرف لدى الأخلاقيين بالحلم ، وهو سيد الأخلاق جميعاً ، لأنه يضم فضائل كثيرة من شمائل النفس الزكية ، فالحليم كاظم غيظه ، وعاف عن الناس عند مقدرته ، وهو يقابل السيئة بالحسنة ، دفعاً بالتى هى أحسن ، وتطبيق ذلك كله لا يتيسر إلا للأفذاذ .

ونحن نعلم أن الخلق الإنسانى يتنوع إلى خلق فطرى ينشأ مع الإنسان فى جبلته ، وخلق مكتسب يتمرن صاحبه على تحصيله ، باذلا كل جهده حتى يمتلك زمامه ، ويصبح كأنه عادة متأصلة فيه ، إذ أن الأخلاق الراقية تحتاج إلى علاج كبير حتى يستقيم منهجها سلوكاً وعملا وقولا ، وكم من شرير هائج الطبع ، فاسد المنحى ، أتيح له من ذوى الأخلاق الفاضلة من بذل جهد الصابرين فى هدايته وتقويمه ، حتى استطاع أن يسير به على النهج القويم ، وكم من شاب برىء نشأ فى بيئة صالحة وورث عن آبائه عناصر الاستقامة وبواعث الخير ، ثم اختلط ببيئة فاسدة يسودها الانحلال الخلقى ، فارتكس معها إلى الحضيض .

نقول ذلك رداً على فلاسفة فى الشرق والغرب يذهبون إلى أن الخلق موهوب لا مكتسب ، وأن الفاسد فاسد بجبلته ، والصالح صالح بعنصره ، وذلك مذهب يلقى اليأس فى نفوس المصلحين ، ويرد عليه الإمام الغزالى بقوله : (لو كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت المواعظ والوصايا والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أخلاقكم . وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى ، مع أن تغيير خلق البهيمة ممكن ، إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى الإمساك والقناعة ، والفرس الجموح من الهياج إلى السلامة والانقياد ، وكل ذلك تغيير فى الأخلاق ، والمسألة من الوضوح المشاهد بين الناس بحيث لا تحتمل اللجاج) .

وإذا كان الحلم سيد الأخلاق فطريقه لدى من لم يرزقه كموهبة أن يتحلم ، بمعنى أن الإنسان إذا قوبل بالشر فعليه أن يضبط نفسه الثائرة المهتاجة فلا يستجيب لبوادر الشر بادىء ذى بدء ، فإذا تكرر ذلك منه انتقل من مرحلة التحلم إلى مرحلة الحلم ، بحيث لا يحتاج إلى عناء فى ضبط نفسه ، إذ يصير حلمه الوادع ضابطاً دون الهياج ، ومن هنا كان كظم الغيظ أول ضوابط النفس الهادئة ، وهو علامة الرسوخ الخلقى ، لأن صاحب هذا الضبط قد سيطر على انفعال حاد يصطخب فى أعماقه ، وبذل جهد الجبابرة فى إنهاء صراع عنيف يدفعه إلى الشر ، وتلك صفة المسارعين إلى رضوان الله حيث يقول فى شأنهم : « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . ولعل الشاعر العربى قد صور بعض ألوان الصراع حين قال :

لقد أسمع القول الذى كاد كلما ... تذكر فيه النفس قلبى يصدع
فأبدى لمن أبداه منى بشاشة ... كأنى مسرور بما منه أسمع
وما ذاك من عجبى به غير أننى ... أرى أن ترك الشر للشر أقطع

فأى التعالى هذا الذى يجعل قلب صاحبه يتصدع إذا ذكر بواعثه : فضلا عن معاناة تجربته أثناء وقوعه ؟ وأى انتصار صادف من استطاع أن يبدى البشاشة كأنه مسرور ، وهو ملتهب من الغيظ ! لا شك أن صاحب هذا الانتصار قد رزق نصيباً هائلا من ضبط النفس ليقطع الشر بالإمساك عن الشر ، وهو سبيل الحلماء ! .

وإذا كنا نريد أن نفرق بين الحلم والتحلم من واقع علمى سجلته صحف التاريخ والسير فإن أول من نتخذه مثلا لصاحب الحلم المتأصل عن فطرة جبله الله عليها هو محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ أن خلقه الكريم قد صيغ مطبوعاً على مقومات الكمال الإنسانى وهو حين يأتى جميل الخصال إنما يصدر عن طبيعة نبيلة كما يصدر ضوء الشمس والأريج عن الزهر دون عناء تتخذ له الأسباب بمشقة واحتيال .

وجاء أعرابى إلى حضرته بالمسجد يطلب منه شيئاً ، فأعطاه ما تيسر فى يده ، ثم قال له فى هدوء : أأحسنت إليك يا أعرابى ؟ فرد الرجل مندفعاً : لا ، ولا أجملت ، وهو رد أحمق لا يواجه به صاحب عطاء . فغضب المسلمون وهموا به ، ولكن الرسول أشار إليهم فى ابتسام فهدأوا ، ثم اتجه إلى منزله الشريف ونادى الأعرابى فى تلطف

وابتسام ، فأعطاه وأعطاه ، ثم قال له : أأحسنت إليك ؟ فقال الأعرابى مبتهجاً : نعم وجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال : نعم ، فلما كان الغداة جاء الأعرابى إلى مسجد رسول الله وهو بين أصحابه ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، وتوجه إلى الأعرابى بالنظر ، فقال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فتبعها الناس فلم يزدها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه صاحب الناقة بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً حتى جاءت فاستناخت وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ، ولو أنى تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلمتوه دخل النار .

هذا الحادث اليسير له أكثر من دلالة خلقية فى سياسة رسول الله ، فقد أعطى الرجل ما يراه كافياً لمثله ، وللرسول صلى الله عليه وسلم تقديره الصائب فيما يراه ، فما كان ليحرم الأعرابى شيئاً يراه محتاجاً إليه ، ومن الطبيعى أن ينتظر منه الرضا بعد أن أعطاه ما تصور أنه يكفيه ، ولكن نفس الأعرابى لم تقنع ، وكانت فيه صراحة متجرئة وحدة غير محمودة ، فأجاب الأعرابى إجابة رعناء لا تصدر عن عاقل أعطى دون حبس ، ولو كان الرسول كسائر الناس لغضب واحتد حين رأى إحسانه يقابل بالعقوق ، وقد ثار أصحابه رضوان الله عليهم وكادوا يسيئون لمن تقدم بالإساءة لنبيهم الكريم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاهم ، فكفوا ، ثم دخل منزله ، ودعا الأعرابى ، فأعطاه مرة ثانية ! .

وهذا مضرب المثل فى الحلم الأصيل ، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكتف بالعفو عمن أساء فى تهور ، بل استرضاه وأكرمه بعطاء آخر ، ثم سأله : أأحسنت إليك ؟ فأجابه بالرضا والدعاء ، وهنا أراد رسول الله أن يحمى الرجل من صحابته حين يقابله أحدهم فيتذكر مجابهته للرسول فينال منه ، فقال للأعرابى : إنك قلت ما قلت أمام أصحابى ، وأشار عليه أن يحضر مجلسهم فى الغد ، وما كان من هدفه صلى الله عليه وسلم

أن يعلن لأصحابه أنه أعطى الأعرابى حتى رضى ، ولكنه أراد أن يقدم أنموذجاً عملياً للسيئة تقابل بالحسنة وللتهور يكافأ بالحلم والأناة ، وقد حضر الرجل من غده ليعترف بما كان ، وهنا قام المربى الكبير بإرشاده السديد لأصحابه ، فضرب المثل بالناقة الشاردة ومن تجمع حولها من الناس يحاولون ردها فلا يستطيعون حتى ترضاها صاحبها بما جمع لها من خشاش الأرض ، فاستكانت وأسلمت القياد ، وكل ذلك صدر من الرسول عن طبع يفيض بالحلم لم يتكلفه تكلفاً ، ولم يصل إليه عن طريق التحلم ، بل فاض من شعوره نبلا من نفس تأتلق بالفضائل كما تأتلق السماء بصفحة البدر . وهو صلى الله عليه وسلم يعلم من أسرار النفوس ما يجهل سواه ، فيقابل كل تصرف بما يليق .

وفد أشج عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأناخ راحلته فى أدب وهدوء ، ثم عقلها مستوثقاً من رباطها ، وبادر إلى رحله فانتزع أثواب السفر ليرتدى حلتين جميلتين ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله ، وقد رأى ما صنع ، فاستقبله صلى الله عليه وسلم ببشر ، وقال له : يا أشج — وهذا ما كان ينادى به — إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله ، فقال الأشج : وما هما ، فداك أمى وأبى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هما الحلم والأناة ، فقال الأشج : أهما خلقان تخلقتهما أم خلقان جبلنى الله عليهما ؟ فقال الرسول : بل خلقان ، جبلك الله عليهما . فابتسم الأشج وقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله .

وواضح من هذا الحوار الرقيق أن رسول الله كان يدرك الفرق بين الخلق والتخلق وهذا غير مستغرب منه ، ولكن الجميل الرائع أن يدرك ذلك الفرق رجل فطرى لم يتلق دروس الأخلاق فى معهد دراسى ، وهو الأشج ، ولا يأتى ذلك إلا من ممارسة طيبة لأخلاق الناس ، والأشج كان رئيس عبد القيس ، ولم يتبوأ هذه الرئاسة عفواً دون اختبار ، بل أدرك معشره ما يتميز به من رجاحة نفسية فسوّدوه .

فإذا تركنا الحلم إلى التحلم فإننا نجد أمثلته فى أكثر ما نشاهده ، بل نجد أمثلته فى نفوسنا حين يتملكنا الغيظ فى موقف ما ، ثم نرى الكظم وسيلة لحسم الشر ، ومن أمثلته التاريخية ما كان من معاوية حين أخذ يستقبل الوفود بعد عام الجماعة ، فكانت طوائف المتحدثين والمتحدثات تسمعه ما يكره ، وهو لا يزيد إلا ابتساماً ثم يسارع بالعطاء ، وقد يتملكه الغضب فيند ببعض الزجر فلا يلقى إلا عناداً كما فعل مع صعصعة

ابن صوحان ، والأحنف بن قيس . والأول خطيب العرب وصاحب الأمر فى قومه ، والثانى حليم العرب ومضرب المثل فيهم بالرجاحة والحزم والسداد . وقد خطب معاوية فقال بالمدينة فى عام الجماعة : (والله لا أحمل سيفى على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يشفى به القائل نفسه بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى) ، وهو كلام يدل على ثبات ورسوخ ! وقد قسم مرة قطفاً (جمع قطيفة) فأعطى شيخاً من أهل دمشق عطية لم تعجبه (وكان يرفق بالدمشقيين كثيراً) فغضب الرجل وحلف ليضربن بها رأس معاوية ، فاستدعاه الخليفة وكشف له عن رأسه . وقال : أوف بيمينك وليرأف الشيخ بالشيخ ، وتلك سياسة رائعة فى جذب الأنصار واستمالة الجماهير والوصول إلى مثلها شاق مرهق ، فللنفس نزوات صاحبة تعز على الأناة ، وكم من عاقل أخذ يدرب نفسه على الهدوء حتى سكنت بعد وثوب .

قال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن قبلكم يغضب فيشتد غضبه ، فكتب عدة صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول : إذا غضبت فاعطنى هذه ، وقال للثانى : إذا سكن بعض غضبى فاعطنى هذه ، فغضب يوماً فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها : ما أنت وهذا الغضب ، فإنك لست بإله ، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً ، فسكن غضبه ، فأعطى الثانية فإذا فيها : ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء ، فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله وحده فليس لهم غير ذلك .

هذا نمط من العلاج النفسى يقوم به إنسان يحرص على الحلم فيتحلم ، ويدعو أصحابه إلى ملاحظته كى يردوه إذا شط ، وهو فى ذلك يترسم خطا القرآن ، إذ يدفع السيئة بالحسنة ، وما يلقاها إلا الذين صبروا .

نظرات قرآنية :

الاحسان فى سورة يوسف

— ١ —

يدور بين بعض المثقفين حديث علمى تتفتح به القرائح عن نفائس ثمينة من المعانى وقد كان أسلافنا من فاقهى العلماء يسجلون هذه النفائس فيما يعرف بالمجالس أو الأمالى أو المحاضرات ، ففى التراث الأدبى لدينا مجلدات تندرج تحت هذه العنوانات ، وكثير منها كان صيداً للخاطر فى مجلس من مجالس العلم ، وإذا جاز لى أن أنقل مجلساً هيأه السمر العلمى دون إعداد مسبق ، وخرجت منه بزاد وفير من المعانى ، فإنى أكتب هذا المقال كنموذج لما أعنيه :

زارنى أخى الأستاذ محمود فهمى البيومى أحد النابهين من أعلام المحاماة ، فأدار المذياع ليسمع ما يتلو القارئ من كتاب الله فى سورة يوسف ، وأخذ القارئ يرتل فى براعة وحذق حتى انتهى إلى قول الله عز وجل : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين »[1] ، فختم التلاوة المباركة ، ولا أدرى ما الذى دفعنى إلى أن أقول : لقد قرأت فى بعض الكتب أن قصة يوسف عليه السلام بنيت على القميص ، إذ جاء إخوته على قميصه بدم كذب حين أبعدوه عن أبيه ، وإذ مزقت امرأة العزيز قميصه من دبر فكان ذلك أحد الدلائل على براءته أمام العزيز ، وإذ بعث يوسف إلى أبيه قميصه فارتد بصيراً حين شم منه ريح ولده !

فسألنى صاحبى : وما حكمك على ما قرأت ولخصت ؟

قلت : إن ذلك تخريج عقلى للأحداث ، فرد على يقول :

يمكن أن نقول احتذاء لما ذكرت : إن قصة يوسف بنيت على الرؤيا الصادقة ، إذ رأى فى صباه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجداً له ، ثم دفع إلى السجن

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٢

ففسر الرؤيا لصاحبي السجن حين رأى أحدهما أنه يعصر خمراً ، ورأى الثانى أنه يصاب فتأكل الطير من رأسه ، وصدقت الرؤيا ، ليخرج أحد السجينين فيجد العزيز يتحدث عن رؤيا البقرات العجاف والبقرات السمان دون أن يعرف تأويلها ، فيشير عليه بيوسف فيأتى بالتأويل الصادق فتفك كربته ويصبح قائماً على خزائن الدولة ، ثم يلتقى أخيراً فيقول له : هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً !

فسكت قليلا ثم قلت : وهل أنت مستريح لهذا التحليل ؟

قال أخى : أفضل أن يكون التحليل متجهاً إلى معنى خلقى كبير ، يكون السمة البارزة لخصائص هذا النبى الكريم ، وأرى أنه هو الإحسان . والإحسان بمعناه الحقيقى بلوغ مرتبة الكمال فيما يحال أن يأتى به الإنسان من الأعمال ، فالمحسن هو الذى يأخذ من كل شىء أحسنه ، وليس الإحسان مقصوراً على التصدق ، بل إن التصدق بعض معانى الإحسان فحسب ، وإن اشتهر لدى العامة أن الإحسان هو التصدق لا يتعداه ، لذلك قال رسول الله : إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، أى أبلغوا بالذبيحة مرتبة الكمال فى الذبح ، فاعملوا على انتهاء ألمها فى وقت سريع ، وإذا كان الإحسان بلوغ مرتبة الكمال فلقد وصف يوسف عليه السلام بالإحسان عدة مرات فى هذه السورة الكريمة وتكرار هذا الوصف الخلقى الرائع يرجح لدى أن يكون الإحسان بمعناه الشامل هو جماع صفاته النبوية الرائعات :

قلت : الأمر يحتاج إلى إيضاح مبين ، فاعتدل المتحدث فى جلسته ليوحى إلى سامعه باحتشاده للقول ، وأخذ يفيض فى إجابة متساوقة مطردة ، عنيت بأن أقدمها ملخصة للقارئ الكريم .

— ٢ —

قال صاحبى : إذا كان معنى الإحسان هو بلوغ مرتبة الكمال فيما يأخذ به الإنسان من أعمال الخير ، فكل الأنبياء — وهم صفوة البشر — محسنون دون نزاع ، وقارئ سورة الصافات يرى سرداً موجزاً لبعض أحداث النبيين — يختم دائماً بقوله تعالى : « إنا كذلك نجزى المحسنين » .

فالله تعالى يقول عن نوح : « سلام على نوح فى العالمين • إنا كذلك نجزى المحسنين »[١] .

ويقول عن إبراهيم : « سلام على إبراهيم • كذلك نجزى المحسنين »[٢] .

ويقول عن موسى وهارون : « سلام على موسى وهارون • إنا كذلك نجزى المحسنين »[٣] .

ويقول عن إلياس : « سلام على إلياسين • إنا كذلك نجزى المحسنين »[٤] .

فالإحسان صفة الأنبياء بعامة ، ويوسف عليه السلام قد تتابع وصفه بالإحسان فى سورته الكريمة ، تتابعاً يجب أن يكون موضع دراسة نتخذ منها العبرة البالغة .

فالله تعالى يقول عنه : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزى المحسنين »[٥] .

ثم يقول جل ذكره على لسان صاحبيه فى السجن : « نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين »[٦] .

ويقول عز وجل — ثالثاً — : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين »[٧] .

ويقول — رابعاً — على لسان إخوة يوسف — : « إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين »[٨] .

ويقول — خامساً — على لسان يوسف : « أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[٩] .

---

(١) سورة الصافات ، الآيتان ٧٩ و ٨٠
(٢) سورة الصافات ، الآيتان ١٠٩ و ١١٠
(٣) سورة الصافات ، الآيتان ١٢٠ و ١٢١
(٤) سورة الصافات ، الآيتان ١٣٠ و ١٣١
(٥) سورة يوسف ، الآية ٢٢
(٦) سورة يوسف ، الآية ٣٦
(٧) سورة يوسف الآية ٥٦
(٨) سورة يوسف ، الآية ٧٨
(٩) سورة يوسف ، الآية ٩٠

- ٣ -

جاءت قصة يوسف فى القرآن متصلة السرد فى حيز متتابع ، ولم تجىء متفرقة فى سور شتى كقصص غيره من الأنبياء ، وقد مهد هذا الاتصال المتتابع للقارئ أن يقف على ترتيب الأحداث والوقائع فى غير جهد ، كما جعلنا ندرك ما نعنيه بالكمال النفسى التام فى خلق هذا النبى الذى اصطفاه الله لرسالته حين نجد دلائله الواضحة فى مواقفه المتتابعة ، فيوسف قد رزق الرؤيا الصادقة وهو صبى صغير ، وتلك نعمة جزيلة جعلت والده الشفيق ينهاه أن يقص رؤيته على إخوته ، إذ يتعاظمهم أن يعلموا أن الكواكب والشمس والقمر قد سجدت له ، فذلك رمز بارز لتفوق منتظر ، ولمجد ستتهيأ دوافعه عن قريب ، وقد اعتقد النبى المنتظر أنه من سلالة الأنبياء ، وأن ربه كما أخبره والده سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه كما أتمها على الآباء! وهو اعتقاد من شأنه أن ينأى به عن الصغائر ، ويسمو بروحه إلى الفضائل ، وهذا ما كان منه فى جميع أدوار حياته .

بل هذا هو الإحسان الذى اتصف به أكثر من مرة فى السورة الكريمة والذى كان مفتاح شخصيته المثالية منذ أن خبر شئون الحياة .

يقول الله تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين »(١) . والحكم والعلم مأثرتان نادرتان تضمان القول والعمل معاً ، وأى الناس يرزق الحكمة والعلم ثم لا يكون محسناً أتم الإحسان ! لعل من ثمرة هذا الإحسان ما توالت به الأحداث التى سردتها الآيات الكريمة بعد هذا النص الشريف ، وأهمها عفته الحصينة أمام جواذب الإغراء ! شاب جميل فى مستقبل الحياة ، تراوده أجمل سيدات القصر عن نفسه ، ولها سطوة الجمال والشباب والملك والثراء ! فيصيح بها فى قوة : معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ! حتى إذا يئست من موافقته الاختيارية صممت على اغتصابه الإجبارى ، ففر منها إلى الخارج حيث فاجأه سيده ! وكان الحق أوضح من أن يستر بادعاء كاذب وضحت أدلة افترائه ! فقال العزيز لصاحبته : استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

ويذاع الحديث ويتعرض الشاب الطاهر إلى مواقف الإغراء حتى تضيق الحياة فى وجهه فيقول : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه »(٢) . ثم يرى أن يودعه

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٢ (٢) سورة يوسف ، الآية ٣٣

السجن دون اتهام ، كى يسكت ألسنة السوء ، وما أن يحل به حتى يتضح لرفاقه معنى الإحسان فى نفسه ، إحسان القول والعمل والسلوك ، ويرى اثنان من هؤلاء الرفاق رؤيتين مناسبتين ، فلا يجدان غيره للتأويل ، ويصيحان به : « نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين »[١] .

لقد جاء الوصف بالإحسان هنا على لسان الرفاق ، وقد جاء هذا الوصف فى الآية السابقة على لسان ربه ! فكأن ما أودعه الله فيه من صفات الكمال لم يكن مستتراً يعلمه الله وحده ، ولكنه عرف وذاع حتى لمسه مخالطوه ! فاعترفوا به ، اعتراف من ينطق بالظاهر الشائع الذى لا يمترى فيه أحد ، وقد أحسن يوسف العلم هنا حين عبر عن الرؤيتين تعبيراً جاء مطابقاً للواقع المتحقق فيما بعد ، كما أحسن يوسف الحكمة حين عصم نفسه من الشهوة الكاذبة فى موقف المراودة ، فكان ثمرة الحكمة تجاور ثمرة المعرفة فى روضه اليانعة ، وبهذه الثقة المكينة فى نفوس أصحابه أخذ يدعو إلى توحيد الله ، مؤدياً وظيفة الرسالة هاتفاً بالقوم :

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار »[٢] .

مضت الأيام تكشفت عن سمو النبى وطهره ، كما كشفت عن دقته الحكيمة فى تأويل الرموز وتفسير الأحداث ، فكان هو المعبر الصادق لرؤيا الملك ، وقد اختاره العزيز وزيراً لشئون المال ، حين لمس حكمة العقل وطهارة النفس فى سلوك صاحبه ، وبهذا المنصب اللامع نال الصابر المحتسب جزاء الصبر الجميل ، كان رقيقاً بيع بثمن بخس ، ثم متهماً فى واقعة مفتراة ، ثم سجيناً يصحب الأشرار فى غياهب السجن ، وأقصى آماله أن يخرج منه إلى قضاء الله ناعماً بالحرية وحدها ، ولكنه خرج رئيساً قائماً على أمر الناس وصيانة الأرواح وحفظ الأموال ، وتلك مهام لا يضطلع بها عن جدارة إلا من رزق الكمال الإنسانى فى أرقى صوره ، فتم له بذلك معنى الإحسان ، وتكرر وصف الله له حين قال : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين »[٣] .

لم تنقطع الأحداث عن مجراها الطبيعى ، فلابد أن تتحقق الرؤيا الصادقة ، ولابد

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٣٦ (٢) سورة يوسف ، الآية ٣٩
(٣) سورة يوسف ، الآية ٥٦

أن تتهيأ أسباب الاتصال بين يوسف وأبيه مهما طال العهد ، وقد عم القحط كثيراً من الربوع ، وتسامع إخوة يوسف فى مكانهم القصى عن وزير كريم فى مصر يبيع البر بالثمن الزهيد تارة ، ويتصدق به دون ثمن تارة أخرى ، فخفوا إليه مسرعين وعرفهم وهم له منكرون ، ثم سألهم عن أخ لهم من أبيهم لم يقدم معهم فى الرحلة إلى مصر ، ولو رزقوا بصيرة لوقفوا طويلا عند هذا السؤال ، ففكروا : كيف عرف الوزير القصى أن لهم أخاً من أبيهم ؟ وكيف صمم على حضوره وليس يعنيه من أمره شىء ، كان من المنتظر أن يفكروا فى ذلك وأن يتفرسوا فى ملامح وجهه بعد أن حدثهم عن أخيهم ، فقد يرون فى قسماته ما يدل على عهد سالف جمعهم به ، ولكن القدر حال دون ذلك ، فرجعوا إلى أبيهم ليصحبوا أخاهم ، ثم يحتجزه يوسف بتدبير محكم ، فحين يتوقعون الكريهة يصيح صائحهم : « إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين »(١) ! ها هم أولا ، قد اعترفوا بالإحسان لمن رموه فى غيابة الجب ظالمين ، ولمن تجنوا عليه كاذبين « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل »(٢) .

ثم يعودون حائرين إلى أبيهم فيقولون : « إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا »(٣) ، فيصيح بهم : أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون ! لقد ارتاب فى مسألة السرقة إذن؟ ثم دفعهم إلى الرجوع كى يبحثوا عن يوسف وأخيه ، لم ينس يوسف على تطاول العهد ، بل إنه صاح حين علم باحتجاز بنيامين ، صاح يقول : يا أسفا على يوسف ! فقال له بنوه : « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين »(٤) .

رجع القوم وقابلوا الأخوين وفاجأهم الموقف لما أدهشهم حين صاحوا : « إنك لأنت يوسف » ، فقال العزيز : « أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »(٥) .

ليس تتبع الأحداث من هذا المقال ، ولكن الهدف هو إبراز معنى الإحسان الذى صحب يوسف فى مواقفه المتلاحقة والذى عرفه هو من نفسه فقال : « قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ، كما عرفه فيه إخوته قبل أن

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٧٨
(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٧
(٣) سورة يوسف ، الآية ٨١
(٤) سورة يوسف ، الآية ٨٥
(٥) سورة يوسف ، الآية ٩٠

يعلموا صلتهم به ، وكما عرفه صاحبا السجن حين طلبا إليه أن يعبر عما رأياه ! أما أن يصنعه الله به فى قوله : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين »[١] فذلك شرف لا مطمع بعده لشرف فى العالمين !

لقد صار الإحسان ديدن هذا النبي المكافح كما هو ديدن كل نبى كريم .

هذا تلخيص لحديث جيد سمعته من قائله ، فطربت له .. أليس من حق القراء على أن أتحفهم بما يضم من التالد والطريف ؟

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٢

ان مع العسر يسرا

« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ،
ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله
إلا القوم الكافرون » . (قرآن كريم)

لا تسير الحياة على نمط واحد ، فقد تشرق الشمس فى الصباح وضيئة ساطعة ، فينهض الناس إلى أعمالهم مستبشرين برحمة من الله وفضل ، ثم تتجمع السحب وتهب الريح ، ويجلجل الرعد ، ويلمع البرق . وما هى غير لحظات حتى ينهمر الغيث بدافقه المدرار فيملأ المسالك والدروب . وتنقطع حركة الرائحين والغادين انتظاراً للصحو ، وترقباً للضياء . وهكذا لا تسير الحياة على نمط واحد . وعلى الذين يعانون فى أوقات الشدة ضروب البلاء المتأزم أن يعرفوا هذه الحقيقة . إذ ليس العذاب بسرمد دائم ، وليس النعيم بأبدى لازم ، ولكن هذا وذاك مما يجيئان على التعاقب . وما خلق الله عز وجل الليل والنهار متعاقبين إلا ليلقيا بالعبرة البالغة والموعظة المحسوسة . ومن هذه العبر البالغة أن دوام الحال من المحال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم »[1] .

أشد الناس بلاء الأنبياء :

وقد لاقى أصحاب الرسالات السماوية من ضروب البلاء وألوان المحن ما يضرب المثل للناس ، فهؤلاء هم رسل الله ، يؤدون رسالته ويبلغون كلمته ، وما أيسر أن يسهل الله عليهم طريق الرسالة فيجذب إليهم الأشياع دون عناد ، ولكنه ــ جل ذكره ــ قد واجههم بالصعوبات ليكونوا قدوة للناس فى الجهاد والجلاد . وقد تحمل رسول الله من ضروب الشدائد ما تحمل ، ولاقى أصحابه معه بعض ما لاقى من العسر ، ومنهم من آثر الصبر ومال إلى التفاؤل ارتقاباً لتحقيق وعد الله ، ومنهم من حزبه الضيق

---

(١) سورة يس ، الآيتان ٣٧ و ٣٨

فشكا إلى رسول الله بعض ما يلقاه ، فنزل القرآن داعياً للثبات ، ومنادياً بالصبر ، وضارباً المثل الواقعى بما عانى أولوا العزم من المرسلين ، يقول الله عز وجل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب »(١) وقد يشتد العسر بالرسول وأصحابه فينزل الله كتابه مبشراً باليسر ، ومعدداً نعمه السابقة على رسول الله حين شرح صدره بالنبوة ورفع ذكره فى العالمين ، يقول الله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب »(٢).

وأصحاب الذوق القرآنى فى استشفاف أسرار البيان المعجز يقفون متأملين عند قول الله عز وجل : « إن مع العسر يسراً » ، ففى هذا التعبير الدقيق من السر الحكيم ما قد يخفى على بعض الناس .

فهناك فرق واضح بين أن يقول الله عز وجل : إن بعد العسر يسراً وبين أن يقول : « إن مع العسر يسراً » إذ المعية فى الآية الكريمة تدل بوضوح على أن العسر مهما كان شديد الوقع ، بالغ الأثر ، فهو يحمل فى طواياه الخفية بعض اليسر ، إذ ينطوى على منفعة خفية يعلمها الله ، ويجهلها الناس ، فكم من نعمة فى طى نقمة ! ! فعلى المؤمن الصادق حين يدركه العسر أن يعتقد أن الأمر ليس شراً كله ، وأن الوجه الظاهرى يخفى من الخير ما لا يدرك إلا بعد حين ، وكم من أناس داهمهم الزمان بما ضجوا منه صارخين ، واستحال عليهم الصبر لهول ما يحسون ويدركون ، ثم مضت الأيام فإذا بشائر الخير تنهل مما حدث من سالف الشر ، فكأن المفاجأة الأولى كانت ميلاداً عسراً لابد منه كى يشرق مولود جديد ، فاليسر حينئذ كان مصاحباً للعسر يندرج فى طياته دون أن يحسه الناس . هذا ما يشير إليه التعبير القرآنى الدقيق .

ولا ينافى ذلك أن يكون هناك من الأحوال ما يكون به الشر خالصاً دون أن يحمل فى طياته بوادر الخير . وهذا ما عبرت عنه آية كريمة أخرى حيث قال الله عز وجل

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٤ (٢) سورة الانشراح جميعها .

فى كتابه : « سيجعل الله بعد عسر يسراً »[1] ولا تصطدم حالة بحالة ، لأن ما يتقلب على الناس من نوازع البؤس والفرح أكثر من أن يندرج تحت مقياس واحد لايتعداه .

رأى الزمخشرى :

هذا المعنى الذى أشرنا إليه من اصطحاب اليسر للعسر فى قوله تعالى : « إن مع العسر يسراً » لم نجده لدى الإمام الزمخشرى وهو المفسر الذواقة البليغ ، بل رأينا ما يخالفه حيث قال فى الكشاف :

(فإن قلت : إن مع تفيد الصحبة فما معنى اصطحاب العسر واليسر ؟ قلت : أراد الله أن يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب ، فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة فى التسلية وتقوية للقلوب) .

فكأن صاحب الكشاف يذهب إلى أن التعبير قد قرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر مع أن العسر فى الآية مقارن لليسر فعلا ، وليس كالمقارن ، ولكل وجهة هو موليها .

علاج اليأس :

على أن اليأس داء قتال ، ولما كانت هواجس الإنسان فى أكثر حالاته تدعوه إلى اليأس حين يدرك واقعه الظاهرى دون أن يمتد باستشفافه إلى ما يطويه الله من خير سيؤتى ثماره عن قريب ، فقد رسمت سورة الانشراح سبلا لدرء هذا اليأس القاتل ، وهو التوجه إلى الله بالدعاء ، والارتكان كل الارتكان على عون السماء ، يقول الله جل ذكره: « فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب» ليدعو الإنسان إلى أن يترك واقعه المظلم ويتجه إلى السماء راغباً داعياً ، حيث يجد فى عونها المفرج الواسع من الضيق والالتجاء إلى قدرة الله ، مما يبعث الطمأنينة ويرد التشاؤم إلى التفاؤل ، لأن صاحب القدرة القادرة يستجيب للمضطر إذا دعاه فيكشف السوء ، فهو إذن ملاذ اللائذين وغوث المستغيثين .

وإذا كان القرآن الكريم فى ترتيبه المتناسق يكمل حلقات المعانى المتواشجة إكمالا

---

(١) سورة الطلاق ، الآية ٧

يدركه البصراء بأساليب البيان ، فإن هذا التجاور بين سورة الضحى وسورة الانشراح يؤكد حقيقة التفاؤل ويعلن تعاقب اليسر والعسر ، فقد دلت الآيات الكريمة فى سورة الضحى على هذه الحقيقة الماثلة ، إذ انقطع الوحى عن رسول الله حيناً من الدهر ، فلقى من ذلك الانقطاع عناء نفسياً مبرحاً ، وقد شمت به من أعدائه من يتشفون بما يلقى من صعوبات فى طريق دعوته الكريمة ، فكانت شماتة الأعداء شدة أخرى تضاف إلى الشدة الحادثة من انقطاع الوحى ، فنزل قول الله عزوجل : « والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى »(١) .

نزل هذا القول الكريم ليبشر باليسر بعد العسر ، وبالفرج بعد الشدة ، وبالرجاء بعد اليأس ، وقد ضرب الأمثلة بما تقدم من حياة الرسول حيث قال : « ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى » . وفى ختام السورة يقول الله عز وجل : « وأما بنعمة ربك فحدث » ليكون الحديث عن نعمة الله ، طارداً لليأس ، مؤكداً للأمل ، فإن الذى يتذكر ما أسلف الله له فى أمسه من خالص النعم ، لا ييأس من غده ، بل يقيس الآتى على الغابر فيرتاح .

الإيمان والأمل :

هكذا تترقب النفوس المؤمنة بوارق الأمل فترتاح ، وهكذا تحاول جاهدة أن تطرد هواجس اليأس لتفىء إلى ظل الأمن والطمأنينة . وفى كتاب الله أمثلة تاريخية لبزوغ الأمل فى ظلمات اليأس ، فقد اقتفى فرعون موسى وأصحابه حين فروا هاربين بدينهم الموحد ، وكان العدو من ورائهم والبحر من أمامهم ولا عاصم من الخطر إلا بمعجزة فغلبهم اليأس ، وصاحوا بموسى وجلين : إنا لمدركون ! ولكن نبى الله لم يفقد أمله فى ربه مع أن كل الظروف تنذر بالشر المستطير ، فصاح فى عزم : « إن معى ربى سيهدين »(٢) ، وقد هداه الله فعلا إلى باب النجاة ، فضرب البحر بعصاه ، وتمت له بذلك معجزة النجاة .

---

(١) سورة الضحى ، الآيات ١ إلى ٥ (٢) سورة الشعراء ، الآية ٦٢

ويعقوب : يفقد يوسف وتمتد دونه الأعوام دون عود ، ثم يفاجأ بفقد أخيه ! فلا يدركه اليأس من يوسف ، بل يصيح بأبنائه : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »(١) ، ويتعجب أبناؤه من أمله الموهوم فى اعتقادهم ، وكانوا قد قالوا له فى يأس : « تا الله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون(٢) » يتعجبون لهذا الأمل فى غير مأمل ، ثم ينجلى الأمر عن تحقيق رجائهم ، وسعادة عقباه .

وقد فهم رجال الطب المعاصر أثر اليأس فى خطره الصحى ، وضرره العضوى ، وحللوا ما يطرأ على جسم اليائس من اضطراب يقوده للوبال ، فذكروا أن اليأس يسبب الانقباض ، ويدعو صاحبه إلى الكآبة والاحتجاز عن الناس ، فإذا خلا بنفسه تصور أنه أتعس شخص فى الوجود ، وبالغ فى تصوره ، فيضيق صدره ، وتزيد سرعة النبضات فى قلبه ، وتنخفض حرارته شيئاً فشيئاً ، ثم يفقد شهية الطعام ، وتتكاسل الكبد تلقائياً عن أداء وظيفتها ، فيعقب ذلك هبوط تدريجى يتبعه ارتجاف الأعصاب .

والذين يؤكدون ذلك من رجال الطب لايصدرون عن خيال روائى ، بل ينقلون حالات حية عرضت أمامهم ، وأدركوا مادعا إليها من البواعث ، وما وصلت إليه فى النهاية من خطر منذر بالفناء ، فإذا كان اليأس داعية ذلك كله ، فلماذا لا نلجأ إلى السماء آملين لتمدنا بالعون ، ولماذا لانبحث عن أسباب التفاؤل دون أن نستغرق فى هذا التشاؤم المطبق ، فقد يجعل الله بعد عسر يسراً . وفى الحياة شواهد تنطق بانفراج الأزمات ، وانتهاء الشدائد . وفى ذكر الله اطمئنان (لليائس) لأنه يذكر من يعلم حالته ومن يستطيع أن ينقذه من شره الوبيل .

إن الإنسان يسير فى الطريق رائحاً غادياً ، يتصفح وجوه الناس ، فيعرف اليائس المعذب ، ويعرف الآمل السعيد ، إذ يرى اليائس متجهم الأسارير ، متعثر الخطوات ، يحدثه زميله فلا يستوعب حديثه ، ويكلمه جليسه فيقتضب الرد كمن يحاول التخلص من الحوار ، كما يرى الآمل المتفتح مبتهج النفس ، مشرق الطلعة ، يبدأ بالتحية ، ويستمع

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٧ (٢) سورة يوسف ، الآيتان ٨٥ و ٨٦

فيصغى فى ابتسام ويرد فى اطمئنان ، وقد يكون هـذا الباسم السعيد ممن لايملكون غير قوت اليوم ، ولكنه يأمل فى الغد ، على حين ترى من اليائسين من يملكون القناطير المقنطرة من المال ، ثم لا تستطيع أن تمحو سهومهم الكالح وعبوسهم الكريه ؛ فالأمل ثروة حقيقية ، بدونها يكون الغنى أفقر الفقراء ، واليأس فقر مدقع لا تدفعه خزائن المال ولا بنوك الاستثمار ، وفى أخلاق القرآن مايطرد اليأس ويحيى الأمل ، لو أقبلت النفوس على هدى الكتاب فوجدت فيه أمناً من خوف ، وفرجاً من ضيق ، « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

الأمر بالمعروف

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . (قرآن كريم)

أوسع المفسرون كتاب الله عز وجل شرحاً وتفسيراً ، فما تركوا — على ممر العصور — آية كريمة دون أن يذكروا كل احتمال فى تأويلها . وقد تتعدد الآراء فى الآية الواحدة ، إذ يفتح الله على مفسر بغير ما يفتح به على مفسر آخر من التأويل ، ولكل دليله الناهض ، وتبريره المرجح ، وهذا من تيسير الله للذكر ، إذ هيأ من يشرحه على شتى احتمالاته ، وسبيلنا اليوم إذا أردنا أن نفسر آية كريمة أن نذكر ما قيل فى شرحها من وجوه ، وأن نختار ما نميل إليه من التوجيه ، بأدلة توجب هذا الاختيار ، على ألا نغفل رأى المخالف ، بل نذكره دون تجريح أو تشهير ، لأن طلب الحقيقة فى ذاتها يدعو إلى الجدال العاقل والمناقشة بالتى هى أحسن .

وقد قرأت قريباً تفسيراً لقول الله عز وجل : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ، فوجدت صاحبه ينقل أحد الرأيين فى الآية ، وينسبه للإمام الزمخشرى ، ويذكر أدلته الظاهرة فى تأييده ، ثم يذكر الرأى الآخر لائماً منددا محقراً ، ويذكر أصحابه بالتجريح ، مع أنهم أئمة فضلاء .

وقد خالف الكاتب وجه الحق فى موضعين :

الأول : أنه حين نسب رأيه للزمخشرى أوهم القارئ أن صاحب الكشاف لم يذكر غيره ، مع أن الزمخشرى ذكر الرأيين معاً ولم يرجح أحدهما على الآخر إلا بما يستشفه صاحب الذوق الفنى من خلال السطور ، وهو استشفاف ذاتى لايعدم من يستشف سواه لانطباع آخر ، لأن العبارة غير حاسمة .

والموضع الثانى : أنه حين خالف رأى غيره لم يذكر دليله ثم يكر عليه بالتوهين ، بل اكتفى بالخطابية السيالة فى عبارات إن جازت فى خطابة العامة فلا تجوز فى مجال الكتابة التحليلية والدرس البصير ، وهأنذا أناقش الرأى لأصحابه ، ومن عادتى أن أغفل اسمه حين ألجأ إلى تخطئته ، كيلا يتوهم أحد أننا نقصد التخطئة لنكشف صاحبها ، مع أننا جميعاً طلاب حقيقة دون نزاع !

لقد تعرض الزمخشرى لقول الله عز وجل : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » فقال رحمه الله :

« ولتكن منكم أمة » من للتبعيض ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ، ولأنه لايصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته ، وكيف يباشره ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وقد يغلظ فى موضع اللين ، ويلين فى موضع الغلظ ، وينكر على من لايزيده إنكاره إلا تمادياً ، أو على من الإنكار عليه عبث ، كالإنكار على أصحاب المآصر ، والجلادين ، وأضرابهم ، وقيل : من للتبيين بمعنى وكونوا أمة تأمرون ، كقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »[1] .

هذا ما قاله الزمخشرى بنصه ، فقد ذكر الرأيين معاً ، ثم أتى بعد ذلك بأمثلة ورد عليها ، فدل على أنه لا يرجح أحد الرأيين على الآخر ، ولكن الكاتب الفاضل قد أغفل رأيه الثانى ، ومضى فى تجريح قائليه وكأنهم ليسوا أئمة من كبار المفسرين ، بل كأنهم طلبة يتخبطون مبتدئين ، مع أنهم أشبعوا رأيهم تأييداً وتدليلا ، وجاءوا بما يشفى صدور الباحثين ، ونستطيع أن نقدم خلاصة للباب ما قالوه فى هذه النقاط :

(أولا) قال الله تبارك وتعالى فى سورة العصر : « والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات * وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، فجعل التواصى بالحق وهو الأمر بالمعروف سبيل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جميعاً ، ولم ينص على فريق دون فريق .

(ثانياً) قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

---

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

عن المنكر وتؤمنون بالله » ، فجعل الخطاب للمؤمنين جميعاً ، ولم ينص على فريق دون فريق ، وإذن فقد كانوا خير أمة ، لأنهم جميعاً يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

(ثالثاً) قال الله تبارك وتعالى متحدثاً عن بنى إسرائيل : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون • كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »(١) .

فحقت عليهم اللعنة — وهى عقوبة شديدة — حاصلها الطرد من رحمة الله والبعد عن غفرانه ، إذ كانوا يرون المنكر دائماً شائعاً ثم لايتناهون عما يفعلون من المناكر ، فلعنوا على لسان داود وعلى لسان عيسى ابن مريم ، وقد روى أبو داود عن عبد الله ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا ، اتق الله ، ولا تصنع الشر ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه فى غد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله أو شريبه أو قعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم تلا رسول الله قول الله عز وجل : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ، وكان رسول الله متكئاً فجلس ثم قال : (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسىء ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم) .

ومع هذه الآيات وأمثالها طائفة من الأحاديث الصحيحة ، مثل ما روى البخارى عن النعمان بن بشر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(أ) (مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأخذ كل واحد منهم نصيباً ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء يمرون به على الذين فى أعلاها فتأذوا ، فقال الذين فى أسفلها : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فأخذ أحدهم فأساً ، فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه ، فقالوا : مالك ؟ قال : تأذيتم بى ، ولابد لى من الماء ، فإن أخذوا على يديه ومنعوه أنجوه ، ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه هلك وهلكوا) .

---

(١) سورة المائدة ، الآيتان ٧٨ و ٧٩

(ب) روى مسلم وغيره من أصحاب السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من رأى منكم منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

(حـ) روى أصحاب السنن عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال فى خطبة خطبها : (أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ، وتؤولونها على خلاف تأويلها : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم »[1] ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما من قوم عملوا بالمعاصى ، وفيهم من يقدر على أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده) .

هذه ثلاث آيات ، وهذه ثلاثة أحاديث ، وللآيات والأحاديث ، نظائر كثيرة يضيق المجال عن سردها وفيها مقنع أى مقنع لمن يجعلون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمراً عاماً ، فهم ليسوا بأدعياء فى العلم كما حاول الكاتب أن يصمهم فى استعلاء لا داعى له .

ولنا أن نكر على ماقاله الزمخشرى خاصاً بالرأى المخالف فنقول :

إن قول صاحب الكشاف أنه لا يصلح للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ! هذا القول يدل على أننا نريد من كل مسلم أن يلى الفتوى أو القضاء أو الحسبة ! حتى نشترط هذه الاشتراطات ، ولكن المسألة لاتخرج عن الأمور العامة التى يعرفها كل مسلم ، فالحلال بين والحرام بين ، وكل مسلم يعرف أن الله أمره بواجبات عليه أداؤها ، ونهاه عن محرمات عليه اجتنابها ، هذه الواجبات المسلمة ، وتلك المحرمات المشتهرة ، هى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكل إنسان ، وإذا كان على كل مسلم أن يعلم ما أحل الله وما حرم فى أمور دنياه فقد وجب النهى عن المنكر والأمر بالمعروف .

ولنا أن نشير إلى ما فهمه بعض السذج من حديث : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه) حيث فهم أن الإنكار القلبى لدى غير المستطيع فى الحالة الثالثة هو الاكتفاء بالسكوت الظاهرى ولكن المراد غير

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١٠٥

ذلك ، إذ على المنكر بقلبه أن يشيح عن مجالس العصاة ، وأن يظهر الضيق النفسى لمن يحادثونه عن مخازيهم ، فإذا أجمع الناس على مقاطعتهم ، ونظروا فوجدوا السخط الصامت ، والغضب النافر أدركوا ما وراء الصمت من استنكار ، وعلموا أن عدم الاستطاعة وحدها من الأشياء التى حالت دون المجابهة ، وإذ ذاك يضطرون إلى إرضاء المجتمع ، إذ لاحياة سعيدة لهم بدونه ، أما لو كان معنى الإنكار القلبى مجرد الصمت مع المخالطة والمعاشرة والمهاشة والترحيب فلا قيمة إذن له ، وهذا بعض ما يفهم من قول الله عز وجل : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين »[١].

هذا لباب ما يمكن أن أوجزه فى هذا النطاق ، ولعل الذين يكلفون باستعراض وجهات خاصة من شتى الجهات المختلفة فى تفسير الآية الواحدة أن يعلموا أن القارئ ذو حق صريح فى أن يستكمل معرفته التامة لما يطالع من المسائل ، وأنه لايجوز أن نكتم شيئاً ونظهر شيئاً آخر ، وكلنا طلاب حقيقة ، فلا علينا إذا كان ما نخالفه من الرأى يجد تأييده عند غيرنا ، بل علينا أن نساعد على جلاء الحقيقة بالنظر إلى شتى الزوايا المتقابلات .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٨

الصداقة خلق انسانى

كنت أقرأ فى الجزء الرابع من كتاب (فيض الخاطر) لأستاذنا الكبير الدكتور أحمد أمين رحمه الله ، فعثرت على خطاب خلقى بديع كتبه إلى أحد أصدقائه محللا عاطفة نبيلة نحوه . وفيه يقول :

(لقد صادقت ، فاستصغرت متاعبى ، وهزئت بهمومى ، وظهر خير مافى نفسى ، ودبت القوة فى إرادتى ، وشعرت بالحرارة فى همتى ، فماذا أكون لو لم تكن ، لقد ساء ظنى بالناس ، وأنكرت المروءة والإخلاص والوفاء ، وظننت أنها ألفاظ وضعت لأوهام واللغة لم تتحرر من أن تضع أسماء للموجود والمعدوم ، والجائز والمستحيل ، والشىء واللاشىء ، فلما عرفتك آمنت بك وبالناس وبالألفاظ ، ودلالتها على المعانى ، ثم كنت غريباً بين أهلى وولدى ، فإذا أنا بك حاضر فى غربتى ، مؤتنس فى وحشتى ، لأنك فى قلبى ، وقلبى معى ، ما أظنه يفارقنى ولا بالموت .

لقد كنت أنزل قبلك فى مسبعة ضريت وحوشها ، واحتدت أنيابها ، يتظاهر أهلها بالود ، ويضمرون العداء ، ويبكون مع الراعى ، ويعيشون مع الذئاب ، فاليوم نزلت بك فى جنة نعيم ، آمنتنى صداقتك من خوف ، وطمأنتنى من روع ، وفتحت لى أبواباً من السعادة يعجز عنها اللفظ ، ولا يحدها وصف ، حسبى أن أذكرك فأشعر بشفاء للصدر ، وبرد من حرقه ، وطرد للهم ، ومبعث للرجاء ، وتفتح للأمل) .

والخطاب على طوله بديع رائع يلمس أرق المشاعر فى أطواء النفس ، ولو أستطيع لنقلته جميعه فى مقالى ، ولكنى دللت على موضعه ليستظل به من يجد سموم الغدر من عاق ، فيظن أن الصداقة قد فنيت فى الحياة ، وذهبت إلى العدم ، وهو معنى كونه بغيض ، يسود له العيش ، وتتأزم به الصعاب ، وقد ساعد على تثبيته ما ردده بعض الشعراء فى أزمات خاصة تنطقهم بمثل قول المتنبى :

خليلك أنت لا من قلت خلى   وإن كثر التجمل والكلام

وقول أبي العلاء :

فظنّ بسائر الإخوان شراً ولا تأمن على سر فؤادا

فلو خبرتهم الجوزاء خبرى لما طلعت مخافة أن تصادا

وقول مهيار :

فلا تغررك ألسنة رطاب بطائنهن أكباد صوادى

فإنى بعد تجربتى لعيشى أنست ولا أغشك بانفرادى

وهى أقوال تعبر عن أزمات تشتد وتنفرج ، وليس قول الشاعر إلا صدى لانفعال مؤقت ، وقد ينقلب فى وقت آخر إلى انفعال مضاد ، فيأتى الشاعر بضد ما قال ، وهذا ما نلمسه فى اختلاف المناحى النفسية لدى الشعراء ، ولكن القارئ المتعجل يعتقد أن ما قيل فى دواوين الشعر حكم لا تقبل الخلاف ، ومن هنا كثر الاستشهاد بالشعر فى مناسبة وغير مناسبة ، وأنا لا أمنع الاستشهاد إذا كان ترويحاً عن نفس ،أما إذا كان القول الانفعالى حكماً نهائياً لايقبل المراجعة فذلك ما لا أرتضيه .

إن الصداقة فى لبابها مشتقة من الصدق، فهى فى فحواها النفسى إخلاص لا يشوبه لبس ، وصفاء رائق لا يرافقه تكدير ؛ وقد حث الإسلام على الصداقة بين أبنائه حين جعل المؤمنين إخوة متحابين ، وحين صورهم رسولهم الكريم فى توادهم وتراحمهم فى صورة الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، ومهما تحدث الأخلاقيون عن الفرق بين الصديق والأخ ، فإن جامعة الإخلاص والحب والتوادّ تلفهما فى نطاق واحد متجانس ، فى معشر أصبح الواحد منهم للآخر كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

والشعور بالصداقة شعور غريزى يدفع إلى التكوين الطبيعى للإنسان ، إذ أن كل فرد من بنى آدم تجيش أحاسيسه وتموج خواطره بمعان تتطلب التنفيس فى فضاء أوسع مهما بين العظام من فراغ ، حيث تنطلق هذه الأحاسيس على اللسان من قفصها الضيق بين أطباق الصدر ، مفصحة عن حقيقتها المخلصة الخالصة ، ولابد من سميع حبيب يتلقى هذه الخواطر ، ليشاطر فى بأسائها مواسياً ، وينهل من نعمائها سعيداً ، وأحوج ما يكون الإنسان إلى هذا التنفيس المروح إذا كان فى بأساء تتحاق قبضتها على نفسه ،

لأنه فى حالة النعماء سيجد من يستمع ويرحب ، بل من يداجى ويتملق ، أما فى شدة البأساء فما أصعب الحاجة إلى مواس صديق ، يفسح سمعه وقلبه للشكوى الكاربة ، والهم الثقيل ، ومن هنا كان صراخ الشعراء فى غياهب اليأس مما يلمس الوتر الأرن فى النفوس ، وكان اشتياقهم فى هذه اللحظات الضيقة شجناً دامياً يردده مثل أبى فراس الحمدانى فى قوله :

لقد دعت الدنيا إلى الغدر دعوة   أجاب إليها عالم وجهول

فوالهفتا من لى بخل موافق   أقول بشجوى مرة ويقول

ومثل قول البارودى :

أبيت فى غربة لا النفس راضية   عنها ولا الملتقى من شيعتى كثب

فلا أديب تسر النفس طلعته   ولا صديق يرى ما بى فيكتئب

ولا نريد أن نسترسل فى الاستشهاد ، إذ أن قراءة الآداب الإنسانية فى شتى اللغات يقفون على الكثير من أمثاله ، وإذا كانت الصداقة جنة وارفة الظلال ، فإنها مع مسيس الحاجة إليها ، تؤتى من ناحية خطرة تكدر صفاءها الرائق ، وتطفئ بريقها الخالب ، وذلك حين تكون أداة منفعة وصولية يترصدها الصديق ، فيظهر مودته استجابة لمطلب مادى يرسم له خطواته ، ويسعى إلى اقتناصه ؛ فإذا أدرك مآربه ، شعر بامتلاء نفسه من طعام شبع منه ، فلم تعد به حاجة إليه ، وليس معنى ذلك أن الصداقة ليست باباً للنفع المتبادل ، ولكن معناه أن الصداقة الحقة تنشأ أولا بين الصديقين تلبية لحاجة نفسية ، يفرضها اشتباه الميول ، واقتراب المشارب ، وائتلاف الأمزجة ، بحيث يجد الصديق فى صديقه صورة من نفسه ، وأقول صورة من نفسه لا صورة من منصبه أو ماله ، أو تخصصه ، إذ قد يختلف المنصب والمال والتخصص ، وتبقى النفس بسجاياها وأشواقها وتذوقها صورة للنفس الأخرى دون اختلاف ، فإذا نتج عن هذا التآلف المخلص ، والتواد الصادق ، نفع مادى للصديقين أو أحدهما ، فقد جاء هذا النفع المادى تالياً للصداقة ، وثمرة سقطت طبيعية من الغصن بعد أن غرست البذرة ، ونما العود ، وأورقت الأفنان ، أما إذا حتمت المنفعة الشخصية صداقة مفروضة دفعت إليها الضرورة فهى تجارة مؤقتة تنتهى علاقتها حينئذ بانتهاء الربح ، وتلك لا تسمى صداقة وإن خدعت الناس فسموها بذلك ، وقد حرصت على أن أصف النفع بالمادية ، لأن

النفع الأدبى بين الأصدقاء واقع لا شك فيه ، إذ كل صديق يأنس بلقاء صديقه ، ويجد فى حديثه المتنوع راحة تقشع الغيم ، وتنفى الكدر ، وتمد الروح بوقود يعين على السير فى شعاب الحياة .

وكم يعجب الإنسان كل العجب حين يقرأ لأناس عرفوا بالحكمة والمنطق ، كلاماً فى الصداقة يضيق به صدر المنصف ، ويمتعض له ذو الود الشريف .

فمحمد بن أبى الجهم كان حكيماً يقرأ كتب المنطق ، ويناقش المأمون ، ويحضر مناظراته العلمية ، ويترجم عن كتب اليونان ، وقد كانت هذه الثقافة المتعمقة مظنة تهذيب نفسى ، يدفعه إلى أن يأتى بما يغذى الروح الإنسانية من شعور ، ويرفعها من إحساس ، ولكنى وجدت له فى تحديد العلائق الإنسانية أقوالا بغيضة شائهة ، وما من سبيل إلى استقصائها فى هذا النطاق ، ولكنى أذكر منها قوله فيما يخص الصداقة والأصدقاء : (من شأن من استغنى عنك ، ألا يقيم عليك ، ومن احتاج إليك ألا يزول عنك ، فمن حبك لصديقك ، وضنك بمودته ، ألا تبذل له ما يغنيه عنك ، وأن تتلطف فيما يحوجه إليك ، وقد قيل فى مثل هذا : أجع كلبك يتبعك ، وسمنه يأكلك ، فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر ، وقطع أسبابه من الشكر ، والمعين على الغدر شريك الغادر ، كما أن مزين الفجور شريك الفاجر) . اهـ .

وقد سقط ابن الجهم سقوطاً شنيعاً فيما قال وانتحى ، إذ زعم الحاجة المادية وحدها هى داعية الصداقة ، تذهب بذهابها ، وتبقى ببقائها ، ثم بنى على ذلك أن يكون البخل بما يغنى الصديق ، وينقذه من ضيقه ، وسيلة قوية لبقاء الصداقة ، لتظل الحاجة المادية عامل التقارب والالتقاء ، ثم بلغ به الهذر مبلغه حين ذكر المثل الجارح (أجع كلبك يتبعك) فجعل صديق الإنسان ، وهو متنفس همه ، وموضع سره ، كلباً ينشد العظم الملقى فى الطريق ، ثم زين له بخله النفسى ، وشحه الجبلى ، أن يمحل أسباباً للكزازة البغيضة ، فزعم أن من أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر ، وقطع أسبابه من الشكر ، وواصل الاستنتاج فزعم أن المعين على الغدر شريك الغادر ، ما أن مزين الفجور شريك الفاجر ، وهذا القول الوبىء يشى بنفس قائله ، ويصوره للناس عارى الثياب ، إذ أن الرجل فى أعماقه يكره أن ينال خيره أحد ، ثم يرى ذلك شحاً ينكره الناس ، ويجعلونه موضع الزراية والاستخفاف فيحاول أن يختلق تبريراً لبخله الشحيح ،

فيلجأ إلى سفسطة ينكرها المنطق الذى يدعيه ، والحكمة التى يقرأ كتبها لتعلو بعفته فى مجتمعه .

ولو فطن أبى الجهم إلى أن الحاجة إلى الصداقة فى سببها الأول حاجة أدبية لا تزال تتجدد بتجدد الحياة ، إذ أن كل إنسان مهما ارتقى فى معارج تفكيره فى حاجة إلى مبادلة الشعور ومطارحة الرأى ، لو فطن ابن الجهم إلى ذلك ما توهم أن معونة الصديق المادية تقطع مودته ،وتقضى على أسباب اتصاله ، لأن الحاجة الأدبية باقية متجددة ، بل إن الإسعاف المادى لدى الحاجة إليه مما يؤكد الصداقة ، ويدعو إلى استحصادها ومرتها ، فحين يرى الصديق أن صاحبه قد مد له يد العون فى مأساته ، فإنه يستشعر له حباً يملأ شغافه ، ويكون مدعاة جذب دافع لا مضنة انقطاع متوهم ، أما صاحب اليد فيزداد تعلقاً بصاحبه حين يعلم أنه بعض نفسه ، وقد أسعفه بما يحتاج إليه كما يسعف نفسه دون تفرقة ، فالمواساة إذن عامل قوة وتثبيت ، ولن تكون مدعاة ضعف وتوهين وإذا وجد فى الأصدقاء من كفر بالنعمة وجاهر بالجحود ، فهؤلاء قلة لا يناط بهم حكم عام ، لأن الكثرة الكاثرة ذات روح إنسانى فطر الله عليه النفوس وجبلها على الحق والخير والشكران .

على أن النفع المادى لو كان وحده باعث الصداقة كما توهم — أو كما أراد أن يوهم ابن الجهم — ما رأينا الصديق يفتح باب الخطر على نفسه ، معرضاً حياته للمهلكة دفاعاً عن صديقه ، ولا زلنا نذكر أن عبد الحميد الكاتب كان قد استتر عند ابن المقفع حين سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، وقد فاجأهما الطلب ذات عشية فسأل الطارق المهاجم فى غلظة : أيكما عبد الحميد ؟ فقال الاثنان معاً : أنا ، إذ أن ابن المقفع أراد أن يفتدى صديقه ، وهو يرى الموت منه قاب قوس ، ولكن عبد الحميد صاح : لى علامة أعرف بها ، ويعرفها من بعثكم ، وها هى ذى ، حتى انتهى الأمر بمصرعه .

وهذه الحادثة وأمثالها مما يكرم به الخلق الإنسانى ، ويجعل لسجايا السمو والتفدية والحب ملذات عالية دونها ملذات الدراهم والدنانير ، ويكفى الصداقة أهمية أنها تشعر الصديق أنه لا يعيش وحده ، بل هناك من يفزع لمصابه ويبهج لسروره ، هذا الشعور الممتن المنعش الذى جعل أحد الأصدقاء يتحدث عن صديقه ، فيقول فى هوى واعتزاز :

وكنت إذا النوائب أقعدتنى ... يقوم لها وأقعد لا أقوم

بين التفاؤل والتشاؤم

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون »(1) .

(قرآن كريم)

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » : نص قرآنى يبعث الاطمئنان الواثق فى قلب المؤمن الصادق ، إذ يعتقد أن الخيرة كل الخيرة فيما كتب الله عليه ، فإذا لقى خيراً فالسعادة واضحة لا التباس فى شأنها ، وإذا لقى شراً ظاهرياً فهو ابتلاء دنيوى يمحص الله به عباده ، ونقول شر ظاهرى ، لأن نظرات الناس لا تصيب التحليل الصادق غالباً فيما يفاجئها من الأحداث ، إذ يتضمن الشر فى لفائفه كثيراً من الخير المستتر ، وكم وقعت كارثة ظنها الإنسان ما حقة كاسحة ، ثم تكشف الأيام عن بذور خير نبتت فى أرض المصيبة فاستطال جذعها وأورقت وأثمرت كل جميل ، فكلا الخير والشر مكسب أكيد للمؤمن الواثق بلطف الله ، وحسن اختياره لما ينزل بعباده من بأساء ونعماء ، ولا كذلك الجاحد المعاند الذى يستشعر القلق فى كل وقت ، ويتشاءم بكل حادث تنبئ ظواهره عن الشر ؛ لأنه حرم الرجاء فى ربه الكريم ، فسدت فى وجهه السبل ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت .

تربص المنافقين :

وفى الآيتين الكريمتين اللتين تصدرتا هذا المقال ما يكشف عن معدنين مختلفين : معدن صافى السريرة ، خالص الإيمان تنزل بأصحابه الشدة فتأتلق نفوسهم بالأمل ، وترى أضواء الفجر فى غبش الظلام ، ويصبح صائحهم بلسان راض وقلب منشرح :

---

(1) سورة التوبة ، الآيتان ٥١ و ٥٢

« لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، ومعدن مختلط التركيب ، مضطرب الاتجاه ، لا يدرى أين تقذف به الريح إذا هبت أعاصيرها الشداد ، فهو قد نقد الإيمان الواثق ، فجعل يتربص الدوائر بالمؤمنين ، ظاناً أن ما يتعرضون له من هجمات الأعداء سيأتى على أمنهم المستقر ، فإذا أصابت المؤمنين حسنة ساءته ومن ينحون نحوه فى أعماق نفوسهم المنحرفة ، وإذا أصابتهم سيئة أظهروا المهارة والحذق وبعد النظر وصاح صائحهم : قد أخذنا أمرنا من قبل ، حين أحجمنا عن المساهمة فى القتال وتولوا وهم فرحون .

وهؤلاء الحسدة المضطغنون فى حاجة إلى من يعلمهم أن المؤمنين على طريق السعادة لا يتربصون إلا إحدى الحسنيين ؛ إما الظفر الكاسح فى ساحة القتال ، وإما الاستشهاد البهيج ، فيصبحون أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، أما ذوو النفاق الحاقد فأمام خطر محقق من الله ، إذ يصيبهم بعذاب من عنده ، أو على يد أوليائه المخلصين ، فإذا اعتقد المؤمن فى المصير الحسن هش وبش ، وانشرح وتفاءل ، وإذا تجهمت الدنيا فى وجه الجاحد الحاقد فياويله من نار تشتعل بين جوانحه ، فإذا فارق الحياة فبئس المصير .

نظرتان مختلفتان :

إن المتفائل من ذوى الإيمان ينظر إلى الأشياء بمنظار طبيعى ، فهو لا يبالغ فى تقدير العواقب مبالغة من يتوقع الشر ، فيظل عابس الوجه منقبض الأسارير ، ولكنه يزن كل شىء بميزانه الطبيعى ، معتقداً أن الله عز وجل قد جعل لكل ضيق فرجاً ، ولكل عسر يسراً ، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر فى متاعب يومه وأعباء غده ، بل معناه أن يضع كل عقبة تعترضه موضعها الطبيعى دون مبالغة أو تزيد ، ثم يبحث عن الحل المناسب فى هدوء وثقة ، فإذا كانت النتيجة سارة مرضية شكر الله وابتهج ، وإذا جاء الأمر على غير ما يود بعد أن بذل جهده الطبيعى فى التذليل فقد ادخر كفاحه عند ربه ، وله أجر الصابر المحتسب حين حمد الله على السراء والضراء ، مع تفاؤل باسم ينتظر به غيوث الرحمة بين حين وحين .

أما المتشائم فيحسب كل صيحة عليه ، يعمل فى ضيق ، فيجهده العمل القليل ، إذ أن نفسه تعانى من أكداس التشاؤم أعباء ترين على ظهره ، فيمضى كالمكبل

بالأغلال ، وذلك وحده فشل يمهد لسواه ، ويجعله ييأس فى أول الطريق أمام أهون العقبات ، فإذا كانت العقبة عاتية تتطلب الصبر خانته أعصابه فبرم واستيأس . وحسب الإخفاق نتيجة محتومة ، لأنه لا يفكر فى قوة أخرى فى السماء تدعوه للتفاؤل وتجعل بعد عسر يسراً ، ومن المؤسف أن المتشائمين هم الكثرة الكاثرة فى بلاد الشرق ، وأكثرهم يعد الإخفاق أمراً مفروضاً عليه ، ولا حيلة له فى اجتنابه ، فإذا حاولت أن تدفعه للعمل ضارباً بالمثل بمن نجحوا فى ظروف أصعب من ظروفه ، أساء بك الظن ، وعدك شامتاً غير ناصح .

التشاؤم مرض عنيد :

ظهر أن التشاؤم من صفات المرضى لدى علماء النفس ، وصاحبه إلى حاجة إلى علاج يرتفع به عن حضيضه الكريه ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطيرة ، إذ كان العرب فى جاهليتهم يتطيرون ويتشاءمون ، فإذا أراد أحدهم السفر فى حاجة أثار الطير ، فإن جرت يميناً تفاءل ، وإن جرت شمالا تشاءم ، ولا يزال لدينا الآن من يستقرئ صحف الغيب عن طريق الأوهام ، فيفتح المصحف ليرى أول آية تطالعه ، فإذا تحدثت عن خير سُرّ ، ومضى لعزمه متفائلا ، وإذا تحدثت الآية عن شر تجهم وانقبض ، وكفّ عما يحاول من أمور ، وما نزل كتاب الله ليرى الناس عاقبة شئونهم المعيشية ، كسباً أو خسارة ، ولكنه نزل ليرى المسلمين العاقبة المطمئنة لمن اعتصم بمبادئ القرآن ، فآثر الفضائل وجانب الرذائل ، كما أمد المؤمن بزاد من التفاؤل حين دعاه إلى السير فى جنبات الأرض سعياً وراء الرزق ، حين حذره من الخواطر المتشائمة والوساوس المريضة ، فقال جل ذكره : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

من الحديث النبوى :

ولا نظلم العرب فى الجاهلية فندعى أنهم وحدهم المتطيرون المتشائمون بالغراب وما شاكله من المنفرات ، فإن الأمم العريقة إلى يومنا هذا لم يخل أفرادها من التطير الموهوم بالكلب الأحمر وبرقم ١٣ وبالبومة الناعقة ، وما لا نطيل فى سرده من الأوهام الذائعة عنهم ، لذلك جاء الإسلام محارباً التطير ، داعياً إلى التفاؤل ، قال صلى الله عليه

وسلم : (ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة والظن والحسد ، فإذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق) .

وهذا الحديث من أعلام النبوّة حقاً ، لأنه يصف الداء الواقعى ثم يعقب بالدواء الميسر ، لأن الطيرة إذا كانت من أدواء النفوس فعلاجها الحاسم فى قوة الإرادة وفى التصميم على العمل دون التفات إلى هجمات التعويق ، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد المتفائلين ، فقد روى أبو داود عن بريدة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء ، وكان إذا بعث عاملا سأل عن اسمه ، فإذا أعجبه فرح ورئى البشر فى وجهه ، وما نجح رسول الله فى رسالته إلا بالتفاؤل المستبشر ، إذ تجمعت الدنيا على رهطه القليل فما استسلم ، ولكن إيمانه بالله ، وثقته فى ربه كانا باعثى التفاؤل فى أحلك أوقات الشدة .

وللقارئ أن يذكر بشارته للمسلمين بفتح فارس ، وهو محاصر بالمدينة يوم الأحزاب ، وقد تجمعت القبائل عليه تريد استئصال الإسلام ، هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ، ولكن الرسول الواثق بربه يؤكد لأصحابه نجاح العاقبة ، ويعدهم ما حققت الأيام صدقه ! ولو تخلى الرسول عن التفاؤل لحظة لتخلى عنه فى مأزقه الشديد يوم الخندق ، مما أثار عجب كثير من السامعين ، فتساءل أحدهم : كيف وأحدنا لا يأمن اليوم على نفسه ؟

تصحيح وتحقيق :

للإمام بدر الدين الزركشى كتاب جيد سماه : (الإجابة ، لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) ، وقد جمع فيه عدة أحاديث نسى الرواة فتلوها على غير وجهها ورأت أم المؤمنين رضى الله عنها أن تقوم بالتصحيح والاستدراك حفظاً على المعانى النبوية الكريمة أن تتجه إلى غير مدلولها الصحيح ، ومن هذه الآثار النبوية التى احتاجت إلى تصحيح السيدة عائشة ما رواه أبو هريرة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الشؤم فى ثلاثة : فى الفرس ، وفى المرأة ، وفى الدار) ، فقد استغربت أم المؤمنين أن يبتر الحديث عن سياقه ، فقالت : لم يحفظ أبو هريرة ، فإنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : (قاتل الله اليهود ، يقولون : الشؤم فى ثلاثة : فى الدار وفى المرأة وفى الفرس ، فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله) .

ومع هذا التصحيح الصريح ، فلا يزال لدينا من يقرأ الحديث مبتوراً ، وآخر ما رأينا فى ذلك يضطغن على الإسلام فيعلن أنه يحتقر المرأة ويراها مصدر الشؤم ، ويستدل بالحديث المبتور ، ولو صدقت نيات هؤلاء المضطغنين لجمعوا أقوال الرسول الثابتة فى الصحاح عن المرأة ، وقارنوا كل ما قال بهذا الحديث المبتور ، ليروه غير محتمل الصدور عنه ، ولكن الغرض يعمى .

يقول الأستاذ سعيد الأفغانى ، ناشر كتاب الزركشى ، تعليقاً على الحديث : (والغريب أن هذا القول البعيد عن روح الإسلام لا يزال يعتقد به أشباه العوام حتى يومنا هـذا على رغم تصحيح السيدة عائشة له من ثـلاثة عشر قرناً) ، ونحن نقـول للأستاذ الأفغانى : إن الأمر لم يقتصر على أشباه العوام ، بل انتقل إلى من يدعون البحث النزيه .

من صحف الأدب :

حفلت كتب الأدب بأمثلة رائعة تدل على ما يبعثه التفاؤل فى النفس من عزيمـة وما ينتجه من انتصار ، وهى طرف نادرة لهـا أثرها القوى فى شحذ العزائم ، وصلابة الإرادة ، وتجاوز العقبات ، ولنا أن نستشهد ببعضها :

١ ــ سئل الإمام على كرم الله وجهه بعد يوم الخندق ، وكان قد نازل عمرو بن ود أكبر محاربى المشركين بسالة وجرأة ، وله سجل الوقائع خوارق نادرة ، سئل كرم الله وجهه : بم انتصرت على عمرو يوم الخندق ؟ فقال : كانت نفسى تحدثنى أنى سأغلبه ، وأنه سيتقهقر أمامى ، فلم أبال به فى شىء .

٢ ــ دخل الحجاج بن يوسف الثقفى الكوفة بعد رجوعه من حرب الخـوارج ، فجمع الناس فى المسجد ، وصعد المنبر ليخطب ، فانكسر لوح خشبى تحت قـدمه ، وتغيرت الوجوه ، والتفت كل مستمع إلى جاره ، فصاح الحجاج : ما هذا يا قوم ، أئن انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد هصور تشاءمتم ؟ ما هكذا الرجال !

٣ ــ خطب قتيبة بن مسلم البطل الفاتح على منبر خراسان ، فسقط القضيب من يده وتطير عـدوه ، واغتم صديقه ، فعرف البطل خوافى ما دار فى النفوس ، فقال على البديهة : ليس الأمر كما ظن العدو ، وخاف الصديق ، ولكن كما قال الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قـرَّ عينـاً بالإياب المسـافر

وأمثال هذه الطرائف لا يأتى عليها الحصر ، وهى نافعة لمن قرأ فاعتبر ، وتأمـل فاستفاد .

أثر الدعاء .. ومتى يستجاب ؟

كثرت المجلات الإسلامية في ربوع الحنيفة كثرة ترتاح إليها النفوس ، بحيث أصبحت كل دولة إسلامية تصدر أعداداً منتظمة لها قراؤها الكثيرون ، ففسحت المجال الواسع للبحث الديني ، والإشعاع الروحي ، وأسهمت بقسطها الكبير في اليقظة والتوجيه .

وإذا كان كثير مما ينشر في هذه المجلات المختلفة ينحو المنحى الصائب في حسن التأتي ، وسداد الفطرة وإصابة الهدف ، لما رزق كاتبوه من دقة الفطنة ، وطول التجربة ، وسعة الأفق ، فإن بعض ما يتساهل في نشره لا يؤدي دوره التوجيهي في قوة الإقناع ، وعمق النفاذ ، وذلك طبيعي لا يستغرب في دنيا الناس ، لأن الكاتبين على درجات مختلفة في سلم الإصابة والتجويد ، وعلى المخلصين من نقدة الكلام أن يدلوا بآرائهم فيما لا يستحسنون ، ليلمس صاحب التقصير نواحي ضعفه فيعمل على استكمالها ولعل من توفيق القول ألا نشير إلى أسماء الهابطين ، كيلا يتألم كاتب مؤمن أدى دوره أو حاول أن يؤدي دوره كما يستطيع ، إنما نضرب المثل بذكر أصحاب الأسماء الموفقة ففي ذلك تنشيط وتأييد ، وحث على المسير .

لقد تصادف أن قرأت مقالين في وقت واحد عن استجابة الدعاء في مجلتين متقاربتي الزمن لباحثين مجتهدين ، فرأيت بينهما بعداً شاسعاً في اختلاف النظرة ، وإصابة الهدف ، وقلت في نفسي : إن سكوت النقد عن أحدهما مما يسيء إلى اطراد التفكير الإسلامي ، بل ربما دعا بعض الغافلين إلى احتذاء ما ينقد ويعاب ، الكاتبين كالقارئين ، منهم من يستصوب غير الصواب ، فيرتضي وجهة غير مرتضاة ، ولابد لهؤلاء من صيحة توقظ النائمين .

لقد بدأ الكاتب المنقود حديثه عن استجابة الدعاء بوعظ ساذج ، إن صلح للمنبر في القرى الأمية ، فلن يصلح للكتابة في المجلات العلمية ، حتى إذا بلغ إربته من حشد

الأسجاع ، وتنميق الفواصل ، كان اعتماده الكلى على النصوص ، تساق مبتورة مقتضبة دون أن تشفع بتوجيه أو تحليل ، بل قصاراه أن يستدل بقول الله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » ، وبقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى : (من فتح باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، إن الدعاء ينفع فيما نزل وما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى فى حاجة إلا أتاه إياه أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم) .

ثم ينتقل الكاتب دون توجيه إلى حديث الأنبياء ، فينقل هذه النصوص الكريمة : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين * وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين * وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » .

ثم ختم المقال بقصتين أسطوريتين لا غناء لنا فى الإشارة إليهما ! .

وكتابة المقال على هذه الصورة لا تفيد قارئاً يريد أن يعرف سر الدعاء ومتى يستجاب ؟ بل إننا لنتركه فى حيرة حين يدعو الله فلا يستجاب له ، فيظن أن النصوص — وحاشا لله ولرسوله — غير صادقة ! دون أن يتجه ذهنه إلى آفاق أخرى تغمر قلبه بالاطمئنان . وإذا كنا لا ننتظر من هذا الكاتب أن ينحو بالموضوع وجهة عقلية لا تشرئب إليها ثقافته المحدودة ، فقد كنا ننتظر منه — وذلك أضعف الإيمان — أن يشفع هذه النصوص الكريمة بمثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له !) . وقوله عليه الصلاة والسلام : (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) . كما كان عليه أن يعرف أن الأنبياء قوم مثاليون وقد منحهم الله من المعجزات الخارقة

مالا يتهيأ لسواهم من المنغمسين فى الرذائل والشهوات : فالاستشهاد بأيوب وذى النون وزكريا عليهم السلام، لا يدل على أن الدعاء يستجاب لكل رافع يديه ومطعمه حرام وملبسه حرام .. وكان على الكاتب أن يلتفت إلى أن الأمر المطلق فى مثل قول الله : « ادعونى أستجب لكم » مقيد بالتزام الفضيلة وارتياد سبيل المؤمنين ، أما أن ينقل النصوص دون توجيه ، فذلك ما نراه مظنة الخطر والعثور .

هذا مثال لضرب من الكتابة الدينية لايؤدى وظيفته فى التوجيه الصائب، والإقناع السديد ، ولنا أن نتركه الآن إلى مثال آخر ، يقف منه موقف النقيض من النقيض ، وقد كتبه المغفور له الأستاذ الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى بحثه الذائع عن الإسلام والطب الحديث . وإن توفيق الدكتور النطاسى فى كثير مما عالج من البحوث الدينية ليعطى الدليل على أن الثقافة العلمية ضرورية لمن يتسنمون منابر الإرشاد واعظين داعين وأكثرهم بحمد الله قد اتجه هذه الوجهة النافعة ، فألموا ببعض مسائل علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما مما يبعث الأضواء الكاشفة على مدلهمات الطريق ! لقد عالج الدكتور عبد العزيز إسماعيل رحمه الله موضوع الدعاء المستجاب علاجاً يقنع كل قارئ مثقف اعتنق الإسلام أم خالفه . وعلينا الآن أن نشير إلى أهم ما تطرق إليه من نظر كاشف ، لنعطى صورة جيدة للفكر الدقيق .

بدأ الدكتور حديثه بأن الدعاء من سنن الطبيعة ، قاصداً بذلك إلى أن التجاء الضعيف إلى نصرة القوى مما ركز فى الطبائع ، فإذا اتجه الإنسان إلى خالقه فهو يصدر عن طبيعة صادقة لاتنحرف ، ومتى كان الدعاء من سنن الطبيعة فإنه يختلف مع غيره من السنن المادية ، إذ يتعلق بالخالق وحده ، فيمثل جانباً من الغيب الذى لاتقدر السنن المادية على اكتناهه ، بل لايمكننا معرفة شىء منه إلا بالقدر الذى يخبرنا به الله فى كتابه .

وقد أكد الدكتور هذا القول ليبنى عليه قوله الآتى : (إذا كان الدعاء سنة طبيعية فإنه قد يكون ضد سنة طبيعية أخرى موجودة فعلا ولا تبديل فيها ؛ فالشخص الذى يدعو ربه ليشفى ابنه مع أنه فارق الحياة — والطبيب يعرف ذلك ولكن الوالد يجهل — لايقال إن دعاءه لم يستجب ؛ لأنه يدعو ضد سنة إلهية تحتم الموت على كل كائن . والإنسان بطبيعته لو عرف أن ابنه مات فعلا لايستمر فى الدعاء . وكذلك من يدعو الله فى شىء تكون نتيجته معروفة محتمة من سنة طبيعية أخرى ؛ ولكن الداعى يجهلها

ولو علمها لما دعا ربه ، فالتاجر الذى يدعو ربه لرواج عمله لاينتظر قبول دعوته مع استعماله الربا ، والأمة التى لاتغير مابها من المنكرات لا تنتظر إجابة الدعوة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وتطبيقاً لهذه السنة الطبيعية التى لاتختلف ذكر الدكتور قول الله عز وجل فى مخاطبته نبيه : « استغفر لهم أو لاتستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فان يغفر الله لهم » ليعلق عليه بقوله : (إن العذاب حق على هؤلاء الذين يستغفر لهم رسول الله ، ولو كان الدعاء ينفع فى استبعاد السنن الطبيعية أو تبديلها لنفع دعاء أفضل المخلوقات وأكرمها فى ذلك . والسبب فى هذا أن الدعاء سنة طبيعية كالسنن الأخرى لاتبدل غيرها ولكنها تكملها ، والرجل الذى يضع ابنه فى فوهة المدفع ، ويدعو له بطول العمر ، لاينفع دعاؤه ، لأن السنة الطبيعية لاتلغى إلا بمعجزة على يد نبى .

هذه ناحية منطقية أيدها الدكتور بالملموس المشاهد ثم أتبعها بناحية أخرى تفوقها تسديداً وإصابة ، حيث ذكر تفسيراً معقولا لعدم استجابة أكثر ما يدعو به الناس ، وهو أننا نقيس دعاءنا لله بدعائنا للإنسان ، فالشخص الذى يطلب شيئاً من شخص آخر يطلب هذا الشيء ويقول إن هذا لمصلحتى وأنا أدرى بها ، وإن لم تفعل ذلك فكأنك لم تجب دعائى وطلبى ، ولكن دعاء الشخص لربه يختلف اختلافاً كلياً ، فإن طلب شيئاً معيناً ، مثل شفاء ولده أو رواج بضاعته ، فإنه يطلبه وهو يجهل المستقبل ولا يعلم إن كان هذا الطلب فى مصلحته ومصلحة ولده أم لا . وقد يكون المال سبباً فى ارتكابه ما يؤدى إلى عذابه ، وقد يكون موت ابنه خيراً له لاحتمال عدم توفيقه فى قابل أيامه ، فإذا أجاب الله دعاء الداعى فقد لاتكون الإجابة كما يريد الإنسان وينتظر ، ولكن كما يعلم الخالق أنه خير للداعى ، والغرض ليس النتيجة الوقتية المطلوبة ، بل هو رضاء الخالق الذى لايرضى إلا عن كل حميد محمود .

وتعليقاً على ذلك ، أذكر أنى قرأت لأستاذنا المغفور له الشيخ يوسف الدجوى(١) بحثاً عن استجابة الدعاء قال فيه : (إن الأمور كلها موكولة لمشيئةالله تعالى ، وهو أعلم بمصالح خلقه ، فلا يحابى أحداً فى مصلحة تقتضيها الضرورة والنظام ، ولو فرضنا أن حكومة من الحكومات سارت مع أهواء الناس فأعطت كل فرد ما يطلب دون مراعاة

---

(١) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس ، ص ٤٦١

للحكمة المعقولة لاختل أمرها ، وانتقض بناؤها ، وفشت ضروب الفوضى فيها ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » وهو بعض ما عناه الدكتور حين قال : إن دعاء الشخص لربه يختلف اختلافاً كلياً عن دعائه للناس !

ثم تطرق الدكتور لناحية ملحوظة فى الأدعية البشرية ، فوضح أن أكثرها يمزج بعواطف الطمع والأنانية والرغبة فى الارتفاع والاستعلاء ، على مافى ذلك من ضرر للآخرين ، وإجابة هذه الرغبات الطامعة المستعلية تصدم سنة طبيعية إلهية تحدث عنها القرآن حين قال : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين » ، على أن الشخص الذى يخلص قلبه لله فى دعائه لايتم إخلاصه إلا بالترفع عن مطالب الأنانية المريضة ، إذ يصل به التدين الصادق إلى هدوء نفسى وسعادة روحية تجعل إجابة الدعاء ورفضها فى منزلة واحدة من نفس المؤمن الورع الأواب ، الذى يكتفى بالدعوات الهادفة التى يفصح عنها مثل قول الله عز وجل : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » !

وقد أصاب الكاتب الكبير شاكلة الصواب حين ضرب المثل ببذرة القمح فقال فى إقناع ملزم : (وإذا قلنا إن بذرة القمح تنتج قمحاً فمعنى ذلك أنها سنة طبيعية أساسية لإنتاج القمح ، ولكن هناك سنناً كثيرة أخرى يجب استيفاؤها قبل نجاح الزرع ، وهذه كلها مكملة للسنة الأولى الأساسية ، وهى أن البذرة ضرورية ، فإن نقض بعض هذه الشروط فإن الزرع لاينجح ، وهكذا الحال فى السنن غير المادية) .

ومعنى هذا الكلام أن الدعاء كالبذرة ، وإذا كانت البذرة لاتؤتى أكلها النافع إلا مع الأرض الجيدة والرى الدائم والتعهد المستمر والشمس الساخنة والهواء النقى ، فإن الدعاء لايتحقق إلا إذا صادف النية الطيبة والطهارة النفسية والوجهة الصالحة للعامة ، والنفع الشامل مع عدم اصطدامه بنواميس الطبيعة وقوانين الحياة ! بهذا المنطق الواضح عالج الدكتور بحثه الدقيق فأمتع وأقنع وخاطب العقل والفؤاد .

* * *

قد يقول قائل : إن التزام هذه الطريقة المنطقية فى بحوث المجلات الدينية مما يحول دون شمول فائدتها العلمية للخاصة والعامة على السواء ، إذ لا يزال لدينا الكثيرون

ممن يؤثرون الوضوح الهين فى الأسلوب ، فلا يكلفون أنفسهم رهق التفكير ومعاناة النظر ! ونحن مع هؤلاء إذا أرادوا بذلك تبسيط القول وشرحه على نحو مريح ميسر مع احتوائه على ما يقنع العقل ويضىء شعاب الفكر فيقدم من المادة العلمية ما يقنع كل قارئ ارتفع مستواه أو تواضع ، أما أن نكتفى بالنصوص دون تحليل وبالأساطير دون تزييف ، ونجعل من الكتابة الهادفة صرخات منبرية تتردد فى هوج الرياح دون أن تلتزم جانب الإقناع ، فذلك ما يشغل فراغاً كان الأولى ملؤه بالجيد المفيد .

وليت شعرى هل كان الكاتب الأول يجهل أن استجابة الدعاء للأنبياء مما يندرج تحت المعجزات حتى يأتى بالنصوص دون تحديد ؟ أو كان لا يعلم أن الأمر فى مثل قوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم » مقيد بما اشترطه العلماء فى الدعاء من حدود ؟ إن كان يجهل ذلك فلماذا كتب فى موضوعه دون استعداد ، وإن كان يعلم ولا يجهل فلماذا فتح باب الحيرة أمام بعض العقول ، فخيل للناس أن كل دعاء يستجاب وتلا نصوصاً تؤكد ذلك من واقع السنة والكتاب ، وماذا يصنع مع من صدقه فدعا ربه دون أن يستجاب له ؟ إنه يعرض إيمانه الساذج لظلمات الشبه وغيوم الشكوك ؟ ثم علام التمسك بأساطير القصص فى التأثير والإقناع !

لقد خاصم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه نفراً من القصاصين حين وجدهم يغشون المسجد الجامع ليرووا ما يشبه الإسرائيليات ! وكان ذلك فى الصدر الأول من الإسلام ، أفنظل بعد أربعة عشر قرناً من الزمان نلوك هذه الأساطير دون استحياء ! ثم لانكتفى بإذاعتها فى مجالس الوعظ الشفهى ، بل نكتبها فى الصحف الذائعة لتنتقل إلى آلاف القراء دون عناء ! ذلك غير سبيل المستنيرين !

تغلب على الاخفاق

تروى بعض الطوائف أن غادة جميلة تنافس حولها لفيف من الشباب ، ردحاً كبيراً من الزمان ، كل يقدم ولاءه وإخلاصه وقلبه ، فلم تلتفت إلى أحد ، حتى اضطرت بمرور الزمن أن تتخير بين اثنين وقعا منها موقعاً متفقاً بحيث لم تستشعر نحو أحدهما رغبة تفوق الآخر ، وأرادت أن تحسم النزاع ، فقالت فى صراحة : إنها لا تفضل أحداً منهما على أخيه ، ولكنها ستهب نفسها لمن يفوز فى صراع قوى ينشب بينهما ويقرر غلبة أحدهما ، فالتحم الشابان فى صراع حاد نزولا على رغبتها ، وانتصر أحدهما لامحالة ! ثم نهض إليها مفتوح الذراعين يحدق بعينيه ليرى ابتسامة القبول والحظوة ، ولكنه بغت حين شاهد حسناءه تشيح عنه وتنكب على العاشق الصريع تضمد جراحه وتعلن أنه الفائز بفؤادها !

دهش النظارة وتساءلوا عن سر هذا الاختيار العجيب ، فأجابت فى حماسة إنها لا تستطيع إلا أن تحترم هذا الذى جرح جسمه وسال دمه من أجلها ، أما المنتصر فيكفيه من الفرحة نشوة الانتصار وتصفيق الأكف !

تروى هذه الطرفة كمثل نادر فى تقدير المخفق واحترام جهده ! ولكن أى مخفق نقدر ونحترم ؟ إنه قطعاً ليس الخامل الكسول الذى يضيع على نفسه الفرصة السانحة ويتثاءب دون نشاط إذا حان موعد العمل الكادح ، فذلك لايستحق سوى الازدراء ! أما المخفق الذى يبذل جهده الجاهد ويستعد للأمر استعداد اليقظ الحريص ثم يفوته النجاح لعامل فوق قدرته فإنه ممن يستحقون التقدير ، وهذا ما عنته الحسناء حين آثرت عاشقها الجريح .

والإخفاق سلاح نفسى باتر ، لأنه يعصف بالإرادة عصفاً ، ويهدم دون هوادة ما يتجمع من عزم فى كيان المخفق ، حتى ليعرقل سيره إذا سار ، بل إنه يرى صاحبه مالا يرى سواه فى وجوه الناس ويسمعه مالا يسمع ، فكل نظرة إليه تؤول إلى تهكم

واستهزاء من البعيد ، وإلى عطف ورثاء من القريب ، وكل همس بين أذنين حديث عن كبوته وتندر بعثرته ! ومن ثم ترى المخفق لاينى متطلعاً فى وجل هالع إلى ملامح الوجوه ، متسمعاً إلى همسات الأفواه ، مما ينطق بمحنته الداخلية فى إفصاح مبين ، إذ لو وقف إنسان ما ، على قارعة الطريق ، يتصفح وجوه المارة من الرائحين والغادين ، لأمكنه بسهولة أن يميز الإنسان الناجح فى عمله ، المعتز بمجهوده ، من العاجز المخفق الذى تؤوده العقبات وتقف الموانع دون ما يبتغيه ، فهو يرى الإنسان الأول طلق الوجه ، قوى الحركة ، هادئ النظر ، على حين يرى الثانى ممتقع الوجه عابسه ، ساهم النظرة حائرها ، شارد التفكير فى ذهول ، وكما يمر بك المريض الشاحب فترتاح لشحوبه وتأسى لعلته ، فكذلك يمر بك العاجز المخفق فتأسى لمنظره المكتئب وانقباضه الموحش ، وعزمه المتضعضع .

ولسنا نعدد وجوه الشبه بين المريض فى جسمه ، والمخفق فى عمله ، فكلاهما يكابد من الأشجان ما يؤرق عينه ، ويقض مضجعه ، ولكننا نجد مريض الجسم فى كثير من أحواله مبعث الرحمة ومثار العطف من مخالطيه ، فهو يتبسط لهم فى شرح آلامه الجسمية ، وعلله العضوية ، فيجد الأذن السامعة ، والقلب الرحيم ، واللسان الناصح . أما العاجز المخفق فى عمله فيعترض الهم طريقه ويرين اليأس على خاطره ، فيبيت ليله ساهراً ويظل نهاره مكدوداً ملتاعاً ، ثم لا يستطيع فى أكثر أموره أن يكشف للناس مناحى فشله ومواضع إخفاقه . وإذا اضطر إلى ذلك اضطراراً لجأ إلى تشويه الحقائق ليبرئ نفسه من سمات الضعف ، وبواعث العجز والإخفاق ، إذ أنه من الصعب البالغ على الإنسان أن يعترف بعجز لحقه فيما يسهل أداؤه بالقياس إلى زملائه . فإذا سئل عما أصابه من إخفاق حاول أن يحيل على غيره إذا وجد من الأسباب المتوهمة ما يجيز ذلك فى بعض الأذهان ، ثم يجهد نفسه فى اختلاق وسائل التبرير وحجج الدفاع ، وهو يعترف فى أطواء نفسه بحقيقة قصوره وتقصيره ، ومكمن فشله وقنوطه ، ولكنه لايستطيع أن ينفس عن صدره كما ينفس المريض ذو العلة الجسمية بذكر الحقيقة الكارثة بقلة حيلته وخيبة مسعاه ، فليترك المرجل يغلى مضطرماً فى صدره ، محتدماً فى أحشائه ، دون أن يجد وسيلة لتهدئته وتسكينه . وقد يتجسم إخفاقه أمام عينيه إذا تكرر ثانية وثالثة ورابعة كما يحدث أحياناً ، فيفقد الثقة فى نفسه ، ويزعزع بواعث

الاطمئنان من قلبه ، فيصبح المخفق هيابة نكساً يحجم عن المشاركة فى كل عمل مثمر كيلا يطارده الإخفاق — كشأنه الأمس — فيصير مضغة الأفواه من جديد .

وفى الناس من يتلذذون كثيراً بالحديث عن المخفقين ، فيظلون مادة سخريتهم ولهوهم لايبرحون حديثهم الراوى ، وكأنهم بذلك يريدون أن يقولوا إننا لسنا من طرازهم ، وبذلك يستشعرون بعض التيه النفسى الكاذب ، إذ سلموا من أخطاء المنكوبين ، بل إن فى الناس من يجسمون أخطاء معارفهم تجسيماً مذهلا ينقبض له المنصفون ؛ فهم إذا عثروا على ذلة هينة أخذوا يجوفونها تجويفاً ويضخمونها تضخيماً ، ليثبتوا للملإهم أنهم بمنأى عن الزلل والسقوط . ومثل هؤلاء لايرحمون المخفق إذا وجدوه بين ظهرانيهم ، فحديث إخفاقه أنشودة عذبة تطرب الأسماع .

ولاحيلة لنا فى هذا الطراز من الناس ، فإن تقدم الإنسانية فى ركبها المدنى يسمح ببقائه دائماً دون استئصال ! هؤلاء الطغام من الأوشاب يزيدون تبريح المخفق بلاء فوق بلاء ، فهو يحذر ألسنتهم القارصة ويتخيل فى نفسه أحاديثهم الزارية ، فإذا دفعته الظروف القاسية إلى عمل جديد تخطفته الحيرة ، وتقاذفته الدهشة ، مقدراً عاقبة الخذلان أمام هؤلاء الأوغاد ، ومن ثم لايفرغ لروية متأنية ، أو يركن لتدبير سديد ، ومهما جد المتردد الهيابة فى أمر فلن يبلغ فى إنجاحه مبلغ الحازم المصمم ، الواثق من خطواته ، الهازئ بنقد المغرضين ، وأراجيف الموتورين ! فإنه سيقطف من الثمرة أضعاف ما يقطعه المتردد الخؤور ، والويل له من هواجسه الحالكة إذا خلا إلى نفسه ، فوازن بين مسعاه الضئيل ومسعى غيره من ذوى الحزم والعزم !

وإذا كانت النفوس متفاوتة فى الذكاء ، والقدرة على الإفادة من التجارب ، ووضوح الرؤية البصيرة لمحيط العمل ومتدرجاته المتعددة وزواياه المتشعبة ، فإن النجاح والإخفاق يرجعان غالباً إلى الخطة التى ينتهجها الإنسان فى ميدانه وفق استعداده الشخصى وقدراته النفسية ، والفشل داء مزمن لم تستطع التربية المعاصرة اجتثاث جذوره ، وإن ساعدت على تضييق مجاله بعض المساعدة ! وليس التعليم المدرسى والجامعى مما يعصف ببلواه ، إذ أننا نرى بعض المخفقين نهلوا من الثقافات العالية وظفروا بالدرجات العلمية ذات الشرف حتى إذا تركوا مقاعد الدراسة وخاضوا لجة العمل غرقوا فى الخضم ! وقد تجمعهم الملابسات مع من هم دونهم فى مجال واحد ، فيخفق الجامعى وينهض من دونه !

وقد طال حديث المربين فى الشرق منذ أكثر من نصف قرن عن فساد الطريقة التعليمية التى تستهدف تحصيل العلوم والمعارف دون اهتمام بالتربية النفسية والخلقية وتهيئة المواطن السوى ، وبذلت فى هذا المضمار جهود كثيرة قام بها رواد التربية المعاصرة ممن وقفوا على أحدث النظم التربوية فى أوربا وأمريكا ! ولكن مرور نصف قرن أو يزيد على قيام الإصلاح التربوى فى مصر وبعض البلاد العربية لم يعقب أثراً ذا بال فى التوجيه والتسديد .

والطريق العملى للنجاة من الإخفاق ألا يخدع المخفق نفسه فى شىء ! فعليه أن يواجه نفسه مواجهة صريحة ليتعرف مواطن ضعفه ومهاوى سقوطه ، فيزن عمله على ضوء نتائجه ليدرك الثغرات المتسعة التى تسرب من منافذها الفشل ، ففى ذلك الإدراك التفات اليقظة الحريصة ، وتغيير من الخطة المعوجة ، واستعداد لمعالجة الداء ببلسم شاف ، كما أن فى استشارة الناصح المخلص ، وتأمل سلوك الناجحين ، ومنازعهم فى الأخذ والعطاء ، فائدة حقيقية لمن يقف عليها ، فإذا بدل المخفق خطته ، واستشار ذوى النصيحة الخالصة ، بدأ العمل فى حزم وثقة ، وعليه مع ذلك ألا يتعجل الثمرة اليانعة من بابها القريب ، فإذا أبطأت عنه لبعض الأسباب فليسبح وراءها سبحاً طويلاً مستثيراً همته المصممة ، ثم ليواصل السير إلى النهاية ، فمن يدرى فلعل النجح قريب !

وكم من الناس من ساءت حظوظهم بدءاً ثم حسنت نهاية ، فما وهنوا لإخفاق ، أو استكانوا لكارثة ، إذ ليس الفشل ضربة لازب على بعض الناس يواجهونه أنى يقصدون ! أكتب ذلك وأنا أعرف أن بعض القراء سينغضون رءوسهم ساخرين ، ثم يقولون نصائح وإرشادات يعرفها كل الناس ! ولن يأتى العلاج الحاسم بوعظ منبرى ونصح أخوى ! يقولون ذلك ثم يديرون وجوههم وكأنهم فرغوا من المشكلة ووجدوا لها العلاج الحاسم ! فإذا سألتهم وجه الرأى صاحوا كخطباء مصاقع : لنصل إلى البواعث النفسية ، لنحلل واقع المخفق ونعمد إلى ظروف بيئته وواقع عمله وأسرار تكوينه ، ثم لنفحص عقده الكامنة ، ولنقف على أحلام يقظته وهواجس نومه ! ! وأنت لا محالة تعرف سلفاً جميع ما يقولون ! ولكن هذا التشريح الشخصى ، وذلك التحليل النفسى لن يكونا فى مقالة تنشر لجميع الناس على وجه عام ، ولكنه علاج ذاتى شخصى مكانه العيادة النفسية لدى عالم متخصص ! !

ونحن ننصح هؤلاء المرضى بارتياد العيادة النفسية ذات الطبيب الحاذق ، ففيها كثير من النفع دون مراء ، ولكن وجود العيادة النفسية لا يمنع كاتباً أن يسطر ملاحظاته العامة لجمهرة القراء كما يلمسها ! ونحن لا نتحدث عن مخفق خاص ، أو فاشل معين ، فنقف بالحديث عنده وحده ، إنما نشير إلى ملاحظات هامة نلمسها لدى الكثرة من الفاشلين ، كما نشير بعلم عام يفيد فى مجموعه ، إذ يلقى بعض الضوء الكاشف ، وهو لا محالة ينفع ذوى الإخفاق المبدئى فيقفون على مكامن أدوائهم قبل أن يمتد الحريق .

وآفة الإخفاق اليأس ! فهو العاصف المدمر الذى يقيد كل خطو عن العمل ، وإذا تمكن من إنسان فقد حطم إرادته وشل تفكيره ، إذ يجسد المخاوف أمام عينيه فيتوهم لكل عمل جديد نهاية أليمة ، ولكل تجارة خسارة مرتقبة ! ومن نقاط الضعف لدى المخفق أنه يعتقد أن غيره من الناجحين لم يذوقوا كؤوس الخيبة فى خطواتهم الطويلة على درب الحياة والكفاح مرات ومرات ، ثم شحذوا العزائم وواصلوا السير فى تحد للصعاب حتى قهروا الفشل قهراً ، بل يعتقد فى أطوائه أن هؤلاء الفائزين قد وثبوا إلى النصر وثباً فى طريق فرش بالأزاهير ، وهذا ما يكذبه الواقع ، فليس النجاح فى العمل ورقة يانصيب تؤخذ بقرش فتكسب فى الحال مئات الجنيهات ، إذ أن النجاح والخيبة والكسب والخسارة والعلو والهبوط أدوار طبيعية على مسرح الحياة تتعاقب متتالية ، ولن نقطف الثمرة النهائية إلا بعد صراع تدخر له القوى ، وتحشد العزمات ، وقد تأتى الخيبة عن أسباب لا ترجع إلى تقصير الخائب وقصوره ، بل إلى مناقضاة الحياة وهبوب الريح من جهة غير متوقعة ، وهذا ما لا حيلة فيه لأشد الناس ذكاء وأقواهم عزيمة !

ومن حسن الحظ أن ذلك لا يطرد ، إذ أن رحمة الله تأبى أن يكون الإنسان محاصراً دائماً بقوى غالبة تفسد خطته ، وتأتى على بنيانه من القواعد ، ونحن نرى أن الذين تصدمهم الحياة بما لا يتوقعون ، بعد أن أحسنوا العمل وأتموا التدبير ، سرعان ما ينهضون وقد ضمدوا جراحهم وتأهبوا لجولة عاجلة تأتيهم بالنصر السريع إلا من شذ ! وقد يجنح إنسان سوى إلى عمل لا يلائمه فيتخبط فى فشله ، ويكون الإخفاق لديه نتيجة اختيار مخطئ ، ولا غرابة فى ذلك ، فبعض العقلاء يجهلون مواهبهم الأصيلة

فلا يسلكون السبيل إلى استغلالها ، بل يقومون بما يتعارض مع قدراتهم الكامنة من أعمال ، فيحاربون فى حلبة لا يقدرون على الصيال بها ، ولو عدلوا إلى ميدانهم المناسب لجلوا ظافرين ! ونحن نشاهد فى المجال الأدبى — على سبيل المثال — من يتعاطى الشعر وهو كاتب ، ومن يكتب المقالة وهو روائى ، ثم يصبر على ممارسة إنتاج لا يبرز حقيقة معدنه ! وإذا جاز ذلك فى الحقل الأدبى — وفرسانه من ذوى التفكير والدراية — فهو فى غيره من الحقول المتبوعة أكثر جوازاً ، وما الصانع الذى يترك صناعته ليفتح حانوت بقالة إلا أحد عشرات الأمثلة لما نريد !

ومن المشاهد أن الإخفاق فى بعض أحواله يكون متوهماً لا حقيقياً ، إذ يتخيل لبعض الناس أنه غير موفق فى عمله ويلتمسون من الأسباب الموهومة ما يؤكد له هذا التخيل ، ولو تأمل حقيقة واقعة ، بعيداً عن سرف الآمال وسبحات الأوهام، لأدرك أنه موفق غير متعسر ، ولأمر ما يتبدد الصفاء النفسى مع توافر أسبابه ، وينجم الكدر الروحى مع انقطاع بواعثه لدى المسرفين فى الآمال ، الواثبين بأجنحة الشطط إلى دنيا تعبق بالأريج ! وقد ينساق هذا الصنف من الحالمين إلى مقارنة زائفة يعقدها بين نصيبه ونصيب غيره ممن أسعفتهم ظروف استثنائية لا تطرد مع سائر الناس ، فبلغوا شأواً من الثراء والجاه لم يتح لجمهرة العاملين ! فإذا ارتقى زميل ما من غير طريق مألوف ، فلن يكون ذلك إخفاقاً لمن نهج المنهج الطبيعى من زملائه ! ولن يكون مظنة خيبة لدى من يقلبون كفاً على كف متحسرين !

وإذا كان الضعف الخلقى نفسه هو الذى أتاح الارتقاء من غير وجهه لدى بعض الوصوليين ، فإن الضعف الخلقى هو الذى يجعلنا نعد أنفسنا مخفقين إذا لم تتح لنا ظروف شاذة كظروف صاحبنا السعيد ! ويا لها مأساة ، أنا لا أنكر أن الموازنة بين النظراء عمل غريزى لا فكاك منه ! فكل زميل يضطر إلى قياس نفسه بغيره ممن يتساوون معه فى العمل والملابسات ! ولكنى أنكر أن تكون الموازنة على أساس النتائج دون المقدمات ! فلابد أن يقدر الموازن المنصف فى اعتباره خطوات النجاح والخيبة قبل أن يجعل النتيجة النهائية مجال الحكم والترجيح ؛ وبذلك تنخفض أقدار مرتفعة وترتفع جهود متواضعة لدى من يؤثرون الصراط القويم !

أعرف تاجراً أميناً يرعى حدود الله فى واجبه ، فلا يتعسف فى اجتلاب ربح

زائف ، وقد وفقه الله فى عمله ، فغنم الكسب المعقول ورزق الحياة المسعفة ، ولكنه مع ذلك قلق متضجر ، يلقى الحياة بنفس ضائقة وصدر منقبض ، ويعتقد فيما يصارح به خلصاءه أنه مخفق عاجز ، فإذا استوضحته رأيه ذكر زميلا له كان يشتغل برأس مال كماله ، ثم استغل بعض منافذ التموين الحكومى لحسابه فاختزن واحتكر ، ونجا بحيله الدقيقة من المسئولية القانونية ، وهو الآن يقتنى العقار ، ويشترى الأرض ، ويفتح المتاجر ! هذا الثراء الشاذ مبعث التياع صاحبنا ومكمن ضيقه المتأزم ، فليته يعلم أنه أسعد حظاً من صاحبه حين اطمأن إلى سلامة طريقه ، فنجا من عقدة التأثم ، وسلم من ثورة الضمير ، تشب كثيراً فى نفوس أعتى العصاة حين يستعرضون مخازيهم الفاضحة فى هدأة الليل ، ولكل إنسان طائره فى عنقه ، يذكره بما قد أفرط مهما تغافل فأطال .

آن لنا أن ننظر إلى الإخفاق نظرة موضوعية ، فندرس بواعثه ونتعرف أسبابه ، ثم نعمل على مواجهة الحقائق كى نقترب من العلاج الراشد ، ومن المفيد أن نطيل فى تشخيص هذا الداء البغيض متمهلين ، فلعله إخفاق متوهم لا عجز متحقق عند الكثيرين .

لا تخش الموت

يقسو الموت على الإنسان فيخطفه من بين أهله وذويه ، ويحمله إلى حفرة دامسة حالكة ، لا يسطع فيها نجم ولا يهب بها نسيم ، ووراءه أكباد تتقطع حسرة على فراقه ودموع تتساقط حزناً على غربته ، وأجسام ترتدى السواد ، فتثير كامن اللوعة ودفين الوجد .

وقد يحاول كثير من المرزوئين فى أحبائهم وأعزائهم التجلد والتماسك ، فيظهرون الرضا والاستسلام بضع ساعات ، ثم تهب عليهم الذكريات الموجعة فتطير الأمن وتمزق الصبر ، ويصبح الصابر القانع ، كالهالع الجازع ، فريسة فى أيدى الحزن ، يمزق أحشاءه ، ويريق دموعه ، حتى يمن الله عليه بالسلو مرة ثانية ، فيتماسك ويتجلد إلى حين محدود .

وكنت أسائل نفسى حين أقف موقف الملتاع بين الكارثة والكارثة ، أأنا محق فى هذه اللوعة التى أكابد غصصها ، وأعانى برحها ، أم أن السداد يخوننى فى موقفى ، فأظل كاسف البال ، شارد اللب ، ومهما تذرعت بالمنطق والحكمة ، فلن أجد الجواب الحاسم لهذا السؤال المعجز ، ومن لى به ، والموت فى حقيقة أمره باب موصد محكم تعلوه أقفال غلاظ شداد فلا يمكن لإنسان أن يعرف ما وراءه مهما أجهد الفكر وواصل التنقيب .

ولعل غموض الموت سبب أصيل للحيرة التى يعانيها الإنسان من جرائه ، فلو أدرك المرء أمره ، وما يعقبه من خطوات مستترة خافية ، لا تنتهى إلى نتيجة معينة ، ووقف عند حد لا يقبل التجاوز ، ووطد العزم على قبوله راضياً أو كارهاً ، وهنا تتبدد الحيرة وينتهى التساؤل ، ولكن ذلك لن يكون ، فالباب موصد ، تعلوه الأقفال ، ولن يزال ما وراءه خافياً عن الأفهام .

وهذه الحيرة التى تكتنف كل مفكر فى مصيره ، متأمل فى عقباه ، لن يخلو منها إنسان رزق نصيباً من المعرفة ، سواء أكان مؤمناً عميق اليقين بما لديه من نصوص ، أم شاكاً يتقلب على جمر الريب والظن ؛ فالإيمان بالله واليوم الآخر لا يحل المشكلة بحال ، لأن الذى يعتقد البعث والنشور ، يتساءل عما قبل البعث من خطوات فلا يظفر بالجواب ، وقد يجد أقوالا متفرقة هنا وهناك فلا يلمس فيها النجاة والراحة ، بل ربما ضاعفت شكوكه ، وأثارت كوامنه . ولقد كان مالك بن دينار رضى الله عنه ، راسخ اليقين ، قوى الإيمان ، ومات له أخ شقيق ، فجزع عليه جزعاً شديداً ،وقال لمن واساه : (والله لن أرتاح حتى أعلم ما هو عليه حتى أصير إليه) ، فكأنه لا راحة له طيلة الحياة !

والإنسان إذا استبدت به الحيرة ، ودفعته إلى التفكير فى أمر مبهم غامض ، لا يزال ينتقل من رأى إلى رأى ، ومن مذهب إلى مذهب ، حتى إذا اطمأن إلى معتقد راسخ عاودته الشكوك فتركه إلى سواه . وهذا سر التشعب فيما قيل عن حقيقة الموت وما يليه من خطوات . ومن المسلم به أن كثيراً من الناس قد فكروا فى مصايرهم ، وخرجوا بنتائج تقترب وتبتعد ، وتتفرق وتتجمع . ومنها ما يقف من الآخر موقف المنافق المباين ، وأنت تجد بين هؤلاء من يحذر الموت ويخشاه ، وينظر إلى يومه المحتوم خائفاً مذعوراً ، كما نجد بينهم من ينشد الموت ويطلبه ، بل ربما ركض إليه واثباً ، فأشاح عنه وتعذر عليه ، ولكل من الفريقين دليله المستمد من ظروف معيشته وواقع حياته — فى الغالب — وقد يكون من الأوفق أن نسأل من ينشدون الموت لِمَ ينشدون ؟ ولكل وجهة هو موليها ، فبأى منطق يجيب .

لقد كان للفكرة القاتمة التى يأخذها الطفل عن الموت منذ نشأته أثر بغيض يعكس على نفسه شتى الصور الرهيبة ، ويزيل من مشاعره معانى الاطمئنان والأمن ، فهو — فى سنيه الأولى — يسمع الصراخ الفاجع ، ويرى الدموع المتقاطرة من أقاربه ، وذويه ، فيسأل عن سر هذا النزع ، فتطرق سمعه لأول مرة كلمة الموت ممزوجة بالنشيج والبكاء ، فيبكى هو الآخر متأثراً بما يرى ويسمع ، ويتوالى الحمام كعادته بين الناس ، فيعيد إلى الطفل ما عرفه من البكاء والنحيب ، فيعلم أن الموت كارثة فادحة ، ومصيبة حارة ، ويتغلغل هذا الأمر فى إدراكه ووجدانه ، فيشب كارهاً

للموت قبل أن يدرك حقيقته ، وقد دأبنا أن نلقن الطفل فى مختلف أدواره التعليمية أنباء قاسية عن ملاك الموت وما تعانيه الروح لدى انفصالها النهائى من هم وتبريح ، فيتعاظمه الأمر ، ويتخيل نفسه وقد أحيط بهذه الكوارث فلا يجد مفرجاً من ضيق هذا إلى الأساطير الخيالية التى تتحول فى بعض الأذهان عقائد ثابتة ، فترسم للذهن الزبانية والمقامع النارية فى صورة رهيبة حالكة ، فلا يسعه إلا الفزع من الموت ، ذلك الغول الرهيب الذى ينقل الناس فجأة من الجنة إلى النار ، ولو أننا أعطينا الطفل صورة مقبولة عن الموت وباعدنا بينه وبين من يحتضرون ، فلا يشاهد ما يعانيه المريض فى مرحلته الأخيرة من ألم وتبريح ، لهان الأمر عليه بعض الشيء ، ونظر إلى المـــوت – فيما بعد – كأمر طبيعى تنتهى إليه الكائنات ، ولكن متى يكون ذاك !

وليست ملابسات الموت وحدها السبب فى خوف الإنسان وفزعه من القـــدر المحتوم ، بل يضاف إليها أشياء وأشياء ، فكل إنسان مهما تجنب الرذيلة ، وآثر الفضيلة لابد متعرض فى بعض مراحل حياته إلى ما يغضب ربه من الآثام ، والضمير رقيب يقظ غير نائم ، فيظل يذكر المرء بما اقترفه ، وإن كرت الأيام عليه ، فإذا تصـور الإنسان نفسه وقد حان حينه ، ودقت ساعته الآزفة ، مع أنه قد أسلف ما أسلف من ذنوب سيحاسب عليها حساباً منصفاً تأكد من العقاب العادل ، وعجز عن حمل التبعة الثقيلة ، ومن ثم فهو يبغض الباب القاتم الذى يدفعه إلى الجزاء والحساب ، وينظر إلى موعده المحتم نظرة الخائف المتفزع .

ونحن وإن كنا نطمع فى عفو الله ، ونأمل فى الصـفح والغفران ، لابد لنـا من صورة معقولة لهذا اليوم ، تصد النفس الأمارة بالسوء ، على أن نتخيل بجانبها صورة بهيجة ذات مفاتن وأضواء لمن يعتصم بالأدب والأخلاق . وهنا يكون الموت غـير مخوف إن ألم بذوى المروءة والدين ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه كما قيل .

ولن ننسى فى المقام ما يبعثه القبر المظلم الضيق فى النفوس من رهبة وإيحاش ، فكثير من الناس تتفتت أكبادهم حسرة حين يتصورون أجسامهم فى حفرة دامسـة خانقـة لا يقربهـا النور والهواء ، وكأنى بهؤلاء الجازعين وقد وهموا أن إحساسهم سيصحبهم فى هـذه الغياهب الحالكة ، فيشعرون بمـا يشعر به الحى حين يوضـع فى صندوق مقفل خانق ، ولو كان الأمر كذلك حقيقة ، لجل الصبر ، وعظم الخطب ،

ولكن أما يتناقص الجسم يوماً بعد يوم ؟ أما ترتع فيه الديدان والهوام أسوأ مرتع فى محبسه الرهيب ؟ أما يمر عليه يوم ينعدم فيه ويتلاشى وتتحول بقاياه إلى ذرات ؟ أين إذن يكون الألم والإحساس ؟ وإذا سلمنا منطقياً أن الجسم لا يألم بعد وفاته وانعدامه، فلم لا يندرج عليه هذا الحكم حين ترتع به الديدان والهوام وهو سجين حبيس ! ولم نخاف الظلمة والضيق والهامد الراقد لا يشعر بهما بحال ؛ ذلك نوع من الخيال !؟

لقد سطر كثير من الكتاب صحائف مفزعة عن القبر وما يتراكم فيه من ظلمات وأهوال ، فتركوا أسوأ الأثر فى النفوس ، ونغصوا على الناس حياتهم ومعاشهم شر تنغيص . وهل كان الحمام محتاجاً إلى ما يريدونه من الإرهاب والتخويف ، فجاءوا يضيفون إلى أهواله الحقيقية والمتوهمة أكداساً فوق أكداس !

هذه بعض الهواجس التى يرددها الخائفون الوجلون ، وقد حاولنا أن ننقذها بعض الشىء مما يغمرها من المبالغة والتهويل ، ولن نتمادى معهم فى مخاوفهم المتشعبة، فلدينا الفريق الآخر الذى يرحب بالموت ويرسل فى تمجيده الشوارد السائرة ، وأنت تجيل طرفك فيما سطره هؤلاء فتجد سيلا جارفاً من الحكم والأمثال قد سيق سوقاً فى هذا المضمار ، فمن قائل : (مقابر من ماتوا منازل راحة) — (إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرض) . ومن قائل : (ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها) — (فيا موت زر إن الحياة ذميمة) . ومن قائل : (وقفت حين تركت ألأم دار) — (خضم الحياة بعيد النجاة) .

فهل هان على هؤلاء طعم الحياة كما يقولون ، وهل يحنون إلى التراب حنيناً خالصاً بريئاً ؟ وماذا أعجبهم فى المستقبل المجهول وهو ملىء بالغرائب والشكوك ؟

وجه هذه الأسئلة إلى من يرحبون بالانتحار ؟ فلن تظفر من هؤلاء بكلمة صادقة فى حب الموت ، فهم غارقون إلى آذانهم فى مخاوفه ومآسيه ، ولكنهم يلمسون القسوة الصارمة من الحياة ، فيتعرضون إلى الفشل المخجل والخسارة الفادحة ، والناس لا يرحمونهم فى شىء ، بل يلوكون أحاديثهم ، ويمضغون مآسيهم شامتين فرحين ، ويدور الفاشل بعينه فلا يرى من يرمقه بالعطف ، أو يلتمس له العذر فى ذلة ، وقد يتضاعف وهمه فيظن أن الناس جميعاً يتندرون به فى كل مجتمع وناد ، فيضيق فى

وجهه العيش ، وتسود فى عينيه آفاق الحياة ، وينزع إلى مصرعه البغيض كارهاً مرغماً ، وهو يوطن نفسه على ما ينتظره من شدائد وأهوال .

أعرف ثرياً موسراً رتع فى بحبوحة العيش والنعمة والترف أمداً غير قصير ، ثم ضربه المرض بذات الجنب ، فكان يتقلب على سريره متأوهاً صارخاً . وقد حاول الأطباء أن يهدئوا من لوعته فما رجعوا عليه بطائل ، وفى غفلة من أهله ألقى بنفسه من شرف عال ، فلفظ بقية أنفاسه . وأعرف عشرات غيره من المعدمين البائسين بهظتهم الحياة بتكاليفها الضرورية ، وتضورت بطون أطفالهم جوعاً وحرماناً ، فهالهم أن يقعد بهم العدم عن إسعاد أولادهم ، فخفوا إلى الموت مرغمين ، وفى صدورهم مراجل من اللوعة تغلى وتحتدم حتى تنفجر انفجاراً يراه الناس انتحاراً فجائياً ، وهو فى الواقع بعيد الأمد عميق الجذور ! فيا هؤلاء لا تقولوا : إنكم تحبون الموت، ولكن قولوا : إنكم لم تجدوا مفراً من الموت فسعيتم إليه فزعين غير مختارين !

ولكن ما لنا نزيد الأمر هولا فوق هول ، فنؤكد المخاوف ، ونقلق النفوس ، وأولى بنا أن نعمد إلى شيء من التهدئة والتلطيف ! الحق أن الفناء رهيب مهول ، وأن من دافعوا عنه يلجأون إلى العقل وحده ، فيقنعونه تارة ويدفعهم تارات ، أما العاطفة فقد أوصدت منافذها دونهم أى إيصاد ، فما وصلوا إليها فى قليل أو كثير وأنت تقرأ لهؤلاء فى تمجيد الموت والترحيب به أقوالا أخذت سمت المنطق فى القياس والاستدلال ، فلا تجد شيئاً من قبولك الصريح ، وهيهات أن يكون ذاك ، واسمع ما يقوله أحد فلاسفة الإسلام على سبيل المثال :

قال ابن مسكويه – ما فحواه – : (والإنسان فى أصح تعاريفه حيوان ناطق ميت ، فبالموت يبلغ كماله ويصل إلى نضجه ، فلم يخاف إذن من الكمال ؟ وكل ينشده ويبتغيه) . فهل راقك هذا الكلام ؟ قد يتحير عقلك بين الرفض والقبول ، إن لم يرفضه بادئ ذى بدء دون نقاش ، أما العاطفة فتأباه وتتحاشاه ، والإنسان ليس عقلا فقط ، ولكنه عقل ووجدان !

لقد مات سقراط وهو يتحدث عن الخلود مرحباً . وجاء بعده مئات من الفلاسفة والحكماء فشغلوا أنفسهم بما شغل به سقراط ؛ فهل اقتنع بمنطقهم إنسان ؟ وهل رغب أحد فى الموت ليصل إلى الخلود والبقاء ؟ لقد ذهب كلام الفلاسفة أدراج الرياح ،

وجاءت الأديان فأنقذت الملايين من البشر ومالت بهم إلى عقيدة ثابتة بددت شكوكهم وأغاثتهم من الحيرة والارتياب ، حتى أن جاهلياً بدائياً تقلقه وساوسه فيسعى إلى الجمع الحاشد بعكاظ فيوجه إليه هذا السؤال : (ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ؟) . وتمضي الأيام مديدة طويلة فلا يرجع من الراحلين عائد ينبئ بما شاهد ، وأنى لغائب أن يعود ، وقد قامت دونه الصفائح ، وسجنته الأجداث !

ربا حولها أمثالها إن أتيتها ... تريناك أشجاناً وهن سجود

كفى الهجر أنا لم يضح لك أمرنا ... ولم يأتنا عما لديك يقين

اللحظات الأخيرة

يقف الإنسان أمام العالم الأخروى كما يقف تجاه قصر مغلق قد أحكم رتاجه ، فهو يحاول أن يستشف ما وراء الباب المستعينا بما يصل إلى سمعه عنه من أنباء ، وما الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلا أقوى الدلائل المشيرة إلى ما يتمثل فى عالم الغيب من أحداث ، وقد اعتاد كثير من الكتاب أن ينأوا بأقلامهم عن تحليل بعض الظواهر الغريبة التى تلقى بعض الضوء على النواحى الخافية المشتبهة المسالك فيما بعد الحياة ، إذ يعدون كل ما يقال فى تحليل ذلك رجماً بالغيب ، ودعوى لم يقم عليها الدليل ، ولست مع هؤلاء فيما يصرفون عنه الحديث فى المجالات المستترة ، إذ لكل كاتب أن يسرد ما يفيض به خاطره ، ولا عليه إذا جانب الصواب فى رأى غيره ، وحسبه إن كان صادقاً مخلصاً لما يقول .

وقبل أن ألج هذا المأزق الضيق ، أحب أن أشير إلى أن ما سأسطره من حديث غيبى لايعدم نصيراً ما من آيات الله وحديث الرسول ، ولكنى أدخر ذلك النصير إلى خاتمة المقال ، لنقف أمام الواقع المشاهد وجهاً لوجه دون أن تسيطر علينا فكرة دينية خاصة تجعل الدليل النقلى وحده صاحب الترجيح .

تواترت الأحاديث تواتراً غريباً يدعو إلى الدهشة عن ظاهرة محيرة يلحظها كثيرون ممن يشاهدون بعض الموتى فى اللحظات الأخيرة ، ساعة الاحتضار ، إذ يسمعون هؤلاء المحتضرين يذكرون أسماء لبعض الموتى السابقين ، وكأنهم يرحبون بهم ويتساءلون عن أبنائهم ، وكثيراً ما يكون هؤلاء المذكورون من أقارب المحتضر أو أصدقائه من الراحلين ، وقد تكرر ذلك تكراراً جعل العامة يعتقدون أن المريض إذا فاه بذلك ، فقد دنت ساعته الأخيرة ولن يرجى شفاؤه ، إذ دخل فى مرحلة ما بعد الحياة ، وما هؤلاء الذين يهتف بأسمائهم إلا أحبة أعزة هرعوا إلى استقباله وهو على عتبات العالم الآخر بعد أن عرفوا ساعة انتقاله !

تلك ظاهرة ملموسة مشاهدة ، رآها المسلمون فى الشرق ولمسها الأوربيون فى الغرب ؛ وقد ظهر عنها فى سنة ١٩٢٥ كتاب هام بقلم (وليم باريت) أحد كبار الباحثين الروحيين من الإنجليز ، وعضو الجمعية الملكية البريطانية ، كما زامله فى الحديث عن هذه الظاهرة الغريبة العلامة الإيطالى (أرنست بوزانو) فى كتاب خاص أسماه (الظواهر الروحية فى ساعة الاحتضار) ومن المؤكد أن غير هذين العالمين الكبيرين قد تناول هذا الأمر بالتحليل فى شتى لغات العالم ممن لم أقف على مؤلفاتهم بعد ، وكل ذلك يدعونا إلى أن نفكر كثيراً فيما نرى ونسمع !

غير أن من الخطأ أن يعتقد بعض كتابنا فى الشرق أن أمثال هذه الخوارق المحيرة لاتقع تحت مجهر البحث ، إذ لا يزالون يعدون عالم الغيب مما لا يقبل النقاش فى شتى صوره مهما لاحت ظواهره وتتألف مرائيه ، وربما جرؤ كاتب جاد كالأستاذ محمد فريد وجدى أو الشيخ طنطاوى جوهرى على الوقوف أمام هذه الغرائب موقف التحليل المعلل ، فرمى بالغفلة والسذاجة ! وعد حديثه لغطاً أسطورياً يجذب العامة ويضحك الخاصة ! مع أنه يتحدث عن أشياء ترى وتحس ، وتأتى أنباؤها متواترة لا تقبل التشكيك ، فهى والحالة إذن مما يدخل فى نطاق العلم وإن انتسب إلى عالم الروح :

لقد اعتمد الأستاذ (وليم باريت) فى كتابه على الدليل الاستقرائى ، فكان يتصل بأكثر عدد يتاح له ممن يحضرون اللحظات الأخيرة للمحتضرين ثم يدون كل ما يقولونه ، غثاً كان أو ثميناً محدداً الزمان والمكان ، واصفاً مسرح كل حالة بأضوائه وأشخاصه ومحتوياته ، ومنهياً إلى تسجيل الملاحظات الشخصية مع المقارنة بين الأقوال المتشابهة والوقائع المتقاربة ، ولم يكتب بذلك بل لجأ إلى كبار الأطباء العالميين فى مستشفيات لندن طالباً تمكينه من رؤية من يحتضرون ، وقد يسر له ذلك أن يقتطف الأقوال من أصحابها ، وأن يجد لتجاريبه نطاقاً أصدق وأوسع .

والتعليل العلمى الذى يتذرع به الباحثون إزاء هذه الظاهرة المحيرة يدور حول اختلال قوى المريض فى ساعاته الأخيرة ، وتوالى الذكريات القديمة على خاطره منثالة من عقله الباطن عن الموتى السابقين ، يحلم بها وكأنها أشياء محسوسة ؛ وقد يقرب ذلك التعليل لدى من يدعونه أن المحتضر يعلم وشك نهايته ، وبعض تفكيره لا محالة

يدور حول من يعرف من الراحلين ، فإذا هتف ببعض أسمائهم ، فاختلال قواه العقلية مما يجعله لايميز بين حاضر وغائب ، إذ أن عقله الواعى فى احتضاره قد ارتج ارتجاجاً لايوحى بالدقة والتركيز ، ولذلك أخذ يهذى بالأسماء الراحلة ، يتحدث عن أصحابها كأنهم شهد حضور .

هذا التعليل العلمى المقبول بادئ ذى بدء قد اصطدم بحالات خطيرة لاتجد فيه تفسيرها المعقول ، فقد أثبت الأستاذ (وليم باريت) كما أثبت الأستاذ (بوزانو) ظواهر غريبة لايمكن أن تخضع إلى العقل الباطن ، كأن يهتف المحتضر باسم شخص ميت ويتعجب لوجوده بين الأموات ، إذكان لا يعلم شيئاً عن موته ، ومن أمثلة ذلك : أن أماً كانت مريضة بالمستشفى وطال مرضها حتى جاوز العام ، وفى أثناء هذه المدة مات أحد إخوتها فى حادث فجائى ، فلم يشأ ذووها أن يخبروها بذلك كيلا يتضاعف مرضها بتأثير حالتها النفسية الحزينة ، ثم حانت ساعة احتضارها ، فكان من العجيب أن تنطق باسم أخيها الراحل وتسأل فى دهشة : أأنت هنا ؟ متى رحلت ؟

وقد تكررت هذه الحالة لدى نفر غير قليل من المحتضرين ! بل إن أحدهم أخذ يوجه الكلام ساعة النزع إلى أقاربه محتجاً : (لماذا لم تخبرونى بأن فلاناً قد مات ، ها هو ذا قد جاء ليرافقنى) ! وذلك يدل على أن المحتضر يفرق بين طائفتين من الناس يجتمعون حوله ، طائفة يعرف أنها من عالم الشهادة ، وطائفة يعرف أنها من عالم الغيب !

لوكانت هذه المحتضرة التى تحدثت عن أخيها دون أن تعلم وفاته ، تمثل حادثة فردية ، لأمكن حملها على المصادفة ، إذ أن كلمة المصادفة ، وهذه تسد لدى بعض الباحثين كثيراً من الثغرات ، فهى حبل الغريق الذى يحاول أن يتعلق به من داهمه الموج من كل مكان ! وقد تكون المصادفة طريقاً منطقياً للتخلص السهل ، ولكن الذين يلحون فى استعمالها فيما يتكرر من الحوادث يفوتهم أنها تعجز عن الجواب الحاسم فى الظواهر المتعددة ، وطبعى أن ترفض رفضاً حاسماً عند الأستاذ (وليم باريت) وأضرابه ممن وقفوا على عشرات الحالات !

أما العلامة الإيطالى (أرنست بوزانو) فقد بدأ كتابه عن الظواهر الروحية فى ساعة الاحتضار بمقدمة هامة أكد فيها شيوع هذه الظاهرة إلى حد أن التجربة العامية قد

استخرجت منها قاعدة عامة من قواعدها الكثيرة ، وهى أن كل فرد من أفراد الشعب يؤكد لك أن المريض إذا تكلم مع موتاه فلن يبقى أمل مافى شقائه ، ثم لجأ إلى التعليل فقال[١] :

(إذا كان سبب هذه الظواهر هو تحول فكر المحتضر بشدة إلى الأشخاص العزيزين عليه ، فقد كان الأولى به بدل أن يتحول نحو الموتى حتى الذين كان قد نسيهم أن يتجه إلى رؤية أشباح الأحياء الذين هو مرتبط بهم بأشد روابط المحبة ، وهذا لم يحدث قط !) .

ثم أفاض الكاتب فى ذكر مشاهدات شخصية وأخرى منقولة عن كبار الأطباء ، لاتختلف فى نتائجها ومضمونها مع ما ذكره (وليم باريت) ، إلا أنه احتاط فى مقدمته فقال : (ويجب الاعتراف بأن لهذه الاعتبارات قيمة استدلالية عالية فى مصلحة التعليل الروحانى لهذه الحوادث ، ولو أن التدليل التجريبى على صحة هذا التعليل شاق جداً بسبب طبيعة هذه الحوادث نفسها) اه .

وسنختار حادثة مما سجله (بوزانو) ، لأنها تضيف بعض الجديد لما ذكره (وليم باريت) ، فقد نقل عن جريدة (اللانسيت) الإنجليزية بتوقيع الدكتور (جروت) مانصه :

(كان أحد مرضاى — وهو مفتش سابق من مفتشى المالية — يحتضر متأثراً بسدة فى الكبد ، وكان أخى من أخلص أصدقائه ، وقد لزم سريره حتى مات ومعه صديق آخر من موظفى المالية ، فما كان أشد دهشته حين رجاه المحتضر أن يوجه إليه أسئلة يختبر بها قواه العقلية ، فانقاد لمطلبه ووجه إليه أسئلة متنوعة ، فأجاب المحتضر عنها بدقة ، وسأله عن صحة إجابته ، فرد عليه بالإيجاب ، فأسرع المحتضر يقول : إن السبب فى طلبى إليك أن توجه إلى أسئلة هو أن أقنعك بأنى أملك قواى العقلية وبأنى لست فى حالة هذيان ، وإذا تقرر لديك هذا فأنا أصرح لك بأنى أرى فى هذه الحجرة إلى جانب زوجتى وجانبك أشباحاً روحانية لاأعرف أصحابها ، وكأنهم حضروا إلىّ يستهدفون مقصداً أجهله ولا أعلمه ، وأريد أن تعرف بأن العالم الروحانى ليس مجرد افتراض ، ولكنه حقيقة ... ثم لم يلبث أن أسلم الروح) .

---

(١) الترجمة هنا بتصرف يسير عن العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى . مجلة المقتطف يونيو سنة ١٩٣٣

والجديد فى هذه الحادثة أن الأشباح الزائرة مجهولة لدى المحتضر وليست ممن يعلم ، وأن الرجل فى لحظاته الأخيرة أراد أن يثبت لسامعه أنه يملك قواه العقلية ، فيجيب على الأسئلة بانتباه ويقظة ، فلا يجوز أن يظن به الهذيان ، وفى ذلك رد على من يذهبون إلى أن القوى العقلية تنحط — دائماً — بانحطاط القوى الجسمية ، وذلك ما لا يجزم الآن باطراده ، والعامة لدينا يعرفون تماماً (ما يسمى عندهم بصحوة الموت) : وهى لحظات يفيق فيها المريض من غيبوبته فيوصى ويتكلم فى هدوء واتزان ، ثم يستسلم إلى نهايته ، فلو كان انحطاط القوى العقلية يطرد دائماً مع الضعف الجسمى ما كانت هذه الصحوة ! ومهما قيل عنها فهى ظاهرة أخرى تتطلب التعليل ، وقد تعدى الأستاذ (بوزانو) نطاق هذه الخارقة إلى خوارق أخرى يرى فى بعضها الأحياء الملازمون أطياف الموتى رأى العين ، كما يراهم المحتضر ! وذلك ما لا يندرج فى موضوعنا الآن ، ومالانحب أن نفيض فيه قبل أن تشبعه البراهين ، ولكننا نلتفت بذلك كله إلى شيء له خطره العلمى ، وهو أن الظواهر الملموسة تصلح أن تكون دليلا عقلياً يساند الأدلة السمعية من النصوص والآثار .

ولنضرب المثل لذلك بمارواه عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . قالت عائشة — أو قال غيرها — : وإنا يارسول الله لنكره الموت ، فقال صلى الله عليه وسلم : ليس ذاك ، ولكن المؤمن إذا حضر الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر الموت بشر بعذاب الله ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه) وهو حديث رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى .

ولا يمنع لدىّ أن يكون من وسائل البشارة لدى المسلمين نشاط أصدقائهم إلى لقائهم فى الساعات الأخيرة ، وإذا كنا نقرأ قول الله عز وجل : « فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » فإننا نفهم منه صراحة ما يلقاه الكافر فى احتضاره من عذاب أخروى يعاجله فى اللحظات الأخيرة من الحياة ، فهو حينئذ يتصل بالعالم الآخر . ولست أريد — معاذ الله — أن أفسر النصوص الدينية الكريمة على معان لا تعطيها ؛ إنما أريد أن أقول لمن ينكرون عالم الروح من الماديين : إن الطريق أمامكم لا يستبين .

رد على كتاب :

الخمرة ذات خطر محقق

كنا نظن أن حديث الخمرة قد بلغ منتهاه ، فلم تعد هناك حاجة إلى إيضاح مفاسدها ، بعد أن شاعت أخطارها الماحقة ، فى تحطيم الفرد جسمياً ، وانهيار المجتمع أخلاقياً ، ولكن الذين يحبذون الخمرة لم ييأسوا من الدعاية لها فى منطق تأثيرى لايواجه القارئ مواجهة سافرة ، حيث يكون الحديث خالصاً للخمرة ، بل يأتى فى طيات أحاديث أخرى ، وهذا منحى خطر من مناحى التأثير النفسى ، إذ يوهم القارئ أن الكاتب لايدعو إلى شىء كريه ، وإنما يذكر تجاريب صحيحة ، قد آمن بنتائجها ، فهو يذيعها ليستفيد منها الناس ، ومن هذه التجاريب المزعومة نجاح الخمرة فى تهدئة الأعصاب ، ووقف تصلب الشرايين ، وانتفاع المسنين من المعمرين بأثرها الطبى الحميد ! هكذا يزعمون :

وقد انتشر بين القراء كتاب (حياتنا بعد الخمسين) للأستاذ سلامه موسى وتعددت طبعاته ، وللكاتب شهرة تجعل مؤلفاته كثيرة التداول ، وقد تحدث عن أثر الخمرة فى صلاح النفس والجسم معاً فى مواضع كثيرة من الكتاب لم يكتف بموضع أو موضعين ، بل جعل يبدئ ويعيد فى تسجيل ما يزعمه من منافع الخمرة ، وهذا التكرار الممل مما يسقط الأسلوب الكتابى لدى الناقد الأدبى ، ويخيل إلىّ أن المؤلف لايهمه أن يوصم بالتكرار المخل فى الأسلوب ، ولكن يهمه أن يدعو إلى تحبيذ شراب منكر حرمه الإسلام فهو لا يفتأ يتحدث عن أهمية الخمر ملحقاً مكرراً ، ومعى الطبعة الأخيرة من كتابه ، وقد صدرت عن دار المعارف فى سلسلة اقرأ رقم (٣٧٢) ، وقد تكرر بها الحديث عن جدوى الخمر فى صفحات ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ وغيرها من الصفحات ، حتى لكأن هناك إصراراً من الكاتب على أن تكون الخمرة علاجاً شافياً من الأوصاب ، ولو أنه اقتصر على فصل واحد يعدد فيه ما توهمه من

المحاسن ، لاستطاع القارئ الحصيف أن يلمح وجوه الخطل فيما يقرر ، ولكنه يكتب بأسلوب إعلامى ، ولو سرت مع الدقة لقلت بأسلوب تهريجى يعتمد على الإثارة الانفعالية لا على الإقناع السديد .

وإلى القارئ نماذج مما قال :

جاء فى ص (٨٠) : بقيت كلمة هنا أقولها عن الخمور ، وهى أنها ضرورية لكل من جاوز الستين ، لأنها توسع الشرايين فى الشيخوخة ، وجميع الأوربيين يشربونها وهم أطول أعماراً وأحسن صحة منا ، ثم هى تفكك العقد التى تحدثها مشكلات الحياة لنا ، كما أنها تجعلنا نستغرق فى نوم عميق طول الليل ، نستيقظ فى صباحه ونحن منتعشون بعد الراحة .

وجاء فى ص (٦٧) تكرير هذا المعنى بأفكاره دون ألفاظه ، وكان فى أحد القولين ما يغنى ، إذ لاجديد ، والتكرار معيب فى الحديث العادى فكيف فى كتاب علمى ؟

وجاء فى ص (٦٣) : إن المدمنين أنفسهم لاتنقص أعمارهم عن الممتنعين . وعلى القارئ أن يتذكر معارفه وأصدقاءه ممن كانوا يشربون الخمر لكى يقف بنفسه على الحقائق .. إلى مثل هذا اللغو .

وفى ص (٢٥) : إن الشاعر خليل مطران ، نحيف ضامر ، يتأنق كل التأنق فى طعامه ، ولكنه يأكل كأنه عصفور ، وقد قال لى ذات مرة إن جملة ما يأكله فى العام كله لايزيد على رغيفين ، وهو أقل من رأيت من الناس طعاماً ، وعشاؤه كأس من الخمر مع ما ينتقل به معها من لقيمات لذيذة .

وليس المجال مجال تتبع لكل ما قال الأستاذ سلامة موسى ، ولكننا نذكر الخلاصة التى تكررت معانيها دون جديد ، لنجهز عليها بالدليل .

ولن نذكر فى مجال التفنيد ما قاله رجال الإسلام من ذوى الاختصاص ، لأن هؤلاء المكابرين يعدون أقوالهم دفاعاً عن عقيدة يضطرون للإيمان بها ، وتأييداً لكتاب يدينون بأنه جاء من عند الله ، ولو كانت لديهم ذرة من إنصاف لنظروا إلى القول لا إلى القائل ، ولواجهوا الأدلة مواجهة فكرية ، تؤمن بالمنطق السديد ، ولا تتلمس للتعلات المريضة لتدحض الحق بالباطل :

أجل ، لن نذكر ما قاله رجال الإسلام من ذوى الاختصاص ، ولكننا نذكر ما قاله أفذاذ الباحثين من رجال العلم الأوربى حين واجهوا المسكرات بعامة مواجهة موضوعية ، فعرفوا خطرها الذريع على الأفراد والشعوب ، وعقدوا المؤتمرات السنوية فى أمريكا وفرنسا وبلجيكا ليتحدثوا عن مضار الخمور صحياً ونفسياً واجتماعياً ! وبديهى أن هؤلاء المسيحيين الكبار لن يتهموا بممالأة الإسلام وفى أقوالهم ما كان يجب أن يعيه مؤلف (حياتنا بعد الخمسين) ، لأن مثله لا يجهل من هؤلاء ؟

لقد أجرى هؤلاء الباحثون عدة تجاريب على الحيوان والإنسان ، وثابروا كل المثابرة على معاودة هذه التجاريب وتكرارها ، ليطمئنوا إلى مالا مزيد وراءه من التحقيق . وسننقل هنا بعض ما أجروه من البحوث ، وقام بتسجيله الأستاذ محمد أحمد الغمراوى فى عددى ١٠٣ و ١٠٩ من مجلة الثقافة الصادرين فى ١٩٤٠/١٢/١٧ ، ١٩٤١/١/٢٨ ، وللأستاذ الغمراوى مقالات أخرى شافية تكشف ما اهتدى إليه العلم فى تشخيص مضار الخمور ، وليتها تجمع فى كتاب :

(أ) إن الذين يقولون إن الخمرة تطيل العمر ، وتهدئ المرض فى الشيخوخة ، وهو ما ألح عليه الأستاذ سلامه موسى فى أكثر من موضع ، يجب أن يعلموا أن العلامة الأمريكى (الدكتور استوكارد) نشر بحثاً علمياً ضمنه خلاصة تجاريبه العلمية ممهداً بما بذله من الاحتياطات الدقيقة كى يحصل على النتائج الصحيحة ، وقد ذكر أنه أجرى بحوثاً شملت ١٣٠٠ أرنب تشمل خمسة أجيال ، سقى نصفها الكحول ، وترك النصف الآخر ، فوجد الأجيال المتفرعة من أصول سليمة لم تذق الكحول قد عاشت عيشة طبيعية ، ولم يكن فى خلقة أحد منها تشويه ما . أما الأجيال التى نسلت من أصول كحولية فكانت — مع قلة عدد أفرادها — ضعيفة ذات تشويه واضح ، وكان التشويه أظهر منه فى كل جيل يتأخر .

(ب) كما أن العلامة الدكتور (برتوليه) السويسرى قد تخصص فى بحث الأثر الهادم للغدد التناسلية من جراء الكحول ، فقام بتشريح غدد المئات من الموتى ذكوراً وإناثاً ، من يشربون الكحول ومن يمتنعون ، فوجد انضماراً وتقلصاً فى الغدد التناسلية للكحوليين ، وعرض النتيجة على هيئة علمية فقررت أن الغدد التناسلية أشد الأعضاء تأثراً بالكحول ، وأن نسبتها فى السائل المنوى أشد ارتفاعاً حتى تبلغ أحياناً ما يقرب

من مثلها فى الدم ، وبناء على ذلك فإن الحيوان المنوى يتأثر بالكحول ، ولو حدث حمل أثناء السكر ، لجاء الطفل مصاباً بعاهة ظاهرة فى الجسم أو باطنة فى النفس ، وقد تتبعوا الإحصائيات الممحصة ، فوجدوا نسبة الأغبياء فى أولاد المدمنين كثيرة جداً بالنسبة لأولاد الممتنعين ، وقد قام بهذه الإحصائيات الدقيقة أعلام كبار من رجال الطب فى مقدمتهم الدكتور الأمريكى (مكنول) ، وله مؤلف ضخم يجمع هذه الإحصائيات مشفوعة باستنتاجه الدقيق .

(ح) أجرى العلامة الدكتور (باركس) تجربة على عدد من الجنود كانوا متماثلين فى العمر والبنية والمعيشة ، إذ حدد لهم عملا يعملونه ، وقسمهم إلى طائفتين : طائفة أباح لها أن تشرب الخمرة أثناء النهار ، وطائفة حرم عليها الشراب ، فوجد أن الطائفة التى تشرب تنشط قليلا عند الشراب ثم يأخذها الفتور فتمضى اليوم متثاقلة ، أما الطائفة الأخرى فتستمر على قدر متناسب من العمل ، وتنتج أكثر من الطائفة الشاربة ، ثم رأى الدكتور أن يعكس الوضع ، فشرب من لم يشرب ، وامتنع من شرب فى يوم آخر ، فكانت النتيجة كالأولى ، ينشط الشاربون بدءاً ثم يكسلون ولا ينتجون ما ينتظر ، ويمضى الممتنعون فى عملهم الطبيعى دون مفارقة وينتجون الكثير ، ويأخذون أجراً أكثر ، لأن الجزاء بقدر الإنتاج .

ولعل الذين قرءوا كتاب الأستاذ سلامة موسى يعاودون هذه النتائج ، ويرجعون إلى مصادرها فى أبحاث العلماء ليهتدوا إلى الصواب .

(ى) أما ما قاله عن الأستاذ خليل مطران ، فقد بتر الحقيقة التى يعرفها الناس ، إذا كان الشاعر فى شبابه مجنداً للشراب ، وقد عل من الخمر ونهل ، ثم رأى أثر الخمرة فى جسمه وعقله وعزمه سيئاً مريعاً ، فامتنع عنهما امتناعاً باتاً ، وقال فى ذمها أبياتاً كثيرة ، وقد جمع الجزء الرابع من ديوانه الكبير آخر ماقاله فى خواتم حياته بعد أن تخطى الكهولة إلى الشيخوخة ، ومما قاله هذه القصيدة الرائعة فى ثلب الخمرة ، وقد سجلت بالجزء الرابع ص ١٩٤ ، ومنها :

دع الخمر نصح أخ إنها ... لتوهى القلوب وتردى النهى
وحيث وجدت دماراً وبؤساً ... ولم تدر مأتاهما ، ظنها

أما هي تلك التي ضعضعت شعوباً وذكت بهـا مدنهـا
وكل أولى العـزم قـد سبهـا ومافى ذوى الحزم من سنهـا
طلاقاً لشمطاء توهى القـوى وتشكل أم الوحيد ابنهـا
طلاقاً بتـاتاً بـلا رجعـة وحسب امرئ جنة جنهـا

ولعل الشاعر كان يرد على الكاتب من وراء الغيب حين قال :

ولا تقبلوا ترهـات غـواة ترى سوءها وترى حسنهـا
تعظم عن سـفه نفعهـا وترفـع من ضـعة شأنها
أليس لـوفـرة أرزائهـا تجـوز خالقهـا لعنهـا !

ولغير مطران فى الخمر شعر ثالب ذام ، أما الذين أسرفوا فى مديحها من الشعراء فهم فى كل واد يهيمون .

فهرس الكتاب

• المؤلف فى سطور •

أ . د . محمد رجب البيومى
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة .

– نال جوائز مجمع اللغة العربية المتعددة فى الشعر والمسرحية والدراسات الأدبية .

– له أكثر من ثلاثين كتاباً فى الإسلاميات والأدب والنقد والتاريخ والبلاغة .

– يصدر سلسلته التاريخية عن النهضة الإسلامية المعاصرة فى أجزاء متوالية ينشرها مجمع البحوث الإسلامية .

– له أربعة دواوين شعرية هى : صدى الأيام ، وحنين الليالى ، وحصاد الدمع ، ومن نبع القرآن .

– نشرت له مقالات وبحوث كثيرة فى الرسالة والثقافة والكتاب والهلال والأديب وغيرها من مجلات العالم العربى :

– أسهم فى الكتابة للأطفال بقصص كثيرة تعددت طبعاتها .

• ظهر من هذه السلسلة حتى الآن •

١ – الانتماء فى ظل التشريع الإسلامى : للدكتور عبد الله مبروك النجار .
٢ – السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة : للدكتور عبد المهدى عبد القادر .
٣ – وباء الفتنة والتعصب وعلاجه فى التوراة والإنجيل والقرآن :
للأستاذ السيد إبراهيم سليم
٤ – سعادة الأمة فى العمل بالكتاب والسنة : (كبار علماء الجمعية الشرعية) .
٥ – المنهاج الكامل فى بناء المسلم المعاصر : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٦ – الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة والمدينة : للأستاذ محمد مهدى عامر .
٧ – أهمية الصلاة فى حياة المسلم : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٨ – فى ميزان الإسلام (الجزء الأول) : للدكتور محمد رجب البيومى .
٩ – أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها : للدكتور محمد طلعت أبو صير .
١٠ – فى ميزان الإسلام (الجزء الثانى) : للدكتور محمد رجب البيومى .
١١ – قبسات من نور الرسالة : للدكتور محمد أحمد على سحلول .
١٢ – أخلاقنا : للدكتور محمد ربيع جوهرى .
١٣ – التوازن النفسى والاجتماعى فى الإسلام : للأستاذ رمضان الحسنين جمعة .
١٤ – الرسول صلى الله عليه وسلم فى رمضان : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
١٥ – الدوائر الدعائية المعادية للإسلام : للأستاذ حسن على .
١٦ – الرسول صلى الله عليه وسلم – نشأته ودعوته : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
١٧ – لكى تعود خير أمة : للدكتور السيد رزق الطويل .
١٨ – القرآن يتحدث عن محمد عليه الصلاة والسلام : للدكتور محمد أحمد على سحلول .
١٩ – منهاج الله فى هداية البشر : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٢٠ – نحو منهج إسلامى فى الفكر الإدارى : للأستاذ أحمد عبد العظيم .
٢١ – الرسول صلى الله عليه وسلم حول الكعبة : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٢٢ – صفحات هادفة من التاريخ الإسلامى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٣ – الإسلام وأهمية التيامن : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٢٤ – الإنسان فى مرآة القرآن : للدكتور محمد أحمد سحلول .

٢٥ — الرسول صلى الله عليه وسلم والوحى : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٢٦ — مجالس العلم فى حرم المسجد : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٨ — من فيض القرآن : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
٢٨ — نساء خالدات : للأستاذ مأمون يس عبد الله .
٢٩ — الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٠ — منهج القرآن فى تربية الإنسان : للدكتور محمد عثمان خيمر .
٣١ — ردود إسلامية فى قضايا معاصرة : للدكتور إبراهيم عوضين .
٣٢ — الفتنة المعاصرة وموقف المسلمين منها : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٣٣ — العقيدة فى الإسلام منهج حياة : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٤ — الصلاة فى القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٣٥ — حقيقة الإنسان بين المسئولية والتكريم : للدكتور أبو اليزيد العجمى .
٣٦ — هـذه دعوتنـا : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٣٧ — التفسير القرآنى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٣٨ — فى المحيط الإسلامى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٣٩ — أنت تسأل والإسلام يجيب للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٤٠ — عبادة الصيام : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤١ — من منطلق إسلامى — ج ١ : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٢ — عنصر الهداية فى القرآن الكريم : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٤٣ — الإسلام دعوة الحق : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤٤ — من منطلق إسلامى — ج ٢ : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٥ — موسى واليهود : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٤٦ — ملامح من هذا الدين : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٤٧ — الرسول وقضايا المجتمع : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٤٨ — طوبى للغرباء : للأستاذ رمضان الحسنين جمعة .
٤٩ — الرسول والموافقات : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٥٠ — مع القصص القرآنى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٥١ — اللسان العربى والإسلام معاً فى مواجهة المعركة : للدكتور السيد رزق الطويل .
٥٢ — من المثل الإسلامية : للدكتور محمد رجب البيومى .

• تحت الطبع •

٥٣ - قبس من هدى الصلاة : للأستاذ على مرسى .
٥٤ - نظرات فى نظم الإسلام وثقافته : للدكتور مصطفى أحمد أبو سمك .
٥٥ - مع الإمام البخارى فى كتاب العلم من صحيحه : للشيخ معوض عوض إبرهيم .
٥٦ - خصائص القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٥٧ - الإسلام يتصدى لأباطيل المستشرقين والملحدين : للأستاذ سامى محمد شهاب .
٥٨ - أخلاق إسلامية من القرآن والسنة : للدكتور الحسينى أبو فرحة .
٥٩ - الإسلام وأحلام العصر : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .
٦٠ - الإسلام دين الحياة : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .

رقم الإيداع ٤٧٥٤ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى : ٦-١٩٢-١٦٣-٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



المؤلف

د. محمد رجب البيومى

هـذا الكتاب

المثل الإنسانية فى الإسلام أكثر من أن تُحصر فى كتاب ، ولكن المؤلف عمد إلى طائفة من هذه المثل الرفيعة ، فبسطها بسطًا أدبيًا شافيًا ، حين تحدث عن العدل كظاهرة كونيَّة ، وعن حرية التفكير فى الاسلام ، ومكانة الرأى العام فى الدولة الإسلامية ، وما صدرَ فى التشريع الإسلامى من مواد قانونية تدل على المساواة والتسامح والإخاء ، أما الأخلاق الإسلامية ذات التأثير الحاسم فى السلوك الإنسانى ، كالإحسان والحلم والصدق والإخلاص ، الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والتفاؤل والوفاء ، فقد وجدت فى صفحات الكتاب مجالًا للبسط التحليلى المؤيَد بالدليل ، كما بُدئ الكتاب ببحثٍ ضافٍ عمن اعتنقوا الإسلام بعد دراسة فاحصة ، تأثُرًا بمُثلِهِ الرفيعة ، فكانوا أمثلةً حيّةً للإنصاف المستنير ، والاقتناع المطمئن ..

وقد أوضح المؤلفُ الأسبابَ الدافعة إلى اعتناق هذا الدين كما سجلّها أصحابها ، لتكون دليلًا على سلامة الفطرة الخالصة إذا أذعنَت للحق ، فسارتْ على الصراط القويم .

والكتابُ بهذا كله يُؤدِّى رسالة صادقة فى إيضاح الحقائق الدينيّة فى هدوء عاقل ، وتبصّر مكين .

